ليل غزة
الفسفوري

الكتاب: ليل غزة الفسفوري

الكاتب: وليد الهودلي

الطبعة الأولى - ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مُؤَسَّسَةُ فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني: thaqafa@thaqafa.org
موقع المؤسسة على الإنترنت:
www.thaqafa.org

تصميم الغلاف والإخراج:

م. جمال الأبطح

ليل غزة الفسفوري

وليد الهودلي

رواية

الإهداء

إلى ولدي الحبيب عبد الرحمن
وأخي العزيز فؤاد

مقدمة

حين يكتب الهودلي لغزة تحت نيران الغزاة، فإنه يتطهر بنار «الرصاص المصبوب». كانت روحه هناك تتمثل أصوات القصف على قلوب الأطفال، كان يريد أن يرفع كفيه إلى سماء غزة ليكف شر المغيرين، طائراتهم المعبأة بالحقد والبترول العربي كانت تشق فضاء المعتقل في بئر السبع، قبل توغلها وتغوّلها على ليل غزة، القلم يكتب والشفاه تتمتم بالدعاء والله – سبحانه – يستجيب لقلب لا يكفّ عن الوجيب... ملايين الشفاه يا غزة هاشم كانت تهتف باسمك في وجه المغيرين وكنت تقاومين... كنت تجالدين أعداء الحياة بصبر السنين... إحدى وستون قرية على ساحل فلسطين الغربي كانت منغرسة هناك كالوعد تقاوم... قاومتهم الفالوجة، قاومتهم المسمية، قاومتهم صرفند، عاقر، يبنا، المغار، بربرة، المجدل، برير، القبيبة، سلمة، زرنوقة، هربية، كرتية،... كلهن انتصبن كالقدر يبغي القصاص قبل انسكاب الرصاص... أيتها الأرض الطيبة... ابتلعي أبناءك الثائرين وخذيهم حيث يقف الأعداء، وانفجري في وجوه لم تعرف السجود على ثراك تطهرا.. أيتها السماء الحانية هيئي المعراج لأرواح

الشهداء، فإنهم جاؤوا إلى الله مقبلين وفي أيديهم البأس لأعدائه...

يا ابنة هاشم... يا درع فلسطين، ويا يمامة العرب، تبّت يدا أبي لهب وتب، قد جئت حقاً رغم أشلاء التعب، وزرعت هذا الكون صدقاً رغم أشداق الكذب.. وسحبت من ليل المرارة والحصار... ألف سيف من لهب...

سقط الحصار وصانعوه... وبقيت رغم بشاعة التدمير... والتزوير... والتغرير والتبرير... والترويع...

بقيت بركان الغضب..

وزرعت في ليل العرب، مليون فجر من لهب..

الدكتور عبد الكريم سلمان أبو خشان

تقديم

بدأت فصول هذه الرواية تنسج مع بداية الحرب الغاشمة التي شنها الاحتلال الاسرائيلي على غزة نهاية عام ٢٠٠٨ م وبداية ٢٠٠٩ م.

عاش المؤلف (الذي كان قابعاً في معتقل النقب القريب من موقع الحدث) أحداث الحرب فالطائرات تمر في سماء المعتقل والمذياع والتلفاز لايغلقان على مدار الأربع وعشرين ساعة، والتحليلات والتوقعات بين الأسرى لا تنتهي وبرغم ذلك فإن المؤلف لم يسجل من الأحداث الإجرامية سوى القليل القليل مما حدث على أرض الواقع.

ولكن تبقى الرواية عملا أدبياً رائعاً يحفظ به تاريخ مرحلة عصيبة مرت بها غزة هاشم والتي بإذن الله ستبقى رمزا للعزة والكرامة.

استطاع المؤلف تسجيل صفحة جديدة من صفحات الحب والحرب، حيث يتجلى الصراع بين نداء الواجب نحو الوطن ومغريات الهروب إلى المستقبل فيحسم الصراع منتصرا للواجب على أية مصلحة ذاتية.

الناشر

أخيراً تحرر من سجن آخَرَ فرضه الاحتلال عليه، عادت الحسناء ذات الأطياف الجميلة التي غابت عنه أسبوعاً كاملاً، عادت الكهرباء لتضيء عليه حياته بعد أن تمكن أبوه الموسر من شراء مولِّد للكهرباء. الاحتلال يلقي شباكاً جديدة على أعناق الناس، والناس بدورهم يتحايلون على هذه الشباك اللعينة. كان ينقص الحصار قطع الكهرباء، إضافة إلى منع الوقود ومصادر الغذاء والدواء، حتى يكتمل الظلام ويستمر كابوس أبناء العمومة - أدامهم الله -.

الدكتور علاء ينتمي إلى امبراطورية الشر التي تسمّى قطاع غزة. يقولون له في العائلة: «دكتور»، على اعتبار ما سيكون؛ فهو طالب يدرس الطب - سنة ثالثة - في مصر، طويل، نحيف، وجهه دقيق تكسوه سمرة خفيفة تكشف عن روح شفافة، وذكاء عميق يحركه من الداخل. حالوا بينه وبين جامعته، وحاصروه حصاراً خانقاً بدا كزنزانة لا باب لها.

ضاقت به السبل ولم يتسع صدر معبر رفح الحدودي لعبور الدكتور علاء. باءت كل محاولاته بالفشل، ثم لاذ إلى زنزانته ليحاول اختراق

الحصار عبر شبكة الإنترنت التي تفتح أحضانها لكل المشرّدين والمحرومين والمحاصرين. يرسل رسائل شتّى وفي كل الاتجاهات. يحكي عن الحصار وآثاره المدمرة لحقوق الإنسان. يدخل على منتديات عربية وعالمية، يحاور بقوة ويطرح موضوع الحصار وما سبّبه للشعب الفلسطيني من تداعيات مدمرة في كل جوانب الحياة. كيف يُمنع الناس من ممارسة حياتهم بكرامة؟ كيف يُسرِّبون المذلّة والإهانة إلى عروق الناس ودمائهم، كما يسري التيار الكهربائي في عروق شباكه الممتدة في كل مكان؟!!

• تم تدمير المفاعلات النووية في امبراطورية الشر، ستون مفاعلاً في لحظة واحدة، وقعت ضحية هجوم موحّد لثمانين طائرة F16. كتب ذلك الدكتور علاء بأعصاب متوترة وسبّابته تضرب على لوحة المفاتيح بكل ما أوتيت من قوة.

ردّ من الجهة المقابلة صديقه الأجنبي الذي نَمَتْ صداقته معه وترعرعت مع بداية الحصار على الامبراطورية، أي منذ ما يقارب سنتين، هذا الآخر عرَّف نفسه: طالب كلية هندسة في السنة الثالثة في جامعة كامبردج البريطانية.

- مساؤك خير، أولاً عن ماذا تتحدث؟ لولا أنني أعلم أنك لا تعاقر الخمر؛ لحُرمته في دينكم، لشككت في الأمر، عن أية مفاعلات نووية تتحدّث؟

• ألم تسمع الأخبار ظهر هذا اليوم؟!

– سمعت. إسرائيل هاجمت مقرات إرهابية في قطاع غزة. قتلت منهم ما يقارب مائتين وخمسين إرهابياً. صحيح أنها استخدمت أقوى ما عندها في سلاح الجو. ألم تقرأ في التاريخ – صديقي– عن الحروب والضربات المفاجئة؟!

• لهذا بدأت بالمفاعلات النووية؟ أصابت القدرات النووية ومحطات تخصيب اليورانيوم، ومخازن القنابل النووية ودمّرتها تدميراً شاملاً، لن تقوم لإمبراطوريتنا أية قائمة بعد اليوم.

– لا أدري ماذا تقصد، كل ما سمعته هو تدمير أوكار للإرهابيين.

• أرجوك افتح على قناة الجزيرة، واحكم على ما ترى، لا على ما تسمع من أضاليل إعلامية.

– سأحكم على النتائج، هذه ضربة قاصمة لأعداء السلام والإرهاب الفلسطيني.

• صدِّق يا صديقي أو لا تصدق. لقد ضربوا مقرات عامة لا علاقة لها بأي شيء مما تقول: مقرات تقدم خدمات شرطية، حركة السير، وأمن المواطن، والشكاوى والمحاكم. إنها ضربة جبان كي يزلزل أركان خصمه قبل أن تبدأ المعركة.

– وماذا تتوقع بعدما دمرت المفاعلات النووية؟

• يتحدثون عن مراحل، قد يضربون المطارات العسكرية والبوارج

البحرية في هذه الامبراطورية.

– أنت تمزح ياصديقي. أعلم أنه ليس لديكم شيء من هذا القبيل، ولكن، ألا تعلم أن القنبلة الديمغرافية أخطر من كل هذا ؟

• إذن لابدّ من القضاء على هذه القنبلة. إنها فعلاً حرب شاملة على الشعب الفلسطيني.

تسمّر علاء أمام شاشة التلفاز وهو يتابع صور الدمار الذي خلّفته الغارة العسكرية الأولى، الضحايا والأشلاء، والصراخ والعويل، والبكاء والجنازات، كانت صاعقة وقعت على رؤوس الناس من السّماء. عشرات الأطنان من القنابل انفجرت في وقت واحد. تزلزلت أركان الأبنية وتصدعت قلوب الرجال. أما عن قلوب النساء والأطفال، فقد خرّت وخلعت من جذورها، وأصبحت إلى الموت ولفظ ما فيها من الحياة أقرب، وكان العدوّ ينتظر أن ترفع المقاومة الفلسطينية الرّاية البيضاء من هول هذه الصدمة المريعة، ولكنها سرعان ما امتصت هذه الضربة، ثم أطلقت العنان للمقاومة بكل أشكالها، إطلاق الصواريخ على المستوطنات، والمدن الإسرائيلية المجاورة، ثم الجاهزية التامّة للالتحام بالجيش الغازي حال انتهائه من حربه الجوّية. وشروعه بالاجتياح البري لمدن امبراطورية

الشر ومخيماتها.

وسال لعاب الجيش الغازي على رؤية الدماء والأشلاء، فأطلق كل ما لديه من قدرات جويّة؟ ملأت سماء الامبراطورية أصواتاً مرعبة ظللّتها رائحة الموت والدمار، راحت تقصف المزيد من الأهداف، ومع كل قصف يسقط الضحايا من الجرحى والشهداء، وملأت سيارات الإسعاف بنفيرها وزئيرها ما تبقى من فضاء الزمان والمكان.

الدكتور علاء أمام هذه المشاهد التي تقشعرُّ لها الأبدان، انطلق دون تردد؛ ليعمل متطوعاً مع طواقم الإسعاف التابعة لمشفى الشفاء - المشفى الرئيسي في غزة - لم يجد أية صعوبة في إقناع أبيه، إذ كان يشاركه نفس الشعور تجاه شلالات الدم النازفة.

«على بركة الله، هذا أقل الواجب، دير بالك على حالك»، وهَمْهَمَ:

﴿**فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين**﴾.

أمه رفعت كفّيها وراحت تدعو له.

انخرط مع مجموعة من المسعفين، وسط حركة صاخبة مليئة بالدم والأشلاء والشهداء، يطاردون الحياة بين الأنقاض، وتحت الركام مع طواقم الدفاع المدني، بينما تعلوهم سماء ملبّدة بهدير الطائرات المتربصة بالبلاد والعباد، تهمر وترعد ثم ترمي بحممها كأنها صخور من سجّيل.

ولما عاد من يومه التطوعي الأول كانت الساعة الواحدة بعد منتصف

الليل، وكان لابد من إرسال رسالتين عبر البريد الإلكتروني، رغم الإرهاق النفسي والجسمي غير المسبوق، إلا أنّ حالة التحدي والاستفزاز العميق أشعلت كل مشاعر الغضب، وجعلت الإرادة تقف على قدم وساق.

جعل علاء من رسالتيه جسماً واحداً؛ وهو أهم ما مرّ به اليوم من أحداث، وفي نفس الوقت، غيّر من المقدمات بحيث تتلاءم مع المرسل إليه.

المرسل إليه الأول هو حبيبة القلب، ابنة عمه وخطيبته، سنة ثانية في كلية الطب، حيث تدرس في نفس الجامعة التي يدرس فيها، والدها أستاذ جامعي في كلية الطب، يسكن مصر منذ ثمانينيات القرن الماضي. أمها مصرية الأصل، ربة بيت ولها من الأبناء أربع بنات وولدان.

ما إن استعدّ الجهاز لاستقبال خفقات القلب، وتهيأت الشبكة الإلكترونية لتقوم بدور الحمام الزاجل، إلّا وانطلقت أصابع علاء مسرعة، دون أي تردد أو تروّ.

حبيبة القلب، عزيزتي يُسرى..

أرجو أن تعذريني على هذا الغياب، أخذني منك الواجب، إنه الوطن الغالي يا محبوبتي الغالية، رضى الله في الوقوف مع المظلومين، إنها الحرب الظالمة يا عزيزتي!

الذي يحدث لم يحدث مثله من قبل، لا عندنا ولا عند غيرنا. رمونا بكل أحقادهم، حجم الجرح كبير يفوق طاقة التصوّر والاستيعاب. كنت

أتهيأ للبقاء معك طويلاً، مع خفقات قلبك بكل ترانيمها العذبة، عملت المستحيل لاستعادة شريان الحياة لبيتنا، ركّبنا مولد الكهرباء كي أستلهم من الوصل بك رحيق الحياة ونعيد التواصل الحميم بيننا، ريثما يفتح المعبر وأتمكن من السفر إليك.... هذه الحرب اللعينة داهمتنا بكل ما لديها من فظاظة وقسوة وجبروت، الحديث عنها لا يكاد يصدّق وكأننا نشاهد فيلماً من أفلام الرعب الذي يتسابق فيه الخيال الشاذ، أو من أعتى ما وصلت إليه صناعة الرعب في «هوليود».... لكِ أن تتصوري حجم المأساة من خلال هذه القصة التي عاينتها هذا اليوم.

عشت قصصاً كثيرة من فنون وعبقريات الجحيم الصهيوني إلا أني اخترت لك هذه، رغم أنّ صدري يمتلئ شجوناً ملتهبة لك وأنت دوماً تتألقين في كل خلجة من خلجاته التي حدودها هي المسافة التي تمتد بين معبر قلبك، ونجوم سمائه ذات الحنين الصيفي الناعم، حيث ليالي النيل وروعة تلك الذكريات التي لا تنطفئ من حياتنا أبداً، بل تزداد اشتعالا يوماً بعد يوم. ولكنّ القصف المريع هذا اليوم يا حبيبتي طمس على صدري، لم أتصور أن ينزل من سماء غزة كل هذا الجحيم في يوم من الأيام.

إليك القصة:

أفرغتا حمولتيهما من الدقيق ومواد التموين التي توزعها وكالة غوث اللاجئين، تقاضتا ما فيه النصيب من الأجر، ثم عادتا أدراجهما للبحث عن رزقهما ثانية عند مركز تموين الوكالة.... هما فاطمة وعائشة، وعُمَر

أبوهما عاطل عن العمل منذ انتفاضة الأقصى حيث منع العمال من سوق العمل الإسرائيلية، ولم يجد البديل بعد سوى أيام متفرقة هنا وهناك. فاطمة (ثماني سنوات)، عائشة (عشر سنوات)، وصلتا إلى هذا الإبداع، أو قل صنع منهما ألم الفقر، وصفعات العوز القاسية هذا الاختراع: «كـارّة»، عربة يجرها حمار، تنقلان عليها للاجئين الذين لا يملكون وسائط نقل يدوية، أو ميكانيكية، أو حتى حيوانية. وأصبح ما تحصّلانه من أجر هو العمود الفقري لميزانية البيت، وهنا لابدّ أن أنوّه إلى أنهما اشترتا الحمار قبل أزمة الوقود الناتجة عن الحصار، كان ثمنه بخساً، بينما اليوم لو باع عمر بنتيه عائشة وفاطمة ما تمكن من شرائه.

روت الحاجّة صاحبة التموين الذي كان آخر نقلة في عمل عائشة وفاطمة هذا اليوم، أنها سمعتهما تتحاوران:

- «باقي علينا أربع نقلات على الأقل».

- الأولى والثانية لطعام الحمار يا فصيحة زمانك، لغاية الآن لم نتمكن من إشباع حضرة جناب الأستاذ صابر.

- عليه أن يشعر بنا ويخفف قليلاً من طعامه.

- ولكن لا تنسي قصة «مات بعد أن تعود قلة الأكل»

- لا سمح الله. «فال الله ولا فالك».

- أتُعزّينه يا عائشة.

- طبعاً، لولا أن الله يسّره لنا، فكيف كان حالنا؟!

- بإمكاننا بيعه بسعرٍ خيالي. سمعت أن الحمار يساوي هذه الأيام ألف دينار.

- وكيف نعيش بعده؟ لا، دعك من هذه الأفكار السخيفة.

- ولكن إن حصلنا على هذا المبلغ بإمكاننا العودة للمدرسة.

- إنسي الموضوع. كيف نستمر بعد العودة إليها؟!

- من أين نأتي بالمصروف؟ مصروف البيت؟

- أنتِ أصلاً لا تقدرين على فراقه، صار بينك وبينه علاقة حبّ.

- صحيح أنا أحبه. «معشّي العيلة».

- يجب أن نفكر بطريقة نعود بها إلى المدرسة.

- ما رأيك أن تؤجلي هذا الموضوع بعد هذه الحرب المدمرة، إن بقينا أحياء نفكر في الأمر.

- كان علينا أن لا نخرج للعمل هذا اليوم.. ألا تشعرين بالخوف يا فاطمة؟!

- أخاف من الشهادة؟! الشهادة أفضل من هذا الشقاء.

- ولكن الموت مخيف.

- لحظات وتنتقلين إلى الجنّة. لم الخوف؟!

أعطونا العنوان وانطلقت مع طاقم الإسعاف لا نلوي على شيء. البلاغ عن قصف عربة تقلّ طفلتين. السماء فوقنا تضج برعد الطائرات النفاثة والمروحية والاستطلاع. كل أدوات القتال الجوي تئز أزيزاً يزلزل الأرواح.

الناس يتحركون في الشوارع كأنهم جراد منتشر، هروب من كل مكان إلى أي مكان، سيارات الإسعاف تغدو وتروح، تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

صاروخ يخسف الأرض التي تحمل العربة ومن عليها من أسلحة الدمار الشامل، ضربوا العربة التي تحمل القنابل النووية لهذه الامبراطورية العظيمة. طفلتان لاجئتان ابنتا لاجئ ابن لاجئ. عائشة وفاطمة في ذمة الله. لماذا وكيف ومن؟ لماذا؟ ومن؟ الإجابة عليها معروفة، أما كيف؟ فهي بصاروخ لا أحد يعلم وزنه إلا الله. تناثرت شظايا العربة واختلطت الدماء بتراب الأرض التي تحولت إلى حفرة كبيرة. جمعنا القطع البشرية للطفلتين. الرأسين مع الهيكلين والأطراف وعدنا إلى المشفى، ونحن في غاية الصدمة والذهول، التقطت صورة للمشهد، لن أرسلها إليك؛ لأنها ستكون بمثابة ضربة في العمق، عافاك الله من كل سوء.

شتاء غزة الجميل، حيث براعم الزرع الأخضر في بداية تشكيلها، والأرض تتهيأ لعرض بضائعها بكل ما يطيب للعين، فزرقة السّماء الصافية والعصافير الطربة بألحانها. كل الخلائق تزهر بأرواحها العذبة لولا هذه الشياطين ورجومها المدمرة.

اسمحي لي الآن كي ألتقط قسطاً من الراحة إن استطعت الى ذلك سبيلاً - وإني أشك في ذلك - ولكن عليّ مواصلة العمل باكراً إن شاء الله.

أشواقي ومعانقة الأرواح التي لا تفصلها المعابر
علاء

نفس القصة حمّلها لصديقه الأجنبي جون، أرفق بها صورة المشهد، وكان لها هذه المقدمة:

صديقي جون: - مرحباً

اسمح لي أن أقدِّم إليك هذه القصة الجميلة على شكل رسالة؛ لأني لن أتمكن من فتح الحوار؛ نظراً للساعة المتأخرة من الليل، والإرهاق الذي أصابني نتيجة رحلة ممتعة طويلة.... أحد تجلياتها ستراه وتسمعه وتشمه عبر هذه القصة، حيث تتواصل الحرب من الجارة سيِّدة الديمقراطية، والواحة الخضراء في الصحارى العربية القاحلة. ما زالت الحرب مستعرة على جيوش ومعسكرات إمبراطوريتنا العظيمة. إليك أبرز قصة مرّت عليّ في هذا اليوم، حيث إني أعمل مسعفاً متطوعاً للتخفيف من معاناة ضحايا هذه المحرقة، اخترت لقصتي عنواناً: تدمير حاملة طائرات «أفرغتا حمولتهما من الدقيق ومواد التموين.....»

هذه صديقي المدمّرة البحرية، حاملة الطائرات التي تمكنت من قصفها وتدميرها صقور الجو الإسرائيلية. وتصبح على خير.

علاء/غزة - اليوم الثاني للمحرقة

في اليوم الثالث للحرب، لم يتمكن الدكتور علاء من فتح جهازه، والدخول على شبكة أحبابه عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان يوماً كألف يوم، تعاظمت المحرقة، وفقد الوحش صوابه، كان يتوقع

الاستسلام من تلك الصواعق الهائلة التي أشعل بها فتيل حياة غزة، وجعلها تتفجر دفعة واحدة، ولما لم تستسلم المقاومة وبدأت بالرد من تحت الركام، ارتدت الصدمة إليه، فجنّ جنونه وأخذ يضرب عشوائياً نتيجة لسوء تقديراته.

رأى علاء في يومه فظائع هائلة، وكانت لديه رغبة- تتعاظم مع كل مشهد -في تفريغ غضبه عبر ما سيكتب في بريده الإلكتروني، ولضيق الوقت كان يتخيّر القصة الأبلغ، وكلما قال في نفسه هذه التي سأكتب عنها، وجد مع مرور ساعات الرعب ما هو أقسى وأمرّ.

قرأ رد خطيبته

حبيب القلب والروح - علاء

منذ تسلّمي لرسالتك وقلبي ينتفض، روحي تزلزلت، وأصبحت كالديك المذبوح، ترفرف عليك بجناحيها، تحاول الذود عنك وحمايتك من كل مكروه، ما هذا الذي يحدث عندكم؟ في أي عصر نعيش؟ حبيبي حافظ على روحك، إياك أن يمسّك سوء، روحي فداك، جفت دموعي ولم يبق شيء منها إلا وذرفته، وأنا أشاهد ما يجري على الفضائيات، كيف من يعاينها ويمر بلحمه ودمه في كل تفاصيلها مثلك؟ إنها محرقة فظيعة، أسأل الله أن تخرج منها سالماً. إياك ثم إياك أن تقحم نفسك في المخاطر. أنا أعرف أنك متهوّر، كنت أرى تهوّرك عندما كنت تتكلم

في السياسة. اخدم الجرحى يا حبيبي في المستشفى، ودعك من طواقم الإسعاف هذه. إنهم يهود لا أخلاق لهم، قد يدمّرون سيارات الإسعاف، ولا يراعون حرمتها. يهود يا علاء. أمامنا مستقبل جميل. رائع، عظيم، لن تكون هذه الحرب الأولى والأخيرة لهؤلاء المجرمين. ادّخر نفسك للأيام القادمة، سيأخذهم الله بعذابٍ من عنده، سينتقم منهم يا علاء، حبيبي، روحي، أريدك سالماً.

حفظك الله وسدد خطاك وأعاد قلبك لعناق قلبي وإلى الأبد بإذن الله

يُسرى

رد عليها مباشرة، وقبل أن يقرأ رد صديقه الأجنبي جون.

عزيزتي، حبيبتي، يُسرى،

ردت عليّ كلماتك روحي، ذهب التعب والإرهاق، وثبت الحب والهيام، لو لم أجد لروحي زاداً إلا هذه الكلمات لكفتني، إنك بحروفك وكلماتك الجميلة تعزفين على أوتار قلبي أجمل لحن وأمتع أغنية، قلتِ «إن روحك ترفرف على روحي بجناحيها»بأي ميزان أزن هذه الكلمات؟ كيف تكون حالي غداً وهذه العبارة ترقص طرباً على مسرح قلبي؟ لن أتردد، لن أخشى رعباً رغم أعاصير الرعب التي تدّق أسافينها حولنا من كل جانب، لقد أشعلت روحي وجعلتها تطير فرحاً وطرباً وقوة وطاقة في خدمة من يصاب من أهلي وربعي. كيف بك وأنت تقصفين مخازن الطاقة في روحي

ثم تحذرينني من التهوّر؟ ثقي تماماً حبيبتي بأنه ﴿**لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾ ونحن مؤمنون علينا أن لا نخاف إلا الله. هم يريدون ترويعنا كي نلوذ في جبننا، ثم نستسلم لهم، إنهم لا يدركون بأن الذين يواجهونهم هذه الأيام هم مؤمنون، لا يدركون ماذا تعني ﴿**إن تنصروا الله ينصركم**﴾... ﴿**إن الله معنا**﴾.. لا تقلقي عزيزتي واعلمي أن ما أقدمه لا يذكر أمام ما يقدمه المقاومون. إذا كان عملي الإنساني مع طواقم الإسعاف تهوّراً، فماذا نقول للذين يصدون بأسلحتهم الخفيفة المتواضعة هذا الديناصور المسلّح بأعتى أنواع أسلحة الدمار الشامل؟.

روح فؤادي، من لهؤلاء المصابين؟ أطفالاً ونساءً ورجالاً مدنيين ومقاومين. الاحتلال يريد لهم النزيف حتى الموت، ونحن نريد الإنقاذ، مع من تريدين لحبيبك أن يقف؟ أم تريني من الجبناء الذين يقفون متفرجين؟. لا نامت أعين الجبناء. لو كنت عندنا هنا ما تخلّفت أبداً، بل أنا متأكد بأن روحك الطيبة العظيمة ستتألق مع المسعفين، هذا إن لم أجدها هناك في ساحات القتال. لو أنك ترين (عزيزتي) ما أرى!!

إليك اليوم ما رأيت وسمعت مما جرى مع عائلة البعلوجي، حيث كان لي أن أضع هذا العنوان: الشهادة تعانق نصف العائلة. أمام جحافل الرعب التي ملأت أركان البيت لم يكن أمام سيّدة البيت إلا أن تهدئ من روع أطفالها (في بداية الحرب) بادعاء أن هذه الصواريخ والقذائف تستهدف الشباب المقاتلين، وتترفع عن المدنيين الآمنين، ثم ما لبث أن

سقط هذا الادعاء بعد أن اقتحمت قصص الأطفال الشهداء الأفئدة الصغيرة في هذا البيت. ماذا تفعل الأم الآن. راحت تحدِّثهم عن الجنة التي تنتظر الشهداء، وهي أمام أعمار متفاوتة ما بين سنة وخمس عشرة سنة، تسعة من الأطفال بحاجة إلى عدة مستويات لغوية حتى تصل الرسالة. كبار القوم يفهمون معنى الجنة والشهادة، ولكن كيف يفهمها من هو دون السابعة مثلاً؟ كيف تجيب على سيل الأسئلة التي تنهمر عليها من هذا المؤتمر الصحفي البريء؟

- «الجنة بعيدة يا ماما؟!»
- كيف يسافر الشهيد إلى الجنة، في طيارة؟!
- «الشهيد لما يموت يا ماما يتوجع؟ يبكي؟».
- «إذا بدو الشهيد يرجع ربنا يرجعه؟».
- الشهداء في السّماء يرون هذه الحرب؟
- «ربنا يكره اليهود يا ماما؟».
- «إحنا ربنا بحبنا؟».
- «إنت يا ماما بتحبي تستشهدي؟».
- «خذينا معك؟».
- «الجنة كبيرة؟ إيش فيها؟ فيها طيارات؟ صواريخ؟ فيها حرب؟».
- «اللّي صواريخ اليهود حرقته وقطعته، يرجع مثل ما كان في الجنة؟».
- «في مستشفيات في الجنة؟».

وهكذا أسئلة يحركها الهلع الذي اجتاح صدورهم الصغيرة، كما يجتاح الليل ضياء النهار فيخمد أنفاسه.

استيقظت العائلة بكل مواطنيها الصغار على هدير صقور الجوّ الإسرائيلي، وكأنها رعدة سماوية قد بدأت ولا تريد أن تنتهي إلا بدمار الأرض ومن عليها.

كانت تحلّق بأعداد كبيرة وعلى ارتفاع منخفض. التمّ الأطفال حول أمهم، والخوف يخرج من عيونهم كما تخرج أصوات الاستغاثة من الأفواه الموجوعة. حاولت الابتسام والتخفيف من هول هذه الأصوات، ولكنها لم تستطع. لم تعهد صوتاً بهذه الغلظة والقوة من قبل. كانت كالموت الصاخب الذي يتصوّر الكافر فيه رؤوس الشياطين.

دفعة واحدة تزلزل البيت، ارتفع عن سطح الأرض، تكسّرت الجدران وخرّ السقف فوق رؤوس ساكنيه، تطاير فيه كل شيء.

قالت الأم: كدت أختنق وأفقد صوابي، بل إني فقدته أمام ما سمعت من أنّات أبنائي وصرخاتهم، ولكن الله أعاد إليّ جناني وثبتني حيث نهضت من تحت الركام والغبار لأتفقد رعيتي واحداً تلو الآخر. سمعت ابنتي الكبيرة تقول لمن هم أصغر منها: تشهّدوا، تشهّدوا، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. دبّت الحيوية في أركاني وأنا أسمع ابنتي، وهي أشدّ ثباتاً وتماسكاً مني، ليت أمي لم تلدني حتى لا أرى ما رأيت. كيف ترى عائلتك وقد تقطعت إرباً إرباً، وتضرّجت بدمائها. رأيت

من يستغيث ويصرخ بكل ما لديه من عزم منكسر، ماما، ماما، ما ما، ثم لا يقوى على الاستغاثة، يلتقط أنفاسه وبصعوبة بالغة يحاول تجميع حرف الميم من ماما، ثم والرعب ينبعث من عينيه يلفظ أنفاسه الأخيرة. صعقتني سلمى وهي تدور بعينيها. ثم ما لبثت أن تجمّدت دون حراك. الموت السريع كان رحمة على سلوى ورنا، ثم تباطأ الموت قليلاً على سعيد وعلي، تجرّعاه على مدار ساعة طويلة، وهما على صدري. التحقا بأختيهما قبل أن يصل الإسعاف. والباقي مشغول بجراحه في أنين لا ينقطع. لكلّ منهم شأن يغنيه عن مصيبة غيره، سوى هذه الكبيرة التي حملت همّهم معي وهي تغالب الدموع والألم وقتامة المشهد.

وها نحن في المستشفى خمسة جرحى نرجو الشفاء ونترحّم على من أصبح في جنة يستريح فيها من هذا العناء، ولا نقول إلا الحمد لله. سيعود زوجي من خنادق المقاومة إن كتب الله له النجاة ليجد عائلته وقد قسّمتها الشهادة. عانقت نصفهم وتركت له النصف الآخر.

هذه عزيزتي قصة من عشرات القصص التي مرّت عليّ في هذا اليوم الصاخب.. فهل مساعدة هؤلاء الناس تهوّر؟؟ أم هو في أدنى درجات تلبية النداء؟.

دعواتك يا قلبي النابض في مصر الحبيبة، أشواقي الملتهبة يا نور عيني...

تصبحين على خير - علاء

أيضا وجد رسالة من صديقه جون، قال فيها:

صديقي علاء

العب غيرها، لا تلعب معي على وتر العواطف، إذا أتاك من يشكو فقء عينه فلا تحكم له حتى تسمع من الطرف الآخر؛ لأنه قد يكون قد فُقئت عيناه الاثنتان. صحيح أن قصتك مؤثرة، ولكن ماذا عن الصواريخ التي تطلقونها على المدنيين في الجانب الآخر؟ألا يوجد هناك قصص مأساوية مثل التي ذكرت؟!

صدقني أنا متعاطف مع الشعب الفلسطيني، ولكن ماذا فعلت له هذه التي تقولون عنها مقاومة غير المآسي والدمار؟ لماذا لا تنضم هذه الأحزاب لفريق السلام الفلسطيني؟! أنا متأكد من أن العالم الحر سيقف معكم وستصلون لأهدافكم وتحصلون على كل حقوقكم. أنا من جانبي دخلت على مواقع إلكترونية إسرائيلية واطلعت على قصص مأساوية لا تقل عن قصتك التي أرسلتها لي. خذ مثلاً هذه القصة،قصة مقابل قصة «وأنا وإياك والزمن طويل!».

ضرب صاروخ فلسطيني ملجأً في بلدة «سدروت» الإسرائيلية، أصابه في العمق فقتل وجرح من فيه، سالت الدماء بغزارة، صارت بركة غطت أرض الملجأ، تضرّج الأطفال بدمائهم، انقطعت الكهرباء وعمّ الظلام، الأنين والنحيب والعويل كاد يفجّر شرايين دماغي. ماذا أفعل؟ خُضت غمار الدماء والأشلاء وشرعت بالبحث عن الهاتف. أخيراً وجدته،

حاولت طلب الإسعاف والنجدة، ولكنّي وجدت الهاتف بلا روح. تذكرت هاتفي الخلوي، سحبته من جيبي فوجدته بلا بث. ماذا عليّ أن أفعل والإنذار مازال قائماً حيث خطر الصواريخ في الخارج. لم تعد الملاجئ آمنة، ولا طاقة لي بهذا الأمر. بدأت بالصراخ ولما اشتد صراخي خرجت من هذا الكابوس. أشعلت الضوء فإذا بأوضاعنا داخل الملجأ على ما يرام، ولكنّها كوابيس الحرب.

انتهت القصة، انظر صديقي علاء كيف تسللتم إلى أحلام جيرانكم، وحاصرتموهم بإرهابكم حتى في منامهم.

آمل أن يحلّ السلام وتنعموا أنتم وجيرانكم بحياة سعيدة، يعيش فيها الإنسان بسلام وأمان.

بوركت يا صديقي، باي/جون

اشتعل علاء غضباً، فكّر في أن يقطع الاتصال مع هذا المأفون، ولكنه قال في نفسه إنك يا علاء تقاوم بطريقتك الخاصة، في إسعاف الجرحى والمنكوبين نهاراً ثم تواصل مع العالم الخارجي عبر هذه الشبكة، إذن لتسمع من هذا الأجنبي لتعرف كيف يفكرون وبأي العيون ينظرون إلينا، رُدّ عليه، ثم لا تحصر رسالتك فيه دائماً، وإنما عممها على أوسع نطاق. آه تذكّرت، صديقي محمود، ناشط وهاوٍ في المواقع الإلكترونية، يستطيع أن يعمّم هذا السِّجال مع الأجنبي على أوسع نطاق ممكن، وقد يحذو

حذونا كثيرون وتنطلق مقاومة تُسمى فيما بعد المقاومة الإلكترونية. إذن ما عليك إلا أن تضع الفكرة في رأس محمود ثم تزوّده بهذا الصراع الفكري والسياسي والإنساني مع هذا العدو الصديق «جون».

صديقي جون..

صباحك ورد، رغم أن صباحنا نحن في غزة قصف ودمار بكل آلات العصر، وما وصلت إليه ترسانة العالم الحرِّ الجوية.

لن أرد على رسالتك ولن أفنّد ما ورد فيها، سأعتبرك تمزح، أين قصتك مما يحدث عندنا؟ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا جاء في خيال بشر، تقارن بين حلمٍ وواقع؟! رغم أن هذا الحلم الذي اصطبغ بالدم وأصبح كابوساً يرهق نومهم هو نتاج بحر الدماء الذي اقترفته أيديهم في غزة. يا رجل تتأسى على أحلامهم ولا تتأسى على المجازر التي ملأت شاشات التلفاز. ألا تشاهد الجزيرة مثلاً؟ افتح عليها ومتع عينيك بما لذّ وطاب من المجازر التي تعددت أشكالها وألوانها.

اليوم اخترت لك هذه القصة من بين عشرات القصص التي عاينتها بأم عيني...«ثم قص عليه نفس القصة التي أرسلها لخطيبته».

«أمام جحافل الرعب التي ملأت أركان البيت... ليجد عائلته وقد قسّمتها الشهادة... عانقت نصفهم وتركت لهم النصف الآخر...»

وأخيراً أشكر لك دعوتك لفصائل المقاومة كي تنضم إلى فريق

السلام، هذا الفريق الذي أكرمه المفاوض الصهيوني، وأعاد له حقوقه المسلوبة منذ عشرات السنين، منذ نكبة فلسطين سنة ثمان وأربعين!!؟ هل سمعت بها، وسمعت بأن هذه التي يقال عنها «دولة إسرائيل»قد حلّت في أرض كانت عامرة بالمدن والقرى الفلسطينية. هجّرت أهلها بقوة السلاح، وبالمجازر التي مازالت ترتكبها لغاية الآن....من أين جاء اللاجئون الفلسطينيون، من حلّ في ديارهم؟ صدرت قرارات الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وانسحاب الاحتلال من الأراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧م، وقرارعودة اللاجئين إلى ديارهم مع تعويضهم، لم ينفذ أي شيء منه، بل تمادت السيدة إسرائيل في طغيانها ولاحقت اللاجئين أينما وجدوا بالمزيد من القتل والتشريد، ها هم أخيراً في غزة يلقون جحيمهم على سكانها، ألا تعلم أنّ ٧٥٪ من سكان قطاع غزة من اللاجئين الذين طردوا من ديارهم؟ لا أريد أن أتوغل طويلاً في السياسة حتى لا أثقل عليك، ولكن إن أردت الحقيقة فاقرأ تاريخ المنطقة عندنا، من مؤرخين معروفين بنزاهتهم وموضوعيتهم مثل إيلان بابي خاصة كتابه-التطهير العرقي- وايفي شلاين وغيرهم،وإياك أن تقع في شرك الذين يزيّفون التاريخ. يا صديقي، فريق السلام الذي تريد للمقاومة أن تنضم إليه منذ سبعة عشر عاماً، أي منذ مؤتمر مدريد سنة ١٩٩٢م، وهم يفاوضون دون أية نتيجة تذكر، بل على العكس من ذلك ازدادت الحقوق الفلسطينية غرقاً في وحل العنت والصلف الصهيوني.

دعنا من السياسة الآن؛ لأن حقائق قضيتنا أوضح من الشمس في رابعة النهار لكل من أراد أن يحترم عقله ويسلك طريق المنهج العلمي في البحث. إليك هذه النكتة التي أود أن أختم بها... وزير الحرب الصهيوني «باراك»قال إنه يريد حرق غزّة، فقالوا له: كأنك لا تعلم أن أهل غزة أكثر أهل الأرض عشقاً للفلفل الحارق، وهو أعظم الطعام متعة لهم.

أقول تصبح على خير

علاء/غزة / صباح اليوم الرابع للمحرقة.

في اليوم الرابع استطاع علاء أن يعود مبكراً. أراد ذلك كي يتفقد جيرانه في الحي الذي يسكن فيه، كانت الساعة التاسعة ليلاً عندما تسلل وقطع المزرعة الفاصلة بين داره ومجموعة الديار التابعة لحمولة «الليموني». كان الليل هنا قبل هذه الحرب المريعة في مثل هذا الوقت هادئاً ساكناً ناعماً، يعكس تشكيلة رائعة، شجر البرتقال داكن الخضرة، ملتمع الثمر خاصة عندما يعرض تجلياته على الأضواء الكاشفة للشارع المحاذي، الشجر الصنوبري عالي الهامة يشكل خلفية جميلة لهذه البيّارة التي تسرّ الناظرين. الروائح عطرة من شذى البرتقال، وسيقان الزرع المرطب بالندى السخيّ الذي يتخلل أوراقه الدقيقة ذات الأشكال الهندسية المعقدة. يخف في مثل هذا الوقت ضجيج السيارات ويرتفع ضجيج الجمال، وروعة الفيافي الخصبة لهذه الأرض الطيبة، وإذا أطل

القمر بطلعته الباسمة الرضية، فإن المشهد يكتمل، تتلألأ الأرواح وتشدو بأنغامها كي ترتقي إلى مستوى هذا الجوّ البهيج.

أما اليوم فهدير الطائرات بأنواعها الثلاثة: (النفاثة، والمروحية، والاستطلاع دون طيار)، تحفر هدوء المكان، وتفتح فيه أخاديد عميقة. هذا عدا عن الصواريخ الضالة بقدراتها التدميرية الهائلة. سماؤها أصبحت ملبّدة بسحب الموت السوداء، ما تلبث إلا وتخرج برقها ورعدها، ثم تنزل جحيم مطرها على رؤوس العباد ومنازلهم ومهاجعهم الخاشعة.

وبدل الدوران عليهم منزلاً منزلاً؛ ولضيق الوقت، توجه إلى مضافتهم حيث إنه وجد أولاد العمومة مجتمعين. رحبوا به بحرارة، ثم دخل معمعان نقاشهم مباشرة، حيث إنه كان ساخناً، كان معتاداً على نقاشاتهم وهم معتادون عليه، يستأنسون برأيه ويرون فيه درجة عالية من الفهم وسداد الرأي. حمولة الليموني مجموعة عائلات مزارعة. يعملون بجد ونشاط في مزارعهم المحيطة بديارهم. تمحور النقاش اليوم حول نقطة مركزية واحدة. قوة المقاومة في غزة أمام قوة «إسرائيل»الهائلة؛ مخاطرة غير محسوبة، وهي من قبيل إلقاء النفس بالتهلكة ومناطحة الكف للمخرز، بينما الفريق الآخر يقول ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة**﴾، الله معنا وسوف ينصرنا على القوم الظالمين.

أبو يوسف في العقد السادس من عمره، هادئ السمت، تبدو من صفاء وجهه ونور عينيه حكمة عقله، وكمال رشده، ثاقب الرأي يتحدث بوقار

وجلال، وكأن قلبه ينطق دون لسانه. سلّم الفريق الأول في النقاش قيادته أخيراً لأبي يوسف، رضي به ضمنياً أن يمثله في هذا الحوار الذي نزل عن صهوة صخبه بعد حضور الدكتور علاء.

أبو سعد في العقد الرابع من عمره، شديد الحماسة، قوي الشكيمة مرتفع الهمّة ذو نخوة مشتعلة، جهوري الصوت، ذو نبرة حاسمة قاطعة كالسّيف، أو كصوت الرصاص المنهمر، يرسم ملامح وجهه زوايا وتجاعيد خفيفة تنذر بتقدم العمر قبل أوانه، إطار الوجه: لحية كثة أسفله، وصلعة ملساء أعلاه، تساعد اللحية بحركتها المتسقة مع نبرات الصوت في فهم المعنى الذي يريد.

أبو يوسف يحاول ضبط نفسه على هدوئها بكل ما أوتي من حلم.

- يا جماعة.. «إسرائيل»بما تملك من ترسانة عسكرية تستطيع أن تهزم الجيوش العربية مجتمعة، صحيح أن الإيمان والإخلاص وعون الله الذي تتحدثون عنه له دور في المعركة، ولكن هذا بحاجة إلى قوة؛ لذلك قال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ هل أعددنا ما يكفي لمواجهة هذه الطائرات التي ترمي بحممها في كل مكان. أين طائراتنا؟ أين دباباتنا؟

- أين أعدادنا من أعدادهم؟ واهم من يتصور بأنه قادر على تحقيق نصر على هذا الجحيم.

- أنهيت كلامك يا أبا يوسف؟ «كلامك على راسي.»لكن اسمعني

للآخر كما سمعتك. قل لي كيف انتصر حزب الله في صيف ٢٠٠٦م على هذا الجيش الذي لا يقهر. لقد قهره حزب الله وهزمه شرّ هزيمة، أما عن قولك الجيوش العربية لا قبل لها بهذا الجيش فهذا قول فيه نظر، ألم تنتصر أو على الأقل حققت توازنا في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، الجيش المصري والسوري حققا إنجازاً رائعاً في هذه الحرب. أما عن علاقة الإيمان بالقوة المادية والإعداد فهذا صحيح ولكن تفاوت القوة يعوّض عنه بسلوك طريق حرب العصابات، بدل حرب جيش مقابل جيش، وهذا سرّ نجاح المقاومات الشعبية عند كل الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال.

- أنتم لا تأخذون بعين الاعتبار، سلاح الجوّ وهذا الجحيم الذي يأتينا من فوقنا، ها هو اليوم الرابع دون أن يطأ جندي أرض غزة، ماذا لو استمرت الحرب هكذا، ماذا ستفعل المقاومة، سلّم لي عليها.

- معروف أن الجيوش لا تستطيع حسم المعركة من الجوّ؛ لذلك لابدّ لهم من الحرب البرية، عندئذ سترى ماذا ستفعل المقاومة بهم، التجهيزات على قدم وساق لهذه الحرب، اطمئن، ابني علي وأخي محمود وبقية المقاومين مطمئنون تماماً على حسمها لصالحهم بإذن الله.

- «الله يسترنا منهم، ومن غرورهم، أنتم كأنكم لا ترون ولا تسمعون فعل هذه البراكين المتحركة فوق القطاع، يا رجل أحدث الطيران الأمريكي يفعل فعله فينا. ها هم دمّروا مقرّات الشرطة، ثم انتقلوا إلى الوزارات والمؤسسات ثم يقولون بأنهم في المرحلة الجوّية الثالثة سيدمرون منازل

المقاومين.

- ليدمّروا ما شاؤوا، المهم أنهم لن يخرجوا منتصرين، لن يدمّروا إرادتنا.

- كابر كما يحلو لك. أنا وأبنائي قررنا أن نحمي أنفسنا ومنازلنا من هذه الحرب. «رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه».

- يا سيدي ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾..

- ما كتبه الله لا ما تكتبونه لأنفسكم دون حساب.

- دكتور علاء.. ذكرني بالآية التي فيها ذكر الأعداء الذين يتجمعون ويحشدون قوة عظيمة لحرب المؤمنين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل.

لم تكن نفس علاء مفتوحة هذا اليوم للنقاش؛ لأن هذه الأفكار نفسها دون أي تغيير منذ زمن طويل تدور رحاها من غير أن يقنع طرف الطرف الآخر. أمام هذا السؤال أدلى بدلوه:

- الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ..﴾

سأل أبو يوسف:

- ما رأيك دكتور علاء في هذا التهوّر الجنوني للمقاومة أمام هذا الطيران الذي لا يرحم.

- هي حرب مفروضة علينا. ماذا نفعل غير المقاومة؟!

- كان بالإمكان تجنب هذه الحرب، بالمفاوضات، بالمقاومة السلمية، ننتظر ظروفا إقليمية وعربية أفضل من هذه. الكل منبطح من حولنا، لماذا ندفع هذه الفاتورة الرهيبة نحن وحدنا؟!

زأر أبو سعد قائلاً: إذا الكل انبطح فهل تنبطح يا رجل؟! المفاوضات منذ سبعة عشر عاماً ماذا أنتجت؟ في الضفة لم تستطع زحزحة حاجز من حواجز العذاب والامتهان لكرامة الإنسان الفلسطيني، نحن هنا مقاومتنا السلمية للحصار مع عدم التقليل من أهميتها لكن ماذا أنتجت؟ مظاهرات ومسيرات وجوع وألم ومعاناة، وسفن كسر الحصار والنتيجة هذه الحرب، بعدما فشلوا في الحصار الذي صمم لكسر إرادتنا جاؤوا لكسرها «بالرصاص المصبوب».. انظر لاسم هذه الحرب «الرصاص المصبوب».. كيف سنرد عليه بالمفاوضات... بالقبلات الحارة التي نراها بين عباقرة المفاوضات؟!

كان لابد من فك هذا الاشتباك، قبل أن يستأذن صاحبنا علاء ويعود أدراجه. ناشدهم برقّة ولطف.

- لنفكر معاً، ماذا علينا أن نفعل الآن؟ الحرب وقعت وأصبحت شرّاً لابد منه، لندعو الله من أعماقنا للمقاومين، ندعُ على هؤلاء الظالمين، هذا أولاً، ثم لنفكر كيف نعزز معنويات الناس في صمودهم وثباتهم؟ إذ أنتم الجبهة الداخلية للمقاومة. النصر في هذه المعركة سيكون بإذن الله نصراً عظيماً وله ما بعده، والهزيمة لا سمح الله إن وقعت فسيسحقون

الناس كما تسحق الحشرات تحت النّعال، لن يرحمنا أحد، سنتجرّع الذل بكل ألوانه وأشكاله؛ لذلك إخواني ليس لنا إلا النصر وما هو بإذن الله إلا صبر ساعة. عندما تبدأ الحرب البرّية سيجدون غزة جحيماً أعتى من جحيم طائراتهم وصواريخهم بإذن الله.

استأذن علاء وانسحب بسلام من هذه المعركة، قبل أن يبتعد سمع أبا يوسف يعلو بعقيرته:

- اركبوا رؤوسكم كما يحلو لكم. عندما تدمر بيوتكم ستتعلمون الحساب من جديد. أنا لا أجبن إنما هي الشجاعة المحسوبة، الشجاعة في وقتها. «طول عمري في المقاومة لكن لما كانت تحقق نتائج، مقاومة عاقلة وليست مجنونة كهذه».

ملأ علاء صدره بحسبنا الله ونعم الوكيل، وهو يسمع هذا الكلام الذي يأتي في غير وقته، ثم هذا التبرير المقيت لحالة الخور والنكوص على الأعقاب، يأتي بلغة الفهلوة السياسية وادّعاء الذكاء السياسي والنظر إلى الآخرين بالغباء، والمراهقة السياسية وجنون العاطفة. كبت نفسه ولم يفتح لها المجال للحديث عما يعرف من قدرات المقاومة المادية والمعنوية، ترك ذلك كي يُغني الفعل عن القول في الأيام القادمة.

في رحلة العودة إلى بيته أحسّ علاء بالرعب يجتاح أركانه. لم تكن أصوات القصف - رغم بعدها عنه - طبيعية. كانت كأنها زلازل يأتي الواحد تلو الآخر. ها هو على أطرافها البعيدة فكيف بمن هو في عمقها.

وكانت سماء ذلك الليل تتوهج ناراً وتندفع من عمقه الصواريخ الثقيلة التي لا يستطيع أحد تحديد منطلقها إلا عندما ترتطم في الهدف محدثة زلزالاً وبركاناً في وقت واحد. هذه الحرب غير مسبوقة ولم يعهدها الناس من قبل...

كان أبوه وأمه وأخواته الثلاث متسمّرين على شاشة التلفاز حيث قناة الجزيرة تنقل الحدث أولاً بأول. تلونت الشاشة بالدم، حيث الضحايا بدمائهم الغزيرة وأشلائهم المقطعة. كانت مجزرة مفتوحة بكل معنى الكلمة قوامها الأطفال والنساء. لم ترحم المحرقة الصهيونية في غزة طفلاً أو شيخاً أو امرأة. علّق أبوه بصوت مرتجف:

- ما هذا الجنون؟ إنهم نازيون؟ فاشيون، هذا إجرام غير مسبوق، ألا يرون أهدافهم وضحاياهم؟

قال علاء وهو يجلس متابعاً للمشاهد:

- كيف بك عندما تحمل هذه الأشلاء بيديك، تخرجها من تحت الأنقاض وهي تصرخ وتئن، ثم ما تلبث حتى تلفظ أنفاسها، وتسبل عيونها على أقسى ما عرفته البشرية.

- «كان الله في عونك يا ابني،» أنا لا أتحمل رؤيتها على التلفاز، وكانت أمه تذرف الدموع وتدعو ضارعة لله بأخلص الدعاء، بينما الأخوات مشدوهات ويملأ عيونهنّ الرعب والهلع وكأنهن يشاهدن فيلم رعب يُحظر على الأطفال، ويحتاج إلى قلوب كبيرة لتحمّل فظاعته.

ولج علاء إلى غرفته ليفتح بريده الإلكتروني. قلبه يتلوع على وقفة في محطة خضراء، في رحلة سفره عبر هذه الصحارى القاحلة والمشوّهة بالقتل والدّمار.

وجد رسالة من خطيبته فسارع بفتحها وهيأ نفسه لوجبة شهية أراد أن يلتهمها كلمة كلمة بما ينعش روحه ويردّ عليه فؤاده.

حبيبي وروح قلبي، علاء حياتي،

أشتاق إليك شوق الشتاء القاحل الذي أمسكت عليه السّماء ماءها، فاجتمع الناس والحجر والشجر وكل الكائنات ليصلّوا صلاة الاستسقاء لينهمر المطر. أنا الآن في صلاة استسقاء دائمة لا تتوقف، إلا إذا رأيت مطري وشمسي وهوائي التي تجمعها كلمة علاء، قد اجتازت المعبر اللعين، وعانقتني بكل ما لديها من دفء وحنان وحياة..

حبيبي علاء. أريدك سالماً. الحياة أمامنا جميلة ورائعة. أؤكد عليك، لا تقحم نفسك المخاطر، اطمئن على وطننا وربعنا، ستأتي الأيام التي نخدمهم فيها بعيوننا. سنفتح معاً عيادة مشتركة. أنت طبيب أطفال وأنا طبيبة نسائية، وسنواصل الليل بالنهار في خدمة الناس، لن نبخل عليهم، أمّا الآن فهي المرحلة التي تسبق العطاء، فلا تضيّعها في أعمال يستطيع غيرك القيام بها. أرجوك يا حبيبي، افهمني جيداً. أنا لا أدعوك للجبن والتقاعس عن أداء الواجب وإنما هي الأولويات.. نحن بحاجة

إليك. حبيبتك ستموت دونك (لا سمح الله). أبوك وأمك وأخواتك أنت وحيدهم فلا تفجعهم فيك.

أطمئنك حبيبي، الشارع المصري يغلي، المظاهرات تملأ شوارع المدن المصرية، كل العرب والمسلمين هبّوا هبة منقطعة النظير مع إخوانهم الفلسطينيين، رغم شكوكي في جدوى حركة هذا الشارع، إلا أن هذا قد يساعد بإذن الله ويضغط على الحكومات التي هي في واد وشعوبها في وادٍ آخر.

لنا النصر حبيبي بإذن الله، قبلات قلبي الحارة لقلبك النابض رغم أنف المعابر

يسرى

أناخ علاء روحه في ثنايا كلمات الحبيبة، وفي نفس الوقت استفزته كلمات الخوف ومبرّرات الجبن وتولّي الأدبار.

حبيبة الروح والفؤاد،

إذا كان شوقك لي شوق الشتاء الظامئ للمطر، فأنت شتائي الناعم الذي يدوم فيه المطر، وينمو فيه ويترعرع العشق والشجر.

اشتقت إليك يا روح روحي كما يشتاق المقاومون الرابضون في أنفاق مدينة غزة لمعانقة ملاحم البطولة والفداء عندما تبدأ الحرب البرّية.

أشتاق إليك اشتياق أهل غزة لحريتهم المغتصبة منذ عشرات السنين. ما أعظم وأروع وأهنأ وأسعد الإنسان عندما ينعم بالحرية! الحرية عزيزتي هي ذلك الطائر الجميل الذي يحلّق في الفضاء الجميل وفي الوقت الجميل وبالطريقة الجميلة التي يصنعها لنفسه دون أن ينغص عليه أحد. الاحتلال عكّر لنا فضاءنا وأغلق علينا كل شيء، المعابر هي صورة ملموسة من صور الاحتلال البغيضة بينما الحقيقة أنه لم يترك لنا أيّ مجال مفتوح من مجالات الجمال في حياتنا. أنت يا حياتي الوحيدة التي أدخل في قفص حبّها طواعية بينما يفشل الاحتلال بكل جبروت أدواته العسكرية الطاغية أن يصادر حرية هذا الطائر الجميل. حرية أهل غزة.

أربأ بك وبنفسي حبيبتي عن تأجيل نداء الواجب في خضم هذه الملحمة؛ متذرّعين بالمستقبل التليد. هي فرصة الحياة الآن، إما أن أكون حرّاً فأشارك الأحرار في صناعة الحرية، أو أن أكون عبداً أبيع نفسي وحريتي بثمن بخس. أنا لا أرى أن جمال روحك وعذوبة قلبك تسمح لي بالفرار من الواجب وقتما أسمع استغاثات الجرحى والمصابين وهي تتلوى ألماً في أعماق فؤادي، كيف بنا وأطباء غامروا بحياتهم عندما رفضت السلطات المصرية إدخالهم من معبر رفح؟ فما كان منهم إلا أن دخلوا القطاع عبر أنفاق التهريب، وكانت حينها الطائرات تقصف المكان لتدمير الأنفاق.

انظري إلى فعل هؤلاء الأطباء الأبطال، بينما حضرة جنابي أتوانى (لا سمح الله) عن هذه الخدمة المتواضعة، أصدقك القول: إني أستحيي من هذا الدور الذي أقوم به، وأفكر بل وأبحث عن دور أفضل. عيني ترنو إلى تغيير السلاح. لا يكفي دوري في الإسعاف.

عزيزتي وغاليتي ونور حياتي. كم هو حبّي لك وعشقي لروحك الباهرة مهيمن على كل عوالمي. أراك في كل شيء، أنت عندي قبل كل أمر، ومع هذا فإن لحرارة الروح في صدقها مع الله وانتمائها للوطن فضاء أوسع وأفقا أرحب، إنك قمر سماء هذا الأفق، وهذا القمر هو حجر الأساس في مجال هذا المشهد الذي يضج بالروعة والحياة. لكِ مني خالص حبي وقبل أن أختم إليك هذه القصة:

رحلة عائلية

في خضمّ الهجوم الجوي الكاسح، وحيث بيوت الآمنين تتساقط على رؤوس قاطنيها، تسارع عدّاد الشهداء والجرحى في الدوران، في هذا اليوم قفز العدد إلى خمسمائة شهيد وما يزيد عن ألفي جريح، ما يقارب نصفهم من الأطفال والنساء. رأيت اليوم أعاجيب القتل والدمار، هاجموا دار عزاء (عجيبون أهل غزة لا يقصرون في الواجبات حتى في أحلك الظروف) العزاء للشهيد مشهد احتفالي وتكريمي - للشهيد وأهله- لا يفوت أناس غزة الكرام. سقط أربعة شهداء ويزيد في بيت العزاء هذا.

أعود لقصتي معك اليوم.

عائلة قوامها تسعة مواطنين، الوالدان وخمسة أولاد وبنتان، لم تتح لهم الفرصة في يوم من الأيام لتحقيق أمنية السفر خارج امبراطورية غزة، إذ أن المساحات الشاسعة التي تتمتع بها الامبراطورية تكفي وتزيد لإشباع أية شهية لأي سفر بعيد، فما الداعي إذاً لأن يُباعد بين أسفارهم أولاد العمومة في هذا الكيان المحارب، دوماً هم يسافرون إلى ما وراء البحار، يفدون إلى أوروبا ويصيّفون في أمريكا ويتجوّلون في كندا واستراليا. الأبواب مفتوحة والطائرات العملاقة جاهزة لحمل العائلات المترفة إلى أي مكان يخطر في بالهم. أما هذه العائلة الغزية، فإن لها في فيافي الديار ما يكفي للسفريات الطوال وإشباع رغبات الصغار والكبار.

كان الوالد يُمنّي أبناءه قبل هذه الحرب برحلة بعيدة تجتاز الامبراطورية إلى خارجها. أكثر من مرّة قطع على نفسه وعداً برحلة جماعية لكل عناصر العائلة إلى مصر. وأثناء هذه الحرب كان الحديث عن مصر ونيلها، وجنانها، وأزهرها الشريف، هو سيّد السهر،خاصة عندما تخف عنهم الطائرات قليلاً، ويتلاشى هديرها بعيداً، سأل أوسطهم ابن التسع سنوات:

- ألا نستطيع السفر، وترك الحرب خلف ظهورنا؟!

- هذا مستحيل. كيف سنصل المعبر؟ وإذا وصلنا فإنهم لن يسمحوا لنا باجتيازه.

- من الأنفاق، من الأنفاق بابا. هتف ابن الست سنوات.

ضحك الجميع وقال أبوه: طائراتهم تقصف بالصواريخ التي تزن أطنان المتفجرات منطقة الأنفاق. اطمئنوا سيأتي اليوم الذي نملك فيه حريتنا، فنسافر وقتما نريد، وحيثما نريد. لن يطول ليل الظالمين.

قال كبيرهم ابن الخمسة عشر عاماً:

- تقول لنا هذا منذ زمن طويل. متى يا أبي متى؟!

- إذا انتصرت المقاومة فسيتحقق هذا بأسرع مما نتصور ادعوا الله لها أن تنتصر.

- اللهم انصر المقاومة.

قالت أمهم: هناك من يسافرون سفراً جميلاً رائعاً لا مثيل له في إمبراطوريتنا (غزّة)؟!

- إلى أين؟ إلى مصر؟

- إلى ما هو أجمل من مصر.

- إلى اليمن السعيد؟

- إلى ما هو أجمل من اليمن؟

- آه عرفت، إلى مكّة، إلى الكعبة المشرفة؟

- لا، إلى ما هو أبعد.

- حيرتنا. إلى أين؟ خلصينا.

- إنهم الشهداء يسافرون إلى الجنة.

- إذاً ما علينا إلى أن نكون شهداء كي نسافر دون معابر.

ضحك الجميع، وانفضّ المجلس ليأخذ كل منهم مضجعه.

رفع رجال الإنقاذ الأتربة وحجارة البيت التي تداعت فوق رؤوس ساكنيها، ويا لهول ما رأيت. الأم تضع تحت جناحيها طفلين والثالث على صدرها بينما الأب يحيط بذراعيه بقية الأبناء وكأنهم قد جهزوا أنفسهم لصورة جماعية، قبل أن ينطلقوا في رحلتهم إلى حيث يريدون، دون أية قيود لحريتهم، دون معابر ودون كلمة ممنوع..

غداً ألتقيك حبيبة الروح بإذن الله

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل - الليلة الخامسة لهذه المحرقة.

علاء

وقبل أن يخلد للنّوم قرأ رسالة صديقه الأجنبي «جون»

صديقي علاء:

قرأت قصتك، وسمعت نصيحتك فتابعت قناة الجزيرة؛ لأرى ما لا أراه على فضائياتنا، لا أدري لماذا لا ينقلون لنا هذه الأخبار، أنا محتار، إما جزيرتكم تبالغ وتفبرك الصور؛ لأنها منحازة إليكم وأنا أكره التحيز في الإعلام، أو أن إعلامنا منحاز لأعدائكم وإني أستبعد هذا، لأن إعلامنا حرّ ولا ينحاز لأحد كما تعلم ذلك جيداً. سأواصل البحث والحوار معك،

حتى أقف على الحقيقة من كل زواياها. بحثت في مواقع إسرائيلية لأرد على القصة بقصة، ولكني لم أجد في قصصهم - بصراحة - ما يضاهي قصصكم. كل ما لديهم إصابات هلع وجزع. أنا لا أقلل من أهميتها، لأن وقوع صواريخكم في مناطق سكنية آمنة شيء إرهابي ومزعج، لا أحد يجادل في هذا. قل لي: لماذا لا تتوقفون عنها فتسحبوا البساط من تحتهم، ولا تبقوا لهم حجة في هذه الحرب القذرة؟! منطق العالم اليوم هو منطق القوة، القوي يفرض نفسه على الضعيف، لو أنكم أقوى من إسرائيل لفرضتم عليها ما تريدون أو لما سمحتم لها بالبقاء أصلا. ألا يحق لليهود أن يكون لهم مكان تحت الشمس. لم لا تحافظون على حُرمة جيرانكم ولا توسعوهم بكرمكم العربي المعروف؟! العرب اثنتان وعشرون دولة فليكن لليهود دولة واحدة وهي من أصغر دول المنطقة عندكم.

صديقي علاء. اجعل لي من وقتك ولو ربع ساعة للحوار غداً أنا بانتظارك. لا تبعث لي صوراً فقد وصلت إلى المزيد منها عبر مواقع إلكترونية وكذلك من خلال فضائية الجزيرة، والقدس، والمنار، وغيرها.

سلامات صديقي علاء - جون

وردّ علاء بالآتي:

صديقي جون.. سلام عليك.

حول الحقيقة وصور الحرب المحرقة الدائرة في غزة، فإنها عدوان

ليس له تفسير إلا منطق الاحتلال. أيُفكر أحد أن هذه الدولة الجارة هي دولة محتلة. هذا هو حجر الأساس يا صديقي. بداية القصة كانت عندما بدأ الاحتلال ثم تسلسلت الأحداث. من سبق الآخر، صواريخ المقاومة أم الاحتلال؟. وماذا يفعل الناس الذين وقع عليهم الاحتلال، وهم لا يملكون شيئاً من قبيل ترسانة السلاح المتطور الذي يملكه الاحتلال؟. ليس عندنا طائرات لا F16 ولا F1، وليس عندنا دبابات مزوّدة بعشرات الصواريخ المدمّرة. صواريخنا هي محلية الصنع لا تسمن ولا تغني من جوع، وإنما هي صرخة المظلوم. وبعض الرشاشات الخفيفة التي تحملها الصدور العارية، وتحاول بإرادة الحياة صد العدوان. لا مجال للمقارنة صديقي بين الجلاد والضحية. نحن ضحية لهذا الاحتلال الذي لا يرحم.

ثم قولك، أن نحافظ على جيرة من يبحثون عن مكان تحت الشمس؟! وأن للعرب اثنتين وعشرين دولة. المشكلة صديقي أن المكان الذي اختاروه تحت الشمس لم يكن شاغراً، وإنما كان لأصحابه الذين جُبل ترابه بعرقهم وعرق آبائهم وأجدادهم. أما دول العرب، فهل تريدنا أن نتخلى عن ديارنا لننزل في ضيافة هذه الدول كما هو حال اللاجئين الفلسطينيين عندهم منذ سنة ١٩٤٨. اللاجئون هُجّروا قسراً، ومع هذا انظر إلى أحوالهم. البؤس والفقر والشقاء وغربة الأوطان. اسمع يا روح أمك، إذا كنتم متعاطفين مع الصهاينة فأعطوهم من عندكم في أوروبا مكاناً تحت الشمس، نحن أعطيناهم وحميناهم زمن الدولة العثمانية،

ولكنهم لم يحفظوا هذا المعروف. ها هم يفسدون في الأرض ويهلكون النسل والزرع وكل شيء.

أنا الآن مرهق وغير رائق لك. خذ هذه القصة السريعة وسأحاول غداً العودة مبكراً لفتح حوارٍ معك بإذن الله.

نسخ له القصة: «رحلة عائلية» وختم مازحاً: صباحك خير وحلّ عني

صديقك: علاء

لم يكد علاء يضع رأسه المثقل بصور القتل والدم والدمار، وهرطقة هذا الأجنبي المأفون، إلا وأصوات رهيبة خلخلت الجدران وكسّرت النوافذ وكفأت الأثاث من حوله. هاج الثور الصهيوني الذي يحمل رأس حمار، وأخذ يضرب بجنون غير مسبوق. يعدد للإجرام مراحل. يقول هذه المرحلة الثانية في الحملة الجوية، فهل دخلت المرحلة الثالثة؟!. فكّر في التلفاز وسماع نشرة الأخبار ولكنه فقد الكهرباء. وقفت العائلة وسط البيت بعيداً عن نوافذه، اختلطت الأدعية بالأذكار والتحليلات السياسية. بريق القصف يخطف الأبصار بينما الأصوات ترتعد لها الآذان، القلوب لدى الحناجر، والجبين يتصبب عرقاً رغم برد الشتاء. هتف الوالد.

- ليس لنا إلا الدعاء والصلاة. رحمتك يا رب.

- ادعُ الله للمقاومة. نصرك يا رب، أنزل السكينة على جندك. مدداً من عندك يا أرحم الراحمين. «قال علاء» وكانت الأختان ترتعدان بجوار

أمهما وتردّدان. اللهم آمين، آمين.

قال علاء محاولاً النكتة من وسط عمق المأساة:

- هذه الدولة كالثور، ولكن لهذا الثور رأس حمار، ماذا نسمي هذا الكائن الهائج المجنون الغبي. الراء حرف مشترك إذن ممكن أن نسميه ثومار. ابتسم الوالد وقال:

ليتهم ثيران وحمير، هذه الحيوانات لا يقع منها هذا العدوان، وكان يقلب محطات المذياع علّه يجد نشرة أخبار في هذه الساعة المتأخرة من الليل. أخيراً التقط موجزاً لمذيع يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة كما الليل في نزعه الأخير: «غزة تبيت على قصف جوي غير مسبوق. إسرائيل دمرت الليلة مسجداً يدعى مسجد الخلفاء، أربعة عشر شهيداً وعشرات الجرحى، وتتواصل عمليات قصف منازل المقاومين بواسطة طائرات الإف ستة عشر؛ ليقع المزيد من الجرحى والشهداء، والمشافي تفوق درجة استيعابها الجرحى والمصابين».

في هذه الأثناء اقتربت سيارة إسعاف من البيت، لبس علاء حذاءه كي يكون جاهزاً للانطلاق حال وصولها.

هتفت أمه من الأعماق:

- يا ابني لا تخرج اليوم، أرى الموت ينتشر في كل مكان، أنت وحيدنا... لا سمح الله..

- ربنا يسهل ويحنن عليك يا ابني، دعيه هناك من ينتظر، وهو مضرّج

بدمائه ومثخن بآلامه.

وصلت السيارة، انسلّ برفق من بين يدي أمه التي زرعت قبلة عميقة بين عينيه، وانطلق قافزاً سلّم البيت، كل أربع درجات في قفزة واحدة، وامتطى سيارة الإسعاف لتطير به على أقصى سرعة تمتلكها. قال رئيس الطاقم بنبرة سريعة:

– جئناك مبكرين للضرورة دكتور علاء، وصلتنا بلاغات كثيرة ولابدّ من استنفار كل الطاقات، القصف والقتل في كل مكان، هذه الليلة أشد من سابقاتها.

- حسناً فعلتم. أنا جاهز على الدوام. ربنا يعيننا، ويسدّد خطانا.

كان المشهد في غاية الرعب، وغزة تكتحل بسوادها ولا ترى إلا من ثنايا بريق القصف، أو عندما تنفجر صواريخهم فتضيء بسنا برقها الأنام. كانوا كمن يطلب الموت بكل عزيمة وإصرار، يطاردون المنايا ولا يأبهون بسماء الموت الزؤام من فوقهم.

وصلوا المسجد المدمّر، طواقم الدفاع المدني ترفع الأنقاض بحيوية شاقة، ينتشلون جثث المصلين الذين وقع الموت على رؤوسهم وهم رُكّعٌ سجدٌ، وكلما وجدوا جثة علا المكان بالتكبير. غبار المعركة بين الجيشين لم ينقشع بعد، كانت معركة حامية الوطيس،الجيش الأول في السماء، سربان من صقور الجوّ تُعربد وترمي بحمم الموت. أما الجيش الثاني فكان قوامه مئذنة هذا المسجد وصدور المصلين الملتهبة بالضراعة إلى

الله أن يخفف من وطأة هذه الحرب. من المنتصر من الجيشين؟!! تساءل علاء؟ فعلاً إن الدم ينتصر على السيف، ها هي أخلاقهم تنهزم في المعركة، إنسانيتهم تضل طريقها عنهم، الثور يتألق في أعماقهم والحمار يتربع عرش عقولهم. عدا أن أهدافهم الشريرة مازالت ومع كل هذا القصف الهمجي بعيدة عنهم.

- نادى منادٍ من طواقم الإسعاف التي انتشرت فوق الرُكام:

يا إخوان اتركوا الشهداء الآن، خذوا الجرحى، الحيُّ أولى من الميت. حملنا حمولتنا، أربعة مصابين في سيارة إسعاف واحدة. عجائب لا تكاد تصدق.. لماذا يقتل هؤلاء الناس؟! لا يوجد هناك مبرر سوى أنهم أفاعٍ فلسطينية على حدّ قول حاخامهم الأكبر «عوفاديا يوسف» الموجه الروحي لحركة شاس، والتي تشكل عصب التربية والتعليم عندهم».. هكذا تنشأ صورة الفلسطيني في أذهانهم.. أفاع ليس لها إلا السحق والقتل. وها هي الترجمة الحرفية لهذه المفاهيم التربوية التي تنمو وتترعرع في نفوس الجيش الصهيوني الذي يدمّر كل معاني الإنسانية بهذه الطرق الإبداعية التي لم يسبق لها مثيل.

صُعق الأطباء في مستشفى الشفاء عندما استقبلوا الجرحى، كانوا كمن تعرضت أطرافهم لمناشير حادة قطعتها بطريقة غير عادية. قالوا إنها قنابل من الإبداع الأمريكي الجديد، تتشظى منها قطع حديدية حادة تنتشر على ارتفاع نصف متر، فتقطع كل ما تصطدم به، فتقتل بأعداد

كبيرة، والذي ينجو من القتل تتعرض أطرافه للقطع الحاد. كانت هذه من تجليات المرحلة الجوية الثالثة.

بزغ الفجر ولاح الصباح على جرائم بأشكال وألوان جديدة. وكانت من تجليات هذه المرحلة ذات الإبداع الإجرامي المميز، ضرب مراكز البحث العلمي التي أنتجت في الماضي المفاعلات النووية، التي ضُربت في أول مرحلة في هذه الامبراطورية العظيمة. عبقرية هذه الدولة الصهيونية بقياداتها الفذة «الثومار»فكرت في ضرب البنى التحتية العلمية للمفاعلات النووية، فأقدمت على ضرب مختبرات الجامعة الإسلامية، هذا هو الهدف العظيم الذي قادتها عبقريتها الفذة إليه. عندما وصلنا هناك وجدنا المصاب جللا. خرّ صرح علمي طالما حقق التفوق والنجاح في مجالات العلم ومختبرات البرمجيات الإلكترونية، لا علاقة له بأي شأن عسكري أو سياسي، لأنها مختبرات مكشوفة ومفتوحة لكل طلابها، فلا يعقل أن يكون لها أية علاقة سوى ما يخطر في العقل الصهيوني المسكون بالهوس. كانت الأمور واضحة في عقل علاء حيث الدوافع الانتخابية على الساحة الإسرائيلية لم تكن خافية على أحد، وقد كانت أحزابهم وقياداتهم تتسابق في مجالات العربدة على الفلسطينيين، والولوغ في دمائهم، حتى تحظى بالقبول والدعم من جمهورهم الغارق في الأحقاد المتطرفة.

ومن وسط ركام الجامعة الإسلامية، التي أدمت قلوب كل محبي العلم

والمعرفة، هتف اللاسلكي بضرورة التوجه إلى بيت الشيخ نزار ريان، حيث إنه تعرض لقصف أبطال وصقور الجو الصهيوني القابعين هناك عالياً في قبة السماء، أناملهم المرهفة بالحس الإنساني الرفيع ما عليها إلا أن تلمس الأزرار الإلكترونية الجميلة؛ لتنطلق الصواريخ الرائعة التي تحمل أطنان المتفجرات الوردية. قادتهم يقولون عنهم بأنهم الجيش الأعلى أخلاقاً في العالم. أصابت ثلاثة صواريخ البيت وما حوله من العمارات السكنية. كانت هناك بيوت تسكنها أفاعٍ شريرة كان لا بد من إفنائها حتى ترتاح الضمائر الصهيونية ذات الأخلاق العالية. «تسعة أطفال، وأربع نساء، والشيخ هم قوام العائلة»،أضف إليها عشرات الجرحى، منها إصابات خطيرة مع تدمير عدة بيوت تداعت حول الحفرة الكبيرة التي خسف بها بيت الشيخ. ذنب الشيخ أنه كان يدعو الناس لعدم الخوف، وعدم ترك منازلهم عندما يطلب منهم مغادرتها من قبل آلة الإرهاب الصهيوني،دخل بيته جهاراً نهاراً كي يشكل قدوة فيما يدعو الناس إليه، ومحاذراً من مخالفة رسول الله في وصفه للعلماء الذين يأمرون الناس بالمعروف ولا يأتونه، وينهونهم عن المنكر فيأتونه، فالشيخ يحمل شهادة الدكتوراة في الحديث النبوي الشريف، كان لابدّ من أن يكتب هذه المعاني النبوية العظيمة بمداد من دمه ودم أطفاله ونسائه، ولمع سؤال عميق في قلب علاء أضاء جنباته: أين هذه الأخلاق من أخلاقهم؟ وأين هذه الروح العظيمة من أرواحهم الشريرة؟!

غابت شمس ذاك النهار الدامي، وطواقم الإسعاف بين أشلاء هذه المنازل، تلملم الأطراف وتسارع بالجرحى إلى المشفى المصدوم بكمّ الجرحى ونوعية الجروح، التي لم يسبق أن مرت عليه من قبل.

كانت هجمات هذا اليوم كهجمة التتار على بغداد. غرقت مكتباتها في مياه دجلة والفرات، وغرقت معارف الجامعة الإسلامية في دماء أهل غزة وعلمائها. كان عنوان هذا اليوم «العالم العامل»، قدوة الرجال ومنارة العلم والعلماء، وقود المحرقة لهذا اليوم كان وقوداً عزيزاً غالياً، من أثمن وأعزّ وأزكى الدماء.

تحولت المجازر من مجازر متفرقة، تفصلها فواصل زمنية متباعدة إلى سلسلة متواصلة، تماماً كمجازر النكبة سنة ثمان وأربعين. كل منزل يقصف، تذهب إليه لتجد داخله مجزرة ضحاياها كل أفراد العائلة، بين شهداء وجرحى جراحهم خطيرة، مع تضامن من عناصر البيوت المجاورة، حيث إنها تتبرع ببعض الجرحى، تضامناً مع الجار المنكوب، وشعوراً معه بتلاحم الدماء.

تصدّع رأس علاء من سؤالٍ لازمه من بداية العدوان. لماذا أقف عند حدود هذا الدور المتواضع (مسعف)؟! لماذا لا أنخرط في المقاومة؟! ماهي الأولويات؟! إنهم ينتظرون الحرب البرية... هذا القصف الجوي لا حول لهم به ولا قوة. ولكنهم يا علاء يواصلون إطلاق الصواريخ لإحداث شيء من توازن الرعب، أكثر من مليون صهيوني يلزمون ملاجئهم، خوفاً وهلعاً

من هذه الصواريخ، التي تبدو طيبة رحيمة رقيقة القلب، مقارنة بتلك الصواريخ التي تحملها طائرات الموت والدمار. الصاروخ الفلسطيني الذي يصل منهك القوى يحمل ما معدله ٢٠ كغم من المتفجرات، بينما صاروخهم يحمل ما يقارب ٩٥٠ كغم - أي ثمانية وأربعين ضعفاً - فأين هذا من ذاك؟! عدا عن نوع الشظايا القاتلة والقنابل الفراغية التي تحيل الأبراج السكنية إلى قاعٍ صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

سؤال آخر يدق في رأسه كالإسفين: هل بإمكانك أن تفعل إضافة إلى كونك مسعفاً أفعالاً أخرى؟ مثل تصوير جرائم الحرب للتوثيق والمتابعة فيما بعد مثلاً. ولكن هذا صعب أمام أنّات وصرخات المصابين. بالإمكان أن نحمل معنا مصوراً متطوعاً لهذه المهمة. خاصة وأن العدو منع دخول الصحافة والإعلام إلى بؤرة الحدث خشية من تصوير جرائمه الفظيعة.

قرر أن يعمل على هذه الفكرة إذ أن الحرب -على ما يبدو - ما زالت في بدايتها. ماذا أيضاً يا علاء؟! أبقِ هذا السؤال مفتوحاً، إذ أن مجالات الإبداع لا حدود لها، ولا تنس المقاومة الإلكترونية وما تقوم به ليلاً.

عند عودته مساءً كان منهكاً خائر القوى، إلا أنه كان يتفكر في ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ كان دعاء الناس ينصب حول هذه الكلمة العظيمة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ لم يتذوق معانيها، ولم يجد لها هذه الروح الندية المثبّتة مثلما يجدها في هذه الأيام. الناس تلهج قلوبهم بها، وتتعلق برحمة الله ورجاء حفظه. بطريقة ملموسة يجدون شذى عطرها

ينتشر في أرجاء صدورهم، وليس كما كانت من قبل جافة تمرّ بصورة عابرة، دون أن تحرّك مشاعرهم المتلبّدة في تفاصيل أشياء صغيرة في هذه الحياة الصغيرة.

كان في أشد الشوق لرؤية كلمات الحبيبة تزيّن شاشة الحاسوب، ولتكون نجوم سماء ليل قلبه المثخن بالجراح، لكنه وجد البيت ينوء في الظلمات إلا من شمعة خائرة القوى لا تكاد تضيء. عانق أمه وأباه وأخواته. غيرَّ ملابسه التي تقلبت عليها الدماء مراراً وتكراراً. عيون أختيه كانت غارقة في دموع لم تخفَ عليه رغم الظلام. طمأنهما قائلاً:

- النصر حليفنا بإذن الله، هذه الدماء ثمن النصر القادم، في البداية كانت تثيرني هذه الدماء ولكنها اليوم تبشرني بقرب فرج الله.

- هذه نتيجة حتمية بعون الله. «رد أبوه باقتضاب»

وكان لا بدّ له من التقاط أنفاسه والعبور إلى عالم النوم العميق؛ كي يضمن الاستمرارية. لم يجد كلمات الحبيبة بانتظاره لنفاذ وقود مولد الكهرباء. ألقى برأسه، مفكراً في كيفية تأمين وقود لمولد الكهرباء.

صباحاً فتح عينيه قبل أن يلتقط الصباح أنفاسه الأولى - على صوت صلصلة دبابات وجرافات عملاقة، وكأنها قريبة من البيت.... مذياع

أبيه يصدح بالأخبار معلناً بدء الحرب البرية بأعداد هائلة من الجنود والدبابات، تساندها المروحيات والنفاثات وطائرات الاستطلاع، مع قصف بحري من عمق بحر غزة.

كل هذه القوات تريد اجتياح إمبراطوريتنا!!! ولاتساع أراضينا البرية كان لابد من هذه الحشود الهائلة!!. كانت تبدو كالليل الذي أراد اجتياح النهار القابع في مساحة ضيقة من الزمان والمكان.

أصبح كل شيء يصرخ بأعلى صوته في هذا الوجود، في كل ثانية تسمع انفجاراً، لا تستطيع أن تبقي أذنيك مفتوحتين، وكأنك في محجر يتوالى فيه تفجير كميات هائلة من البارود تكفي لتخر عدة جبال صريعة في وقت سريع. القصف يقع على المنازل والضواحي المحيطة بغزة وعلى امتداد القطاع أيضاً. وكانت نداءات بلكنة غير عربية، غريبة بكل شيء تنادي في الناس: أن اخرجوا من بيوتكم «إلى أين أيها المغول؟»هل يوجد هناك منطقة آمنة في قطاع غزة؟!! هكذا تساءل علاء في أعماقه ثم رفع صوته سامحاً لخروج بعض الكلمات:

- هيا بنا.. لنحمل أشياءنا المهمة، الهويات، الجوازات، أوراقنا، حاولوا أن لا تنسوا شيئاً، سيدمّرون البيت على الأغلب.

زفر الوالد وقال بنبرة حادّة قاطعة:

- اخرجوا أنتم أما أنا فلن أخرج من هذا البيت.

- إما أن نخرج معاً أو نبقى معاً. «هتفت أم علاء».

الأختان وقفتا والهلع يملأ عيونهن، كانت ركبهن تهتز وأسنانهن تصتك برداً وخوفاً. قال علاء.

- لا يا أبي، هذا أمر لا يحتمل التردد، بالأمس أراد الشيخ نزار ريان أن يتحدى ويبقى في بيته، فدمّروا البيت على من فيه، ثم وجه كلامه لأخواته: هيا، ماذا تنتظرنّ. هؤلاء الصهاينة لا يرقبون في امرأة، ولا طفل، إلاً ولا ذمّة..

- هيا يابا. توكل على الله.

- أجننت يا علاء. عندما خرجنا من ديارنا سنة ١٩٤٨م، هكذا كان الأمر، يبدو ساعات أو أياما ثم نعود. انظر ها نحن سنة ٢٠٠٩م ولم نعد لغاية الآن. لن أقبل بأن تمر عليّ هذه المأساة مرة أخرى. ما أسوأ اللجوء يا ولدي!

...أصوات النداءات تقترب...ضجيج آلات الحرب يخترق الآذان بصورة حادة كالسيف، أو كالنصال التي تخترق الجسد دفعة واحدة. قفز علاء ونظر من زاوية إحدى النوافذ ويا لهول ما رأى!! الناس يخرجون من بيوتهم أطفالاً ونساءً، يحثون المسير، والهلع يتراقص في قلوبهم كأنهم من أجداثهم ينسلون.

- تعال يابا وانظر. البيوت تفرغ من قاطنيها، وبالتالي سيدمّرونها ،سيحرقون كل شيء «سياسة الأرض المحروقة» خوفاً من مواجهة المقاومين والالتحام بهم، اسمع مني يابا، هيا بنا نخرج قبل فوات الأوان.

أطل الوالد ثم هتف:

- ها هي عائلات «الليموني» لم تخرج. هم أشجع منا؟! ثم انظر هناك، إنهم أمام مرمى نيرانهم. انظر انظر يطلقون القذائف عليهم، مجرمون، نازيون. إنها خدعة يا علاء، يخرجون الناس لملاقاة حتفهم أمام نيرانهم. اتصل بالإسعاف؛ لابد من إنقاذ الناس.

أصبحت دراما الحدث تسير أسرع مما يتصوره خيال مؤلفي أفلام الرعب. الدبابات التي وصلت بسرعة تخوم الامبراطورية بدأت بقصف منازل أطراف المدينة، منزل علاء طالته قذائفهم. لم تمهلهم التفكير طويلاً، فقد ارتج المنزل، مكان الإصابة الجهة المقابلة لقاذفات الموت. صرخت نساء البيت هلعاً، وانتشرت رائحة الروح اليهودية المجرمة في أركان البيت. بتلقائية هرول الجميع أسفل البيت، ولاذوا إلى كراج البيت، حيث إنه – ولحسن الحظ – كان تسوية تحت الأرض.

في خضم هذه الأصوات المرعبة كانت هناك أصوات قنابل بالغة الحدّة، عنيفة عالية مفرقعة تنشر في الصدور رعباً إضافياً. وفي ثنايا كل هذه الأصوات، كانت أصوات الاستغاثات من النساء والأطفال تشق الآذان، كانت تأتي من جهة حمولة الليموني، التي تفصلها عنهم بيارة برتقال.

انشغل علاء بالاتصال بزملائه في الإسعاف:

- الضحايا بالعشرات حولنا، نساء وأطفال. مجازر ترتكب الآن، لماذا

لم تصل أية سيارة إسعاف؟!

= نحن مرابطون هناك، قريباً منكم ولكنهم يطلقون النار على كل سيارة إسعاف تقترب من المكان. اليوم أصيبت خمس سيارات. أربعة من زملائك جرحوا.

- والتنسيق مع الصليب الأحمر.

= عملنا تنسيقا، ولكن كما تعلم لا يحترمون التنسيق.

- عليكم بالتحرك. لا يعقل أن ينزف الجرحى حتى الموت هنا.

= إدارتنا تتصل مع مؤسسات دولية إنسانية للتدخل في حماية المدنيين، وإسعاف الجرحى منهم، لا أدري لماذا في هذه الحرب أرخوا بلادتهم، وفقدوا حسّهم بطريقة عجيبة وغريبة. لو أن قطعاناً من الذئاب أو أسراباً من الطيور الضالة تعرضت لشيء من هذا الذي يحدث لأهل غزة لتحركوا، وحرّكوا كل وسائلهم، وكأن أهل غزة في هذا العالم الحرّ دون الحيوان، ولا علاقة لهم مع بني الإنسان.

- ولكني أسمع وأرى الآن عائلة الليموني تباد بطريقة قاسية، صرخات أطفالهم ونسائهم تقطع القلوب.

لم تُجدِ اتصالات علاء، ولم يصل الإسعاف للمكان طيلة النهار. أحد أفراد عائلة الليموني اتصل بعلاء – على ظنٍ منه أنه في دوامه – كي يفهم منه سبب تأخر الإسعاف عليهم. سأل علاء ما الذي يجري عندكم؟

«جمعونا من بيوتنا، ووضعونا في بيت واحد. تصوّر قرابة سبعين نفراً

ما بين نساء وأطفال في غرفة واحدة. وأثناء تجميعنا من البيوت، كانوا يطلقون النار على من لا يعجبهم دون أي سبب، ينكلون بنا بالضرب والشتم أحياناً، وأحياناً أخرى يقومون بإطلاق النار على الأرجل وفي الرأس.

متعطشون للدماء، وكأنهم في رحلة صيد. يصوّبون بشكل مباشر على صدور الأطفال، ويقتلون بقسوة تضاهي شهوة سبع ضارٍ للدماء، وغرس الأنياب في أجساد الضحايا الغضّة الطريّة، وكأنهم لما لم يظفروا بأي نصر أو إصابة في المقاومين ارتدوا على أعقابهم وراحوا ينتقمون من المدنيين، دمّروا بيوتنا مع أنها خالية من المقاومة وبعيدة عن تخوم المدينة، حاولوا تجاوزنا والتوغل في العمق، إلا أن المقاومة وقفت لهم على ما يبدو سدّاً منيعاً وقاتلتهم بكل قوة واستبسال. لذلك أحاول تفسير هذا الإجرام على أنه تعويض عن الفشل الذريع الذي مُنوا به هناك. ارتدوا علينا قتلاً وتدميراً، والله يستر من القادم. لن تعرف البشرية حدوداً لإجرامهم. لو أنك ترى الأطفال كيف يلتصقون بأمهاتهم، وكل شيء فيهم يبكي ويستغيث دون أن نكون نحن الآباء قادرين على فعل أي شيء. ها هو اليوم أوشك على الانتهاء دون أي شراب أو طعام أو حليب للأطفال. وفينا أطفال رضع في الأشهر الأولى من حياتهم. ماذا أقول لك دكتور علاء؟!

تركه علاء يُخرج بعض ما في صدره علّها الوسيلة الوحيدة التي يملك أن يساعده فيها، أن يستمع له. واحتار في أمره. أيطمئنه ويعده بالمساعدة

وهو لا يملكها أم يخبره بأنه غير قادر، ويزيده إحباطاً وشعوراً بالمرارة والألم. إذا كانت طواقم الإسعاف المجهّزة تقف عاجزة، فماذا تراه يفعل؟ قرر أن يعمل المستحيل، سُدّت السبل، ولم يبق أمامه إلا سبيل الرحمن. فليستعن بالله إذن، وينطلق على بركة الله.

كانت الشمس تغرق في غيابها عندما لبس علاء معطف الإسعاف، وقرر الانطلاق. هتف أبوه وأمه وأختاه معاً بدهشة بالغة:

- إلى أين؟!

- إلى المستحيل؟! والمستحيل يتحوّل إلى ممكن بعون الله.

- إنهم في الليل يقصفون كل حي يمرّ في شاشات رؤيتهم الليلة. الحركة في النهار على وضوحها أفضل من الليل في حروب هذه الأيام.

- هل أبقى شاهد عيان على المجزرة دون أي فعل؟!

- ولكن فعلك هذا مجرد انتحار دون مقابل. (قالت أخته)..

- وما يدريكم أن الله معنا.

- قل لي على ماذا نويت لعليّ آتي معك. هتف والده.

- لا، سأتحرك بسرعة لن تستطيعها، أريد الوصول بأسرع ما عندي من قوة إلى حيث تقف سيارات الإسعاف، وعندما أعود سأحدثكم بما فتح الله عليّ بإذن الله.

- أنا أثق بحكمتك ودرجة إبداعك. ابتعد عن الانفعالات غير المحسوبة وتوكل على الله. الله معك يا ابني، لا مكان للخوف والجبن في أيام الله

هذه، امض لما نويت عليه.

كانت دموعه التي يحاول إخفاءها تملأ عينيه. بينما أم علاء وصلت دموعها إلى أسفل ذقنها. أما أختاه فلم تتوقفا عن البكاء طيلة الليل أصلاً.

غادر علاء وبقي الجيش الداخلي لهذا البيت. مرابطاً على جبهة الدعاء. أبو علاء أستاذ جامعي متقاعد، قضى عمره وهو يدرّس التاريخ، يسبر غوره برفقة طلابه. يسير فيه وينظر في عاقبة الظالمين، ويتلمّس سنن تداول الأيام بين الأمم والحضارات. ويحاول دوماً الجمع بين معادلات الكتاب المقروء بين دفتي القرآن الحكيم، ومعادلات الكتاب المفتوح بين صفحات التاريخ لشعوب وأمم هذه المنطقة. فيرى بذلك كيف تصعد الأمّة في فترات الصحوة والنهوض، وكيف تهبط أيام الغفلة والتخلف وعدم القدرة على القراءة وأخذ العبرة.

عندما قطع علاء الشارع الأول المحاذي لبيتهم لمس حجم الدمار الذي لحق بالحيّ، لا تكاد تجد منزلاً إلا وأصيب بعدّة قذائف ومازال القصف يُمعن فيها. الشوارع قطّعت بالحفر الكبيرة. السيارات على قارعة الطرق مفحّمة أو مدمّرة. الصراخ والعويل يملأ البيوت وكأن في كل بيت جنازة. كان مجرد السير في الشارع مغامرة ما بعدها مغامرة. شعر بأنه لن يصل هدفه. فكر بالرجوع. السّماء مكتظة بالطائرات وضجيجها، وكأنها سحب سوداء تستعد لإلقاء حمولتها ليس من الماء والبرد، ولكن من النار

المريعة والصواريخ الثقيلة. صرخ في أعماقه: التراجع ممنوع، طالما أن الموت قادم لا محالة، فلنمت ونحن مقبلون. تقدم يا علاء فالله معك. تقدم يَطُل سيفك. ربي عليك توكلت، أنت ملاذي، أنت أعلم بحالي. اللهم لا أسألك نفسي وإنما أسألك هؤلاء الأطفال. رحمتك ربي، يا الله، وكان يستشعر بكل خلجات قلبه أنه فعلاً ليس وحده وإنما الله معه، زاده ذلك قوة وجرأة وانطوت الأرض من تحت قدميه. قطع الحيّ عرضاً حتى وصل أخيراً أطرافه الملازمة للمدينة. ولجها وشعر بأنها أكثر أمناً. أحسّ بحركة المقاومين وقذائفهم التي كانت تطلق من هناك باتجاه دبابات الجيش الجبان.

أخيراً وصل إلى حيث تتربص سيارات الإسعاف فرصة لدخول الحي والوصول إلى الجرحى. إلتفّ زملاؤه حوله، شرح لهم الأوضاع المأساوية واستغاثات المنكوبين. أخبروه بمحاولاتهم لدخول المنطقة، وعن إطلاق النار عليهم وإصابة أربعة منهم رغم وجود التنسيق المسبق.

أقترح الآتي لمن يرغب في المغامرة والتضحية، المسألة فيها مخاطرة كبيرة، ولكن لمن يحب، الناس تموت هناك، اقتراحي الآتي: نسير خمس سيارات إسعاف، وتسير خلفها سيارة صحافة يقف من سقفها مصوّر يصوّب كاميرته على السيارات التي تسبقه. قال أحدهم:

- تعلم أن الصحافة ممنوعة.

- نكتب عليها بالإنجليزية إشارة صحافة أجنبية. نضعهم في خيار

قصف سيارات الإسعاف وفضيحة إعلامية أو السماح لها بنقل الجرحى. سيختارون الثانية بإذن الله.

استعدّت خمس سيارات للانطلاق، تتبعها سيارة صحافة، تم استعارتها من وكالة صحافة صديقة، وانطلق الموكب على أعلى سرعة ممكنة مع دوي نفيرها ولمعان أضوائها، وكان علاء في مقدمة الركب.

كان المشهد مريعاً، أصوات تستغيث من داخل المنازل وجثث الشهداء ملقاة في الشوارع هنا وهناك. كثير منها أطفال ونساء. لم يكن هناك متسع من الوقت لحمل الشهداء. لا مجال إلا للجرحى وبدأت المنازل تستوقف السيارات، وتخرج ما لديها من دماء نازفة. الأطفال والفتيان والفتيات. وجوه كانت أقمارا منيرة تمتلئ بالحيوية والحياة فأصابتها شهب الظلام وأصبحت ذابلة، شاحبة كنبتة حرموها من الماء والهواء، فاغتصبوا منها نضارتها وعشقها للحياة. تكدّست السيارات بالجرحى ثم سارعت بالانسحاب، وهي ترى الدبابات وقد وجّهت خراطيم الموت فيها باتجاهها. أطلقت النيران فأصيبت مؤخرة سيارتين منها. سلّم الله ولم يصب أحد. نجوا من تحت النيران، ولكنهم لم يصلوا بعد دار الليموني المحاصرة من كل الاتجاهات.

مرَّ في خلد علاء بعد أن أفرغوا حمولتهم وهو عائد لنقل المزيد من الجرحى ذاك النقاش في مضافة الليموني. من كان يرى المقاومة ضرورة وواجبا ومن كان يراها تهوّرا ومغامرة غير محسوبة. أصحاب الرأيين

أصبحوا تحت النيران سواء. كل فلسطيني عند هؤلاء يستحق الموت سواء قاوم أو هادن، لا حق ولا حرمة ولا وزن لإنسان عندهم، ذلك بأنهم في الحقيقة مشروع احتلال، استعمار إحلالي يريد أن يفني السكان الأصليين ليحل محلهم ويقيم دولته على أنقاضهم.

نجحت خطة علاء في نقل قرابة سبعين جريحاً، بينما لم ينجحوا في الوصول إلى مربع دار الليموني، انقضى الليل وبدأ نهار يوم جديد لهذه الحرب البرية، في مستشفى الشفاء تحدّثوا عن قنابل جديدة لم تعهدها الامبراطورية من قبل. سرت إشاعة بأنها قنابل فسفورية حارقة بسبب وجود حروق عميقة لا تحدثها القذائف المعروفة والصواريخ المستخدمة لغاية الآن. لم تكفهم صواريخ القتل والدمار ذات العيار الثقيلة. أطنان المتفجرات التي تلقى من أحدث الطائرات، لم تعد تقطع في أجساد ودماء عمالقة هذه الامبراطورية التي يحاربونها.

في الليلة الثانية للحرب البرية جاء اليقين وزال الشك. هي إذن القنابل الفسفورية المحرمة دولياً. تنفجر قنبلة كبيرة على مسافة قريبة من الأرض لتتشظى إلى مئات بل آلاف القنابل الصغيرة. تحرق وتخرج دخاناً ورائحة خانقة وقاتلة وتنتشر على مساحة واسعة من الأرض كي تقتل أكبر عدد من الناس، وقالوا بأن من لم يقتل على الفور تسببت له بحروق عميقة تتوسع مع احتكاكها بالأكسجين وتسبب سرطاناً فيما بعد.

وتوالت الجثث المتفحّمة من كل صوب وحدب من أرجاء الامبراطورية. الصهاينة مضطرون لهذه القنابل المخيفة، وذلك لتدمير مصانع الأسلحة الكيماوية والدمار الشامل مثل تلك التي كانت في العراق، وتسببت بالحرب الأمريكية عليها، مما كلّف العراق مليون شهيد. ثم ثبت أن هذه فرية من بنات أفكار الحقد الصهيوني الأمريكي، بينما مصانع الكيماوي للامبراطورية الغزّية هذه الضحايا من الاطفال.

لم تفلح كل محاولات علاء للوصول إلى جيرانه دار الليموني، وبقوا محاصرين لليوم الثالث. كانوا قرابة سبعين، رجالاً ونساءً وأطفالاً. كلهم مزارعون، وكان بينهم في نفس البيت سبعة شهداء. بدأت أجسادهم تتحلل فيخرج منها رائحة الموت الزؤام، وكان أيضاً خمسة جرحى ينزفون. يحاول من حولهم ربط الجروح بضمادات من ملابسهم البالية علّه يوقف أو يخفف نزيف الدم. لم يكن عندهم طعام ولا شراب وبالطبع جفّ الحليب من صدور الأمهات وارتفع صراخ الجوع والخوف للأطفال.

الليلة الثالثة، كان لبني صهيون بدل ما قيل عنهم على أكذب رواياتهم، أن النازيين ساقوا اليهود إلى أفران الغاز فيما عرف «بالهولوكوست»بينما هم اليوم يريحون أنفسهم من نقل الناس إلى مثل تلك المحرقة وذلك بنقل المحرقة اليهم وجعل قطاع غزة كله محرقة كبيرة للناس.

صباح اليوم الرابع لحصار حمولة الليموني، رمى أحد الجنود قنينة ماء من إحدى النوافذ، تناولها أحد الرجال ودار بها على الأطفال. أطلّ

الجندي بعد قليل، طلب القنينة الفارغة، غاب قليلاً وعاد بها مملوءة. انتعشت الأرواح قليلاً ورأوا في مجيء الماء بشرى خير. إذ إنهم شعروا بأن المحاصرين بشرٌ من لحم ودم. والذي فكر بحاجتهم للماء بعد ثلاثة أيام لابد وأن وجهة نظره فيهم أنهم ليسوا حجراً، ولا حديداً وإنما هم كائنات حيّة تفكر في الحياة.

بعد ساعتين أو ثلاث، بدت وكأنها سنوات طويلة. دخل ضابط ومعه مجموعة جنود. نظروا باشمئزاز وتقزّز. سحبوا أحد الرجال، سألوه:

- أين يختبئ المقاومون. أجب بسرعة وإلا فالموت بانتظارك.

- أنا جاهز للموت ولكن أرجو أن يكون خارج البيت بعيداً عن الأطفال.

- أجب عن السؤال وإلا...؟!

- نحن مزارعون في أرضنا ولا نعرف شيئاً عن المقاومين؟!

- إذاً حكمت على نفسك بالموت..

وضع الرشاش في رأسه وأطلق النار عليه دفعة واحدة ودون تردد، أو أن يتغيّر شيء من لون وجهه، تماماً كصقور الجو الذين يلمسون بأناملهم الناعمة تلك الأزرار الجهنمية فتنطلق الصواريخ التي تحوي بين جنبيها طناً من المتفجرات، أو القنابل الفسفورية والعنقودية والفراغية، ولا يدري ما فعلت على الأرض وما خلفت من موت ودمار وآلام وثكلى وأيتام على مر السنين والأيام.

وقف أحد أبناء هذا الشهيد، الذي لم يُلبَّ رجاءه بأن يموت بعيداً عن

أعين أطفاله. كان طفلاً في التاسعة من عمره. ذكياً جريئاً وبدل أن يهدّ الخوف جرأته زادها وفجّر مكامن قوّتها:

- لم قتلت أبي. ألا تخاف الله؟!

سحبه جندي ودفعه أمام الضابط..

وقال الضابط:

- أتحبه؟!

- ومن لا يحب أباه؟! تابع الضابط بابتسامة صفراء:

- أتحب اللحاق به؟!

صمت الطفل، اصفرّ وجهه وارتعد، حار في أمره ولم يدر ما يجيب.

لا تريد الإجابة، جنيت على نفسك. خذ.

وألحقه بأبيه برصاصة اخترقت رأسه الصغير، وفاض الدم مع صراخ الأطفال، وعويل النساء وقهر الرجال.

وكما أعطاهم تزويدهم بثلاث أو أربع قناني ماء دفعة معنوية للأمام، وقرب انفراج هذا السجن الرهيب، جاءت هذه الحادثة لتسدّ الأفق أمامهم، وتخبرهم بأن ما هو قادم أسوأ مما هم فيه.

في ساعات الظهيرة اشتدت المعارك وكشفت عن ساقها، كان القصف الثلاثي على أشده، جوّاً وبراً وبحراً، وكانت المقاومة تستبسل في الردّ ومنع دباباتهم من التوغل في المدينة، بقوا يراوحون مكانهم ولكنهم كانوا يعودون إلى الضواحي البعيدة عن مركز المدينة، فيعيثون فيها فساداً

ودماراً. تتحوّل المعركة لتحسب عدد ضحاياهم من المدنيين بعد فشلهم من الوصول إلى قتل المقاومين بالالتحام معهم وإعطاء الحرب البرية مداها.

وبينما كانت الأرض تتزلزل من حول سجناء حمولة الليموني، وكانت السماء ترتعد من فوقهم من شدة الانفجارات التي تُلقى من الطائرات المعربدة، لم يتبق في الصدور قلوب لترتجف أو تبلغ الحناجر. جفّت المآقي من الدموع وخرّت قلوب الكبار قبل الصغار صريعة من هذا الرعب المتواصل، كانوا يتمنّون الموت كل لحظة علّه يخلّصهم من هذا الوحش النازي المستعمر. الكبار سمعوا عما فعله النازيون بهم. لحظات وكانوا في عداد الأموات، بينما هذا الذي يفعلونه تفوّقوا به على النازيين، إذ إنهم يمارسون الموت البطيء مع الترويع للأطفال قبل الكبار من خلال هذه الماكينة الهائلة للموت.

أزفت ساعة الموت بعد أربعة أيام من التجويع والتعطيش والترويع، ضربوا البيت بأول صاروخ؛ ليتفجر وسط النساء والأطفال. تشظى السجناء بين قتيل وجريح، وملأت الدماء الجدران وارتفعت الأتربة والحجارة لتعود وتستقر فوق الأجساد الخاوية.

انطلقت الأجساد الناجية من بين هذا الموت المبعثر، بينما لحق البيت صاروخ آخر وآخر. القلّة القليلة التي نجت انطلقت هاربة دون وعي ومن غير أن ترى لها وجهة. كانت كأنها فرّت من قسورة، بل الفرار من

الصواريخ أقسى وأشد. وكان البعض الجريح أو من قطعت منه أطراف يزحف ببقايا قوته المتهالكة.

في نفس اليوم ادعت الحكومة النازية بأنها ستوقف القتال ثلاث ساعات لدواع إنسانية، من الساعة الواحدة بعد الظهر وحتى الرابعة. لم تلتزم، إلا أنها في الحقيقة التقطت أنفاسها لتنقل عشرات الجرحى من جنودها في أرض المعركة.

هرعت سيارات الإسعاف إلى أرض المجزرة، وكان علاء من طلائع المسعفين. تم نقل الجرحى تباعاً ليمتلئ مشفى الشفاء بما يزيد عن طاقته عدّة أضعاف. وكان علاء (رغم تعوّده على رؤية الأشلاء المقطعة والهياكل المحروقة) يتقطع كمداً وغيظاً، إنهم أهله وجيرانه وأعزّ الناس إليه، لم تفرّق آلة الإجرام بين طفل أو صبي أو رجل أو امرأة أو مسن، بين مدني ومقاوم، بين مسالم أو مؤيد للمقاومة. إنها الفكرة التي ربّاهم عليها حاخامهم (عوفاديا يوسف)، أن الفلسطينيين ليسوا بشراً، وإنما هم أفاعٍ ليس لها إلا السّحق والقتل. ها هم يترجمون ما تربّوا عليه. وفي هذه المعركة يقول لهم مرشدهم الديني إن راحيل تحارب معهم. زوجة سيدنا يعقوب عليه السلام في فهمهم الأهوج، تعبر كل هذه العصور التاريخية، ولا يحلو لها إلا هذا الإجرام؛ لتقف معه وتحارب مع المجرمين. إذا كان قديسوهم (وهم برءاء منهم) يفعلون هذا فكيف بشذاذ الآفاق المعاصرين من أمثال قادتهم الجزارين؟!

كانت هذه الأفكار تتحرّك في عقل علاء، بينما قلبه يتألم ويبكي وينزف بغزارة بكل ما لديه من روح ومشاعر. ليس لهم إلا الزناد يا علاء. احسم أمرك وكفاك ضحكاً على نفسك. هذا العمل في الإسعاف غير كاف. المقاومة هي الجواب الصحيح لكل أسئلتهم الدموية.

انتهت ثلاث ساعات الهدنة الإنسانية، تم نقل الجرحى وبقيت جثث الشهداء. أصرّ علاء على الاستمرار؛ لأن الكلاب الضالة ستنهش هذه الجثث ليلاً كما وجدوا ذلك المشهد المريع في أكثر من موقع. ولكنها منطقة مواجهة وعدوّنا لا يراعي حرمة الإسعاف. لنحاول بنفس الطريقة السابقة. تسير معنا سيارة صحافة أجنبية وتصوّر. إنهم يرهبون من صورة الجريمة أكثر من رهبتهم من الجريمة نفسها.

ثم إن علاء تذكر عائلته، لم يخطر على باله أمام هول المشاهد التي صعقت أعصابه نهار هذا اليوم وأذهلته، إلى تفقد أمه وأبيه وحبيبتي قلبه أختيه الصغيرتين، اجتاحته موجة حنين ولوعة ملأت كل كيانه لحضن بيته الدافئ، شعر بعمق حاجته لينفّس هذه الكربات التي تكدست في جنبات أعماقه، هذه ليس لها إلا ابتسامة أبيه وكلماته الهادئة التي تبلسم هذه الجراح العميقة، وكذلك عيون أمه بنورها الذي يمسح قلبه من الأعماق، نظرات إعجابها وفخرها به وبما يصنع دوماً تمنحه قدرة هائلة على العطاء ومحبة الآخرين. وكاد القلب يتفطر حنيناً لجناحيه الصغيرين. لماذا يضرب عليه الشوق بكل أطنابه رغم أنه لم يغب طويلاً؟

غاب سحابة هذا اليوم ولكن لكثرة ما رأى من فواجع وصور مأساوية تبدّى له وكأنه غاب عن عناصر قلبه دهراً من الزمن.

عندما اقترب بسيارة الإسعاف من البيت لم يجد البيت. طار البيت، في هذه الحالة يكون قد تعرّض لقنبلة فراغية احالته إلى قاعٍ صفصف. هكذا في مثل لمح البصر يضيع كل شيء. قال في أعماقه والدموع - مكرهاً- تملأ مآقيه: يا رب في المال ولا تجعلها في الأهل، رحمتك يا أرحم الراحمين.

حاول زملاؤه مواساته فالصدمة كبيرة،هم يعلمون أن عائلته استشهدت عن بكرة أبيها، وكانت من الجثث التي انتشلتها طواقم الدفاع المدني، هو كان آخر من يعلم، لأنه كان مستغرقاً في إنقاذ الآخرين. كل زملائه عرفوا بالأمر وأجّلوا إخباره حتى تهدأ العاصفة الهوجاء والعواصف التي في الصدور. هو الآن يضع احتمال شهادتهم ويرجو أن تكون النجاة قد كتبت لهم إن كانوا قد خرجوا من البيت قبل أن تحل به هذه القارعة.

وراحت ذكريات هذا البيت الجميل، تحت هذه الكومة ترسم شيفرة حياته، غارت في الأرض ذكريات طفولته، أفكاره، آماله، أبحاثه، صوره في كل مراحل حياته، مخبآته الثمينة الورقية والإلكترونية، أين الآن حاسوبه وما حوى؟ أقراص التخزين وما جمعت، إنها بلا شك «زلزلة»قاسية عنيفة لكل تفاصيل حياته. ولكن هذه الأمور تمر سريعاً أمام مصير عائلته.

عادوا بمجموعة من الشهداء، وكان زملاؤه في رحلة العودة إلى المشفى يتحدثون عن الشهادة والشهداء بطريقة فتحت كل حواس إدراكه وجعلته يشتمّ رائحة الشهادة وقد ظللت كل كيانه. أصبح لا يشك بأن الدور قد وصل، وأن شرفها قد حلّ في ضيافتهم. ولكن من؟ الأب أم الأم، أم إحدى الأختين أم كلاهما، أم كل العائلة (لا سمح الله). دارت الدنيا في رأسه فرآها صغيرة، أصغر بكثير مما يتصوره البشر، هكذا دفعة واحدة يوضع حد للإنسان بلمسة زر، بنظرة حقد، بشهية زعيم من زعمائهم في زيادة أصوات ناخبيه!!!. ما أقذر هذه الحرب التي قام بها أصحاب الأخدود بحفر الموت في رؤوس الأطفال والناس بأبشع الصور! وذلك من أجل إدارة المعركة الانتخابية عندهم من خلال الدماء الفلسطينية. وتبدأ الحرب وتنتهي قبيل الانتخابات لتكون وقود حملاتهم الانتخابية.

قطع علاء صمته ليقطع حديثهم الموجّه، سأل بحرارة عالية وهو يحاول ضبط هدوئه:

- واضح أنكم تكتمون خبراً لم يعد عاجلاً. إنا بعون الله من الصابرين المحتسبين، تعلمون أنا مستعدون لدفع ثمن حريتنا مهما بلغ الأمر،الخبر من الآخر لو سمحتم.

- الصحيح أن هناك خبراً من قبيل هذه الأخبار التي تعمل بها صباح مساء.

- خبِّر ولا تقلق. أقول لك سلفاً: إنا لله وإنا إليه راجعون.

- إذن احتسب عند الله الوالد والوالدة.

- إنا لله وإنا إليه راجعون. سبقونا هناك. دمعت عيناه وظهر الألم المكبوت في وجهه وأخذ يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. ويكرّرها وكأنّه يغيب في أعماق معانيها عن وعيه. ثم سأل:

- وماذا فعلت أختاي. أين هما الآن؟ هل تعرفان؟!

- ماذا لو منحهما الله الشهادة أيضاً؟

- معقول؟! قولا قولاً غير هذا؟

- القول كله لله، صبّرك الله وقوّاك.

وضع رأسه بين يديه وكأنه يخشى عليه أن يفلت من مكانه، ضجّت المشاعر في قلبه وراحت تضرب بكل الاتجاهات. سار شريط الذكريات كلمح البصر. الضحك واللعب والطفولة، الشقاوة والتآمر والتمازح، الحنان والدلال ولوعة السفر وحرقة الفراق ثم الشوق والحنين واللقاء. ما أقسى هذه الحياة، هكذا يفتح المقص ذراعيه ثم تهوي على الشريط الصاخب بالحياة فيحوله إلى الصمت المدوّي مدى الحياة.

ويضرب سؤال في رأسه: كيف سيكون طعم العيش بعد هذه الفاجعة؟

الجواب سهل وبسيط، الضغط على الزناد، مقاومة هذا المقصّ الذي كلما تحرّك قطع سعادة هنا وهناك. مقصّهم مؤلف من طائرات العربدة وبوارج القهر والخنق من جهة البحر، ودبابات قذف الموت المنتشرة حول الزمان والمكان. مقص ثلاثي الأضلاع؟. أصبح اتخاذ قرار الانحياز إلى

المقاومة عند علاء سهلاً بعد هذه المعطيات خاصة بعد أن وقف وجهاً لوجه أمام جثامين الأحباب الأربعة، وهي تسحب من أمامه من بطن ثلاجة الموتى. لم يكن جديداً عليه أن يقف المرء أمام العائلة في هذه الحرب وقد لفّتها الشهادة كاملةً ودفعة واحدة، ولكنه هذه المرة هو صاحب هذا الامتحان. شعرت كل أعماقه بمرارة هذا الامتحان. تحركت تيارات هادرة من الحزن اجتاحته من أقصى يمينه إلى أقصى يساره ثم وصلت أعلى نقطة فيه إلى أدنى نقطة. أفرزت كل غدده علقماً تكدّس في حلقه. غامت معدته وضاع المشهد من عينيه دارت به الغرفة وناسها وموتاها، صارت الثلاجة سقفاً فوقه ومادت الأرض من تحته. غاب قليلاً عن وعيه، ثم عاد بسكينة زيّنت وجهه بابتسامة نجح في رسمها لزملائه والناس. تقدّم وقبّل الشهداء واحداً واحداً. ثم سار مع الركب حيث الجنازة رغم أنف القصف والدمار. أهيل التراب، ثم عاد علاء ليبحث عن الزناد.

لم يعد أمام علاء من مكان يؤويه سوى مشفى الشفاء، وإذا ضاق المشفى بالجرحى حيث امتلأت الغرف والممرات بالجرحى كان يبيت في سيارة الإسعاف، حيث يطوي نفسه في المقعد الخلفي ليغرق بعض الوقت لماماً، ثم ما يلبث أن يصحو على صخبٍ يضج به المشفى تنبئ عن

وصول دفعة جديدة من الجرحى، ويكون من أول المنطلقين في تلبية نداء المستغيثين. وكان تقلّب الويلات والكوارث يخفف من مصابه.

بعد يومين تذكر جهازه الخلوي وبأنه لم يسمع رنينه منذ فترة طويلة، لم يكن لديه شهية لأي تواصل يذكّره بتفاصيل الحياة ما قبل شهادة العائلة. ما بعد هذا المصاب الجلل أصبح يختلف عما قبله. عين قلبه لا تعرف تصويباً لها إلا على مقاتلة الاحتلال، وكيف يبدع في هذا المجال. كيف يجعلهم يدفعون الثمن غالياً لما اقترفته أيديهم المجرمة. يجب أن يألموا كما نألم، مع أننا نرجو من الله ما لا يرجون. هذه إذن معادلة حياته بعد اليوم.

شحن الخلوي وقبل أن يكتمل شحنه سمع رنينه. تردّد في الرد ولكنه عندما رأى الرقم ثارت في قلبه موجة عارمة من الحنين الدفين، وزفرت كل أعماقه اشتياقاً لتلقي كلمات دافئة من حبيبة الروح.

- أين أنت يا حبيبي، طرقت باب جهازك آلاف المرات، ما الذي جرى لعمي وبنات عمي، صبّرك الله يا حبيبي وكان الله في عونك.

- هذا قدر الله يا عزيزتي. القطاع كله أصبح مأساة كبيرة ومأساتي الصغيرة تضيع مع ما أرى وأسمع. هنيئاً لهم الشهادة. لا تعزيني، بل هنئيني بأن كتب الله لهم الجنة.

- هذا من فضل الله، ولكن الفراق صعب. أنا أكاد أنكر ما جرى، لا أصدق بأني لن أراهم، هكذا فجأة يحصدون أرواح الأبرياء.

- وهذا بيت القصيد، يجب أن نصوب أنظارنا نحو المجرم بعيداً عن بكاء موتانا. هؤلاء الذين يحصدون الأرواح؟! لم يعد بعد اليوم لهم عندنا إلا ما يستحقون.

- حبيبي نحن لا طاقة لنا بهم، لهم الله، للبيت رب يحميه يا علاء.

- ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، يريد الله أن يرى بلاءنا وأن يعذبهم بأيدينا.

- علاء. على ماذا تنوي؟!

- لم يعد لدي في هذه الحياة أي أمر آخر.

- إنه الانتحار إذن.

- معاذ الله، إنها الحياة. ماذا تعني الحياة دون كرامة؟

- علاء. روحي. راح منك فصل، وها نحن مع بداية فصل جديد وقد سجّل لك الوالد (احتياطاً) حتى لا يضيع عليك الفصل، وقد رتّب لك الأمر كي تخرج من المعبر مع أحد الجرحى، تعلم صعوبة الأمر شغّل أبي في الأمر «مائة واسطة وواسطة.»

- هذا محال. أترك الناس هنا في هذا الكرب وأولّي الأدبار؟!

- ستعود لخدمة الناس وأنت طبيب متخصص، هذا أنفع للناس، علاء لا تتردد، نحن بانتظارك.

- إنسي الموضوع، هذا ما لا يمكن حدوثه إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها.

- ويضيع عليك الفصل؟!

- مع ستين داهية. الأرواح هنا تضيع، كل شيء في حياتنا أصبح مستباحاً لهذا العدو الغادر.

صعّدت من لهجتها قليلاً وعلَت بنبرات صوتية قاطعة:

- ماذا ستفعل بمفردك لهذه الآلة العسكرية الجهنمية. هذه النتيجة التي كنت أحذرك من الوقوع فيها، تم تدمير البلد، آلاف الجرحى ومئات الشهداء، لو أنكم تملكون مثل طائراتهم أو على الأقل مضادات لهذه الطائرات، لو أنكم تملكون عُشر عُشر أسلحتهم وعتادهم، هذا الذي تقومون به يا عزيزي هو بعينه ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

صَبَر وتَصَبر على هذا الكلام الذي بثّته طويلاً فضائيات السوء والهزيمة ولاكه كثير من المنهزمين النابعين من أصول أنظمة فاسدة لم تنجح إلا في رفع لواء الهزيمة وتدريسها للناس ليل نهار.

- عزيزتي.. ماذا لو قلت لك إن هزيمة هذا الجيش العملاق قد باتت محسومة. ستقولين: من حقك أن تحلم، أنا يا روحي لا أحلم، بل أعيش الواقع بكل تفاصيله. أنا لست بمفردي وإنما هناك آلاف المقاومين الذين لا يوجد في قلوبهم سوى كلمتين، النصر أو الشهادة، وقد نجحوا في تثبيت معادلة النصر بكل فن واقتدار. عندما يرتد الجيش المجرم على أعقابه خاسئاً على جبهة قتال العسكريين مقابل عسكريين، يعود ليروي عطشه للدماء بقصف المدنيين والأحياء البعيدة عن أرض المعركة والتي لا تخضع

لمعادلة القتال. هذا هو الجيش الجبان، وهكذا على سبيل المثال دمّروا بيتنا وارتكبوا مجزرة دار الليموني، حيث لا يوجد أصلاً هناك معركة أو مقاتلون، إنها «فشّة خلق» عندما يفشلون في أرض المعركة. أطمئنك حبيبتي، لن يدخلوا غزة ولا أي مكان يخضع لمعادلة المقاومة. المقاومة بتأييد من الله ثم بما جهّزوا وتدربوا على حرب العصابات قادرين على فرض معادلتهم على هذا الجيش الذي لا يُقهر!! بينما هذا الجيش غير قادر على فرض معادلته بأي حالٍ من الأحوال. اللهم إلا على زيادة حجم الجريمة على المدنيين والأطفال؛ بغية تركيع الناس. وفي هذه أيضاً أطمئنك: لم يركع الناس بل ازدادوا دعماً وتأييداً للمقاومة.

توقف عندما علا صوت بكائها وراح نشيجها يقطع أوتار قلبه..

- عزيزتي، لماذا تبكين. كلامي يُفرح. ألا تحبين انتصار المقاومة؟!

- بالطبع يا حبيبي. ولكني أتألم للجرحى والمصابين والأطفال، وهذه الأسلحة المحرمة دولياً والتي تحرّق وتشوه المزيد من الناس، كل يوم زيادة في الحرب يعني عشرات الضحايا.

- لا تقلقي، هذه ستبقى لعنة تلاحق هذا الاحتلال. ثم إن هذا هو دأبه منذ أن جاء إلى بلادنا، منذ عشرينات القرن الماضي وهو يقوم بالمجزرة تلو المجزرة. ماذا فعلنا له سنة ١٩٤٨م عندما حلّ بالقتل والإجرام في بلادنا؟! الجديد يا عزيزتي هو أنّ الخسارة أصبحت من الطرفين. هم يألمون كما نألم بينما كان الألم على الدوام من جانبنا نحن. كانوا

قادرين على احتلال بلاد وأراض شاسعة بأسرع وقت ممكن، كما حدث في هزيمة ١٩٦٧م؟ اليوم غير قادرين على احتلال عزبة عبد ربه على أطراف غزة والبقاء فيها. كانوا قادرين على الردع وتدمير الجيوش وتثبيت مقولة «الجيش الذي لا يُقهر»، بينما اليوم غير قادرين على هذا، بل أصبح الردع متبادلاً، وتوازن الرعب هو سيد الموقف، كما حصل في لبنان ويحصل اليوم على أرض غزة. والجيش الذي لا يقهر؟! تبدّلت هذه المقولة لتصبح وبفضل الله المقاومة التي لا تقهر.

- خلاصة القول: لن تعود للجامعة وسيضيع عليك الفصل؟!

- جامعتي عزيزتي قد تبدّل اسمها الآن فأصبح جامعة الكرامة بدل عين شمس.

- وحبيبتك؟!

- دوماً في القلب.

- والأحب إلى قلبك.

- هي روح واحدة تسري في عروقي، لا تتجزأ، الحب والكرامة. لا معنى للحب أيتها الغالية الحبيبة دون كرامة. لا طعم له ولا لون عندما يُغمّس بالذل والخضوع خاصة لهذا الجنس الشاذ من البشر.

- وإذا كان لحبيبتك رأي آخر؟! قد يكون الأكثر حكمة؛ لأنه متحرر من الضغوط التي تمارس عليكم في القطاع..

- أحترم رأيك. ولكن أقول بكل ثقة إنه لا معنى لكل دعاوى الحكمة

والتعقل والسياسات الرشيدة المعتدلة، إذا نزعت منا القوة والقدرة على الوقوف في وجه الظالمين المدجّجين بكل أشكال القوة وأدوات البطش المعدة للخوض في دماء المظلومين.

- وكأنك تقصد النظام الرسمي العربي أو النظام المصري على وجه التحديد.

- «حامل البطحة يحسس عليها» حبيبتي.

قالت وهي تحاول التلطيف من أجواء الحديث:

- أنا لا أحمل بطحة يا روحي، أنا لا يهمني في الدنيا سواك.

تابع علاء اندفاعه غير القابل للمساومة:

- تصوري لو أن القطاع دون مقاومة. لداسونا تحت أقدامهم. لكُنا لقمة سائغة تلوكنا أسنانهم العفنة دون أية رحمة، لقد جربنا الاحتلال طويلاً ولن نعود إليه في القطاع أبداً بإذن الله.

«هي لا تحب حديث السياسة، ولا تخوض به إلا مضطرة كما هو حالها مع هذا الحدث المأساوي الذي فقد فيه خطيبها كل عائلته، أحبّت أن لا تختم إلا على إيقاعات قلبية، تعزف لحن الحب الخالد»، فهتفت من أعماقها:

- أنا لا أعترف إلا باحتلال واحد لا أرى في حياتي غيره.

- هي الكلمة الأسوأ في تاريخ البشرية.

- إلا هذا الذي يحتل قلبي وكل جوانب روحي، الاحتلال الذي يملأ

علي حياتي ويجعلها أنغاماً تشع روعة وألقاً وبهاءً، هي الزهر عندما يخالط النحل فيكون الشهد ولا شيء سواه. هو ذاك الاحتلال الذي حلّ في السويداء والشغاف وكل حياتي وآفاقي. هو أنت بكل تفاصيل روحك الخالدة، هو غضبة الحق في صدرك وصولة الحب في قلبك وعظمة الإثارة والرسالة والوصال في نبرات الخير والعطاء التي تحفّ صوتك.

أنت يا روحي احتلال إحلالي، حللت في كل كياني سهلاً ورحمة وروعة وجمالاً خارقاً اخترق كل حصوني.

طار علاء بروحه في ثنايا هذه الكلمات، تصور الحياة دون الاحتلال واعتلى صهوة سعادة لا حدود لها مع حبيبة القلب؟. ولكنه بين الجملة وأختها يعود للسبب الذي قطع أوصال هذه السعادة. فأجابها من أعماقه دون رتوش كلامية:

- تعلمين مكانتك عندي أيتها الحبيبة الساكنة في كل ذرة من ذرات كياني، أنت ضيائي وهوائي وجنتي، والبهاء الوحيد في حياتي. والذي يزيد حبي اشتعالاً لك يوماً بعد يوم أني أصبحت أرى نفسي وإياك كوكباً دريّاً واحداً، ندور فيه في فلك الحب الأوحد والأعظم، والذي منه نبع سر حبنا وأسرار الوجود كله. ذلك هو حبنا لله ومن هذا الحب يتعاظم حبنا؛ لأنه يحمل في طياته سرّ الحياة. ما أعظم المتحابين عندما تتجمع قلوبهم على محبة الأهداف السامية للحياة ثم العمل معاً من أجلها تفانياً وتضحية. عندئذ يصبح للحب معنىً آخر ولوناً آخر يحمل بداخله كل ألوان

قوس قزح الجميلة. تسمو القلوب والمشاعر وتتعلق بكل ما هو عالٍ ورفيع وعظيم. انظري لي ولك معاً عندما نحمل محبةً للّه هذه القضية العادلة، نتجرد عن صغائر حياتنا ونرتفع إلى حيث نصرة المظلومين والمنكوبين وكل الذين وقعت على رؤوسهم آلة الإجرام وانطلقت من قلوب لا تعرف الحب ولا تعرف إلا الحقد والارتكاس في أوحال الجرائم النكراء. انظري ماذا تفعل هذه القلوب الحاقدة في الأطفال. هذه الكائنات الجميلة ذات القلوب البيضاء التي لا تعرف إلا الحب والرحمة والخير تمتد إليها صواريخهم ونيرانهم الحاقدة لتسحقهم كالحشرات.

قالت في نفسها: أنا أدفعه إلى كلام الحب والتحليق الرومانسي وهو ينطلق من الحب ليعيدني إلى السياسة.

- يا روحي. خلينا مع أنفسنا قليلاً. اخرج من ظلامهم إلى نور حبنا.

- كيف وهو يدق أعناقنا في كل لحظة، ألا تتابعين الأخبار؟!

- أتابع يا حبيبي. لا تنس أن لنفسك عليك حقاً.

- بعد انتهاء الحرب.

- أريدك سالماً الآن، تعال يا علاء أنا أريدك. «بكت وعلا نشيجها».

- أنا لا أقدر على بكائك حبيبتي، لا تقلقي، بإذن اللّه سأخرج سالماً وآتيك بعد هذه الحرب اللعينة..

يدخل أحد الموظفين وينادي.

– علاء، علاء. بدأ دوامك، هناك المزيد من الجرحى.

- حبيبتي.. سلام الله عليك، تحياتي الحارة الملتهبة على الدوام.
- أنا بانتظارك حبيبي، فكّر في الأمر جيداً، لا تضيع دراستك.
- «بصير» خير إن شاء الله. سلامات.

كان البلاغ الذي وصل إلى طواقم الإسعاف،هو مجزرة جديدة في مدرسة تابعة لوكالة غوث اللاجئين تدعى مدرسة الفاخورة. إذن الحرب دخلت مرحلة جديدة. هكذا عباقرة السياسة الصهيونية النازية مرحلوا الحرب. المرحلة الأولى: أسبوع للضربات الجوية حيث الأهداف هي المفاعلات النووية!! - مقرات الشرطة -. المرحلة الثانية: القواعد العسكرية!! - مخازن الطيران الجوي -!! ثم الثالثة: وهي معسكرات الجيش - منازل مدنية -. ثم بدأت الحرب البرية، ذات مراحل أيضاً كسابقتها الجوية، وكانت هذه المراحل على أرض الواقع تترجم ترجمة دقيقة كخطوات إجرامية وغير مسبوقة في عالم الإجرام. الأولى قتل جماعي للعاملين في الخدمات الشرطية، ثم الثانية قتل عشوائي لكل من يقع تحت القصف والدمار ويقطن حول الأهداف النووية المرسومة في أذهان أولي الألباب، كانت تصيب منزل المستهدف، ثم الدائرة المحيطة به من المنازل على قطر مائة متر أو أكثر خاصة عندما كانت الهدية

الجوية تزن طناً من المتفجرات.

المرحلة الجديدة اليوم المساجد والمدارس.

لم يكن هناك دوام للطلاب في زمن الحرب، فمن الضّحية في المدارس إذن؟! لجأ اللاجئون المنتشرون في قطاع غزة مرة أخرى بعد ستين عاماً. ولكن كانت هذه المرة فراراً من الموت المطبق عليهم جواً وبراً وبحراً إلى مدارس وكالة الغوث، ظناً منهم أن الالتجاء إلى مكان يرفرف عليه علم الأمم المتحدة لن تستهدفه آلة الحرب. وكانت هناك تطمينات من الوكالة نفسها والتي بدورها أرسلت إلى قيادة العدوان إحداثيات المدارس، وكبّرت الراية حتى يراها القاصي والداني وكل عيون الإجرام.

كانت سيارة الإسعاف التي تقل علاء مع مجموعة من السيارات تحث السير نحو هذه المدرسة المنكوبة. صفاراتها تملأ الزمان والمكان وصوت الحبيبة الناعم يطن في أذني علاء. تشدّه إلى مصر وليالي النيل وحياة الجامعة الجميلة بعيداً عن هذا الموت الجاثم على القطاع. هناك الحياة ولكن هناك (إن وليت الأدبار وهربت من الواجب) موت الكرامة وحياة الأموات، بينما الموت هنا هو حياة الكرامة وعزّة لحياة لا يموت فيها إلا الذل والهوان ومفاهيم الاستسلام والانبطاح أمام أعداء السلام...لا يا سيدتي.. سعادتي في هذه الحياة، لن أرضى بالانضمام إلى معسكرات الاستسلام.

كان يبدو الأمر محسوماً عند علاء، ولكن وزن الحبيبة في قلبه يُحدث

ثقلاً عاطفياً يحاول جاهداً زعزعة ثقل الدم والظلم ووصية الشهداء. الدم عند علاء يناطح السيف والقوة والمخرز بسهولة. يجده قراراً ثابتاً راسخاً لا يتزعزع. أما هذا التيّار الدافئ الذي يتسربل في عروقه بهدوء ورقّة، بنعومة وحنان، بثورة تثوّر كل مكنونات الهناء. تعمل من ساحة نفسه عرساً مفتوحاً لكل تهاني الحياة وتبريكات كل الكائنات. هذه تشدّه من الأعماق نحو ضفاف النيل، عاتية الحب والجمال. هنا المقاومة يا علاء أصعب من تلك المقاومة في ساحات الوغى، ومواجهة أعتى أدوات الدّمار.

سبقت آذانهم صرخات النساء والأطفال قبل وصول سياراتهم، كان عويلاً جارحاً صاخباً، وكأنه سمح لأهل الدنيا سماع صرخات من هم في عذابات القبور. غابت الرؤيا أمام كثافة دخان القنابل الفسفورية. أعلنت الشمس احتجاجها واحتجبت عن الأنظار، صبّت الشياطين كل لعناتها في هذا المكان. كان المشهد لدى دخولنا ساحة المدرسة وكأنه بركان انفجر وسط المدرسة، تناثرت الكرات المشتعلة في كل مكان وكان دخانها خانقاً حارقاً وفي غاية الخطورة، إذ أن المعلومات عن مخاطرها كانت قد وصلت من قبل لطواقم الإسعاف. هذه المرّة كانت بكثافة شديدة؛ أي أنها هي التي تسبب حروقاً عميقة وتتلف أنسجة الجسد من الداخل. عدا عن أثرها على التنفس والرئتين ومن لم يمت بها فوراً سببت له السرطان فيما بعد.

فعلاً لم يسوقوا الناس إلى أفران الغاز كما فعل النازيون بهم - حسب

إدعائهم – وإنما ساقوا أفران الغاز الفسفورية وألقوا بها على الناس.

انطلقت قوات الدفاع المدني لإطفاء النيران بينما أخذت طواقم الإسعاف دورها في نقل الضحايا التي تناثرت في كل مكان.

وجدنا هياكل عظمية قد تفحمت وهناك حروق جزئية وكلية. وكان أغلب الضحايا من الأطفال والنساء. كانت ضحايا تقشعر لها الأبدان بل تتزلزل وترتج وتذهب بالأبصار. خمسة وأربعون شهيداً في ضربة واحدة، وعشرات الجرحى. كل طواقم الإسعاف والدفاع المدني صبّت قواتها في هذه المدرسة. الفاخورة أصبحت قطعة من الفخار تحترق وتأكل من بداخلها من اللاجئين إلى حُضن الأمم المتحدة الدافئ!

وكان الأقسى والأشد هو صرخات المهلوعين والمنتظرين لدورهم في القتل والحرق والرعد المتفجر من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وكانت روائح الفسفور هذا على أنتن رائحة عرفها ولم يعرفها الناس. يملأ الصدور عفناً وناراً وكأنك سكبت فيها جمر الرماد، أو فحماً حجرياً أو نحاساً مذاباً، أو أي شيء آخر أسوأ من هذا كله. وبين كل ضحية وضحية كانت تتراءى لعلاء حبيبة القلب وهي تهتف «تعال يا علاء أنا أريدك» والنيل عن يمينها والجامعة عن يسارها بينهما الأهرام، والنسيم العليل يطاير شعرها الذهبي الذي يتموّج سحراً ودلالاً. العيون تمتلئ حباً وغراماً والثغر الباسم يتلألأ روحاً وريحاناً. «تعال يا علاء أنا أريدك».

والضحايا تصرخ: «الرحمة يا ناس». «مشان الله» «آخ يابا يابا. يايما

يايما». وتتعالى الاستغاثات لتطرد عبارة الحبيبة من شاشة قلبه وتضعها في ثنايا إحدى الملفات البعيدة في أعماق ذاكرته، بينما تبقى الشاشة الرئيسية أمامه لهذه الاستغاثات العاجلة.

مساءً كان القرار حاسماً جازماً لا يحتمل أي تردد. أمام ما رأى في مدرسة الفاخورة حيث «الهلوكوست» على أبشع ما صوّرت الروايات الصهيونية. جاءوا بفرن الغاز بدل أخذ الناس إليه. القرار يا سادة يا كرام رسخ في صدر علاء. لا بديل عن المقاومة. «لا أرى أمامي الآن إلا الزناد. لا المعبر، ولا مصر من ورائه، ولا الأهرام ولا حتى حبيبة القلب هناك أمام كل هذا الإجرام».

كان يوم مجزرة مدرسة الفاخورة يوماً طويلاً جداً كألف يوم. ولم تتوقف الضحايا فقط على هذه المدرسة، بل كانت هناك إصابات كثيرة، حيث طال القصف المدمّر منازل الناس ومساجد يذكر فيها اسم الله، وتقام فيها الصلاة رغم أنف قنابل الفسفور ومطلقيها.

أما عن كيف استوعبت المستشفيات هذا الكم الهائل، رغم الطواقم الطبية المتواضعة والكميات الدوائية التي كانت تُعاني نقصاً حاداً أصلاً، فاسأل أيا من العاملين في المجال الطبي فسيجيبك بكلمة واحدة، معجزة. وهذا ما قاله بعض الأطباء الذين جاءوا متطوعين من الخارج، فرأوا المعجزة الطبيّة في المشافي، كما هي معجزة المقاومة على جبهات القتال. وكان هناك تفاني العاملين حيث يواصلون الليل بالنهار دون كلل أو ملل.

بعد هذا اليوم الحافل تذكّر علاء صديقه الأجنبي، ولكن لا جهاز ولا مكان ولا انترنت. باح بما في صدره إلى أحد الإداريين في المشفى فوفّر له فرصة في أحد مكاتب الإدارة.

تمكن من فتح البريد الإلكتروني ليجد عشرات الرسائل. وكان منها عدة رسائل من «جون»، فتحها الواحدة تلو الآخرى حيث كان مجملها: «علاء.. أين أنت.. لم لا ترد عليّ.. أخشى أن أكون قد أغضبتك بشيء، الخلاف في الرأي لا يفسد الصداقة، أنا أبحث عن الحقيقة، أقلّب مختلف الآراء من مصادر مختلفة، كلما اكتشفت جديداً زاد حماسي لرؤية الصورة كاملة، البحث العلمي هو منهجي في الحياة، فلا تقلق إن كنت على حق، أعددت مجموعة أسئلة. طرحتها مباشرة من خلال «سفارة إسرائيل» عندنا على وزير دفاعهم «يهود باراك» وها أنا أطرحها عليك وأرجو أن تطمئنني على سبب غيابك الطويل عنّي. ثم يعود في رسالة لاحقة «لم لم ترد عليّ لغاية الآن، ما الذي منعك، علاء أرجوك لنبقى أصدقاء، أنا لي صديق فلسطيني واحد هو أنت، أرجو أن لا تقطع هذه الصداقة. أما الأسئلة المطروحة فهي:

- من المسؤول عن قتل الأطفال والمدنيين الفلسطينيين؟
- لماذا تقصف المدارس والمساجد ومنازل الناس؟
- حصار قطاع غزة وإغلاق كل المعابر ومنع الملاحة البحرية. لماذا؟
- لماذا تطلق الصواريخ على القرى والمدن الإسرائيلية؟

• ماذا لو ملكت المقاومة الفلسطينية صواريخ أكثر فعالية، فهل ستدمّر المدن الإسرائيلية؟

• لماذا هذا العداء الطويل والقديم بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟

• ما الذي يريده الفلسطينيون منكم؟ وعلى الطرف الآخر. ما الذي يريده الإسرائيليون منكم؟

• كيف تتصور الحل المرضي للطرفين في المستقبل؟!

وأسئلة غيرها من هذا القبيل.

شد إلى صدره نفساً عميقاً فملأت رائحة الأدوية والعقاقير دماغه وبدأ يكتب:

صديقي العزيز جون. مرحباً.

لم يمنعني عنك خلاف رأي؛ لأني أؤمن بحوار الناس الذين ينتمون إلى حضارات مختلفة، على عكس الذين يطرحون صدام الحضارات وحتمية سيطرة القويّ على الضعيف، وعلى هذا قامت العولمة بقيادة أمريكا والغرب بالهيمنة على دول وشعوب العالم الثالث، على قاعدة المصالح بعيداً عن الأخلاق والمبادئ. ووفق هذه المعادلة نجد أمريكا وأوروبا أيضاً داعمة بكل قوة لهذا العدوان، وهذا ما كشفته هذه الحرب على غزة حيث أنّ مئات القتلى من الأطفال والنساء، مع آلاف الجرحى لم تشفع لهم بعدم استخدام الولايات المتحدة الأمريكية لحق النقد الفيتو للقرار الذي

يدين العدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني.

أما عن الذي منعني من مواصلة التواصل معك الأيام الماضية، فهي أحداث جسام لا أدري كيف أخبرك بها. أرجو أن تتحمل أعصابك هذه الأخبار:

انطفأت الأنوار من حياتي وانقطعت الكهرباء بكل أشكالها، لم يعد يعمل المولّد الذي أحضره أبي للبيت ليكون بديلاً عن الكهرباء، فأدخل إلى الشبكة الإلكترونية وأتواصل معك. انقطعت الخطوط ولم يعد هناك شبكة انترنت.. راح المولد وراحت الكهرباء. راح البيت وتم قصفه وتدميره. فقدت أبي وراح نوره من حياتي.فقدت أمي وراح ضياؤها من حياتي وإلى الأبد.فقدت أختيّ الصغيرتين وراح شذى روحهما العذب من حياتي. لم يكونوا مقاومين بل كانوا في بيتنا آمنين ومثلنا كثيرون أصيبوا بمثل هذه الفواجع وأكثر منا، مثل جيراننا عائلة الليموني، حيث فقدوا تسعة وعشرين شهيداً دفعة واحدة، من بينهم أطفال تم إطلاق النار عليهم مباشرة بعد أن نجوا من قصف منازلهم. إن أحببت بالتفصيل فافتح الخط غداً بمثل هذا الوقت. رأيت وعشت ما يشيب له الولدان وتسقط له قلوب الرجال قبل النساء،أختم بحدث هذا اليوم والذي جاءني خبراً عاجلاً. أرجو أن ترد عليه مباشرة، أنا سأبقي الشاشة مفتوحة لرؤية ردّك حال وصوله مباشرة.

«تمكنت المقاومة الفلسطينية من التسلل إلى قلب مدينة تل أبيب حيث

زرعت عبوة ناسفة كبيرة في مدرسة، مما أدى إلى انفجار هائل أوقع خمسة وأربعين قتيلاً وعشرات الجرحى».

أنتظر ردك ومع تحياتي الخالصة/علاء

وجاء الرد سريعاً: لم يذهب ببصر قلبه إلى أول الرسالة في الكوارث التي حلّت بصديقه علاء، ولا بالمجازر التي لحقت بقطاع غزة بأشكال متعددة وأحجام مختلفة، وإنما بنظرة عرجاء وقف عند آخر الرسالة، حيث الخبر العاجل وانطلق في الرد عليه.

- اسمع يا علاء. «نسي التحية».

مقاومتكم هذه إرهابية بامتياز. قتلة مجرمون نازيون. أنتم أعداء للسامية والإنسانية جمعاء. هذه جريمة نكراء لا يقوم بها إلا من فقد مشاعر البشر وتحوّل إلى حيوان مفترس. يجب أن يقف العالم الحرّ كله صفاً واحداً في محاربة إرهابكم. جون.

ونسي أن يعزيه في مصابه في أهله وختم:

جون تحية

إذن هو على الجهاز ففتح علاء الحوار معه مباشرة.

- صديقي «جون» آه. أنا نسيت. المدرسة ليست في تل أبيب، إنها في غزة، هي مدرسة الفاخورة التابعة للأمم المتحدة، تم قصفها بقنابل

محرمة دولياً، قنابل فسفورية. ما رأيك الآن؟

- ماذا تقول. هذا فخ إعلامي يا علاء. خدعتني.

- لا تهرب من الموضوع. ما هو قولك الآن؟!

- نسيت أن أعزيّك في مصابك. رحمهم الله وصبرك الله يا عزيزي.

- بوركت ولكن قل لي ما قولك في قصف مدرسة الفاخورة.؟

- لا شك بأنه عمل خاطئ، هناك خطأ ما، دعني أبحث في الموضوع.

- قصدك كي تبحث عن مبرّر فتعلق عليه هذه الكارثة.

- لا تسء الظن بي. لماذا أنتم هكذا تتصورون بأننا نتآمر عليكم، أنتم مسكونون بعقلية المؤامرة.

- «اسمع اطلع من راسي،» أنتم تكيلون بمكيال ظالم يميل مائة درجة لصالح طفلتكم المدللة «إسرائيل».

- هكذا أنتم تتخيلون، من وحي قرآنكم تقولون منذ قديم الزمان أن اليهود والنصارى معاً حلف واحد ضدكم.

- نحن لا نتخيل ذلك بل نعتقد ذلك، وها هو الواقع يصدّقنا في اعتقادنا، بماذا تفسّر حديثك عن المدرسة، وانقلاب أقوالك عندما تغير موقع المدرسة وجنسيتها. يا صديقي. الطفل هو طفل، والضحية هي ضحية مهما كانت جنسيتها ومهما كانت جنسية الجلاد.

- أشعر بدوار في رأسي، أرجو أن تبعث لي ردّك على الأسئلة كي يكتمل البحث في رأسي.

- حسناً. ابعث لي رد وزير الحرب حتى أضمّن ردي رداً عليه، فأوفر رسالتين في رسالة واحدة.

- ما شي، حال وصوله. «باي» صديقي علاء.

- باي جون.

❖ ❖ ❖ ❖

دارت عجلة سيارات الإسعاف صبيحة اليوم التالي على مجازر جديدة، اتسع حجم الدمار والخراب، وتعاظم عدد الجرحى والشهداء، وكان انهماك علاء في هذا الخضم الحافل بالدماء يشغله قليلاً عن إيجاد سبيل الانضمام للمقاومة، ومع هذا لم يغب عن باله لحظة أنّ عليه أن يضم ساعده إلى تلك السواعد، وحتى تأتي الفرصة فإنه يقوم بدوره كمسعف خير قيام، يداوم نوبتين، أي مكان اثنين من موظفي الإسعاف الرسميين رغم أن أغلبهم قد ضاعف دوامه، ومنهم من ينهي نوبة في مشفى، ثم ينتقل إلى نوبة أخرى في مشفى آخر.

الساعة الثانية عشرة ليلاً، عاد علاء إلى المشفى وحاله كحال بقية المسعفين يكاد يتفجر سخطاً وغضباً وحرقة على تلك المشاهد التي مرت عليه كشريط متواصل من الشهداء والأشلاء والأجساد المتفحمة والأطراف المحروقة، أطفال يصطرخون ألماً وهلعاً، نساء قتلى وأطفالهن

أحياء حولهن ولا يعرفون معنى الموت، أمهات يبكين بصمت وهنّ يحتضنّ جثث أبنائهن.... صدره أصبح محشواً بقنبلة نووية توشك على الانفجار. فتح حاسوبه وراح يكتب علّه يخفف قليلاً من هذا الاختناق.

صديقي جون.

قامت شركة هوليود للإنتاج السينمائي بفتح استوديوهات لها في إمبراطوريتنا. مسرح هذه الاستوديوهات هو الأحياء المتاخمة لمدننا، الأبطال هم قادة دولة إسرائيل بينما وظفت مليون ونصف فلسطيني «ككومبرس» واستعانت بالجيش الإسرائيلي بكامل قواته وعتاده كي تحدث «الآكشن» وكي تصنع مشاهد الإثارة والرعب المطلوبة؛ لأن طبيعة الفيلم من النوع الذي ينتج أعلى درجات العنف والتي لم يسبق إليها أحد. والآن إليك بعض ملخّصات الأفلام التي يجري هذه الأيام إنتاجها:

• الفيلم يتحدث عن بيت تم قصفه بصاروخ من قبل طائرة (F16) مما أدّى إلى استشهاد اثني عشر إنساناً من كل الأعمار ومن الجنسين، وهنا بدأت أحداث الفيلم، حيث كان من جثث القتلى ثلاث أمهات، وبقي على قيد الحياة ستة أطفال تتراوح أعمارهم بين سنة وخمس سنوات. لا يعرفون معنى الموت وحسبوا أن الأمهات قد نمن نومة أهل الكهف،، وتدور أحداث الفيلم باتجاهين، الاتجاه الأول محاولات طواقم الإسعاف الحثيثة للوصول إلى المكان حيث كانت تواجه القصف وإطلاق النار الذي يحول

بينها وبين الضحايا، مما أدى إلى إصابة عدة مسعفين بجراح وتدمير أربع سيارات. الاتجاه الآخر للفيلم كان يحكي العلاقة الدرامية بين الأطفال وأمهاتهم، وكيف تعلموا معنى الموت وأخذوا يبتعدون شيئاً فشيئاً عن أحضان جثث الأمهات، خاصة بعد أن طال صمتها وأصبحت بلغة الجسد تعبر عن موتها وبرودة دفء الحنان في أحضانها، وهي تستنطق الحليب من الثدي الجاف وتنتظر البسمة من الثغر المتيبس.

واستمر الحوار بين هذه الدمى الحية المتحركة (الأطفال) وبين أجساد الأمهات الباردة منزوعة الروح أربعة أيام. أربعة أيام هي طويلة جداً في عمر طفولة جائعة لكل شيء. جائعة من فقدان الدفء نظراً للبرودة القاسية لشهر كانون الثاني الذي جرت فيه هذه الأحداث. هذه وقائع الفيلم بينما خيال الكاتب والمخرج انصب في تصوير العلاقة بين الطفل ونفسه، وبين الأطفال مع بعضهم بعضا وبينهم وبين جثث أمهاتهم ثم بينهم وبين المسعفين، عندما اقترب الفصل الأخير وافترقت الأجساد كما افترقت الأرواح من قبل. وكانت النهاية في المقبرة حيث تطوي الأرض هذه الأجساد وحيث كرامة الميت دفنه.

وهناك فيلم آخر شاهدته هذا اليوم ألخّص لك أحداثه:

• وصل طاقم الإسعاف المؤلف من ثلاثة مسعفين وسيارة إلى حيث أربعة جرحى في الشارع يصيحون ويستغيثون. هذه كانت بداية الفيلم ثم بدأت الأحداث عندما وصلت طائرتان عموديتان لتحول نيرانها بين

الجرحى وسيارة الإسعاف، تراجعت السيارة فغادرت الطائرتان المكان. وكانت (في ذلك الحين) الاتصالات بين ضابط الإسعاف والصليب الأحمر ليؤكد التنسيق وأخذ الإذن في عملية الإنقاذ، تأكدوا من حصول الإذن، تقدموا من جديد باتجاه الحناجر التي جفّت من الاستغاثة. أصوات القصف وهزيم الطائرات النفاثة لا تتوقف، الشمس توشك على المغيب وتنأى بنفسها عن الاستمرار في إضاءة هذا المشهد فيضطر المخرج لتجهيز كشافاته الليلة. كانت ثلاث إصابات خطيرة تجعلك لا تدري أيصلون المشفى أحياء أم أمواتا وواحد إصابة متوسطة. حملوا هذه الإصابة وأقعدوها في إحدى زوايا السيارة بينما أحضروا ثانية خطيرة حيث مدّدوها على حمالة وسط السيارة. هنا فجأة ودون سابق إنذار ضربت قذيفة بكامل غضبها وسط السيارة، وكأنها تضرب مجرماً وهو متلبّس بارتكاب الجريمة. طارت السيارة وقتل متوسط الإصابة والخطير واثنان من المسعفين بينما وجد السائق نفسه مثخن الجراح ولا يدري إلى أين يتجه بحركة جسده المتهالك.

وختم الفصل الأخير بمجيء سيارة لنقل ضحايا الإسعاف وأخرى لِما تبقى من أشلاء وشهداء.

• الفيلم الثالث يا صديقي كان عن رصد العلاقة بين طفلة عمرها خمس سنوات وأخيها الصغير ابن السنتين. بدأت أحداث الفيلم عندما وقفت دبابة أمام المنزل بمكبرات الصوت ليخرج المقاومون. لم يخرج

أحد. قالوا: آخر إنذار، ليخرج المقاومون. خرج صاحب المنزل وهو في الأربعينات من عمره وقد خط الشيب رأسه وبدت قصة البؤساء وهي تلوح في وجهه. أراد أن يتفاهم معهم. أن يخبرهم بأن هذا البيت لا يوجد به مقاومون. لم يمهلوه طويلاً صلبوه أمام بيته وأفرغوا في جسده عشرات الأحقاد الرصاصية، ثم قصفوا البيت بعدّة قذائف أسكتت أصواتاً كانت تضجّ بالحياة، بل تصارع بآمالها قسوتها وظروفها القاهرة. سكت في البيت كل شيء سوى صغيرين. بنت في الخامسة وأخوها في الثانية. جرح الولد جروحاً خفيفة ونجت البنت. وصل الإسعاف ونقل الشهداء الأب والأم والأخ الكبير والأخت الكبيرة. وكانت الروعة تتجلّى عندما تأخذ ابنة الخمس سنوات دور الأم، فتحتضن أخاها وتربت على صدره وتعده بأن تحضر له ماما.

يا لهول الروعة في هذا المشهد! وهي الرعاية الفريدة التي تطيل الكاميرا الوقوف عندها، ثم يذهب المخرج بخياله بعيداً ليعود إلى الوراء فيحكي عن طبيعة هذه العائلة وظروفها، حيث كانت الأم مريضة من قبل واستطاعت أن تكبر بأمومتها في طفلتها كي تكون مساعدة لها في رعاية هذا الشقي الصغير. ثم يذهب بخياله إلى الأمام ليحكي مستقبل هذه العلاقة حيث لا أب ولا أم ولا عائلة لهذين الصغيرين.

• الفيلم الرابع بعنوان: جائزة نوبل للأوقح. كان هذا فيلماً وثائقياً استعرض فيه التاريخ العريق للمناضل الكبير شمعون بيرس، حيث بدأ في

عصابات الهاجانا ومجازر الأربعينات وطرد الفلسطينيين من ديارهم، ثم توالى التخطيط والسيطرة على كل شيء في الحياة الفلسطينية والتوسع الاستيطاني فيها. مسيرة حافلة بالعطاء وبركات الإجرام إلى أن يصل لمنصب رئيس الوزراء، ويخطط لمجزرة عظيمة كي يزاود على اليمين الصهيوني فينجح في الانتخابات. يرتكب مجزرة قانا حيث قتل اللاجئين في عمق مقر الأمم المتحدة. سقط في الانتخابات وسمّي عندهم بأنه الخاسر على الدوام. وتبلغ درجة وقاحته عندما يصدر أفكاراً في كتاب ينظّر فيها للعقل الصهيوني الذي يريد له أن يسيطر على المال الخليجي والأيدي العاملة المصرية والمياه التركية.

ويأتي الفصل الأخير لينفي قتل الأطفال في هذه الحرب، بينما الصور تبث مباشرة من أحياء القطاع حيث القتل المتواصل للأطفال وبالطرق التي لا تخطر على قلب بشر.

وتأتي اللقطة الأخيرة التي يختم بها الفيلم والمناضل بيرس يقول بأننا لم نقتل ونجرح الآلاف في أفران الغاز، وإنما هي الحرب التي قتلت الناس في أماكن مفتوحة. وكانت الستارة تغلق على حفل تتويج عبقري السلام وتاج الأوقح في تاريخ البشرية يتوّج على رأسه الذي جاء على قد الرأس تماماً.

• أما الفيلم الخامس فهو (لرجل إعلامي) أراد أن يعود إلى بيته، أعلن جيش السلام عن هدنة إنسانية. الحيّ انتشر فيه الدمار وكأنه قد

تعرّض لزلزال مدمّر. تهتك كل شيء في الحي، وانحلّت عرى تماسك بنيانه، رقصت عاصفة هوجاء على رؤوس بيوته رقصة الموت والدمار، تركته ما بين صريع وقتيل ثم غادرت المكان ولم تغادر. ما زالت أصواتها تعربد في السّماء وتنذر بعواصف جديدة قد تكون أعتى وأمرّ.

دخل الرجل بيته الذي تغيّرت كل ملامحه وتحطمت كل زاوية من زواياه. طارت الأبواب والنوافذ وأصبح ملعباً للرياح تلعب به كيف تشاء. وكانت الكاميرا تصوّر انعكاسات الصورة على صفحة وجه صاحب البيت. هذا الصحفي الذي سار ببطء شديد على أشياء البيت وذكرياته المنثورة في كل مكان. كان البيت يعلن وفاته رغم أنه مات وهو واقف. صمته المطبق أعلى صوتاً من صوت طائراتهم إلا أنه سمع أنيناً خافتاً، خائفاً يكاد ينطفئ لولا بصيص أمل في حياة. اقترب من الصوت ويده على قلبه، نظر إلى مصدره فهاله ما رأى، طفلة شاحبة على حافة الموت تغرق بدمائها. عيناها تومضان بروح مازالت في أعماقها إلا أنها لا تقوى على الحراك.. ساقاها متدليتان والدماء قد تخثّرت حولهما، الدماء تغطي وجهها وجسمها وقد مال الى السواد وفاحت رائحة الموت فيه.

«قالت بصوت خاشع مقطّع الأوصال: عمّو أنا آسفة، دخلت بيتك دون إذن».

صرخ من أعماقه ليستحضر قواه قبل أن تخرّ صريعة على ما رأت. يا الله. ثم تشجع واقترب من الفتاة وحملها بين ذراعيه، هبط بها نحو

سيارته وانطلق إلى المشفى بأقصى سرعة لديه. تلقّفها الأطباء. وهناك في غرفة العمليات تم قطع الساقين بعد أن فقدت كل أمل للحياة.

في اليوم التالي استطاعت أن تعود بالذاكرة إلى الوراء فتروي ما رأت: ضربت البيت قذيفة دبابة فمات أبوها وأخوها. هربت من البيت فألحقوها بقذيفة أصابت ساقيها. لا تدري بعد ذلك كيف زحفت ودخلت هذا البيت المهجور. ما تذكره أنها فرّت من قذيفة ثانية أخطأتها. من الذي نقلها وسار بها إلى هذا البيت المهجور؟ هل تقوى ساقاها المقطوعتان على السير بها؟.

الفصل الأخير يعود بالكاميرا إلى أمها التي لم تكن في البيت، عندما عادت ورأت الدمار والأشلاء أغمي عليها، ثم أفاقت وهم يدفنون الأشلاء وكان الظن بأن أشلاء هذه الفتاة قد دفنت معهم. نعتهم جميعاً وراحت تطوي نفسها على ألم وحزن فراق العائلة بها. فلما أبلغوها بنجاة الفتاة، هرعت إلى المشفى دون أن تأبه بكل مخاطر الطريق من دبابات وقصف طائرات تجوب السماء وتمحّص الطرقات بكل دقّة وإجرام. وكانت اللقطة الأخيرة في الفيلم هي مشهد اللقاء بين الأم وبقية عائلتها الجريحة.

يكفيك صديقي خمسة أفلام من إنتاج هذا اليوم

من مهرجان هوليوود السينمائي

علاء

امبراطورية غزة

أرسل ما كتب إلى جون وبعد ذلك فتح الرسالة القادمة منه.

رفيقي علاء:

ليس من الإنصاف أن أطلعك على إجابات وزير الدفاع «باراك» قبل أن تصلني إجاباتك ولكن لا بأس سأضعها بين يديك على أن تكتب ردّك ورأيك في إجاباته على الفور وأنا لك من الشاكرين. إليك إجاباته:

- المسؤول عن قتل الأطفال والمدنيين هي قناة الجزيرة التي تنقل الصور الفظيعة والتي تخدش بذلك المشاعر الإنسانية.
- قصف المدارس والمساجد لأنها هي التي تُخَرِّج الإرهابيين.
- الحصار لقطاع غزة وإغلاق المعابر سببه هو، إنك لا تعرف أن للمنتصر سجوناً من أجل بسط سيطرته وتنفيذ إجراءاته.
- تطلق الصواريخ علينا لأننا يهود، والفلسطينيون يكرهون اليهود كما تعلم. لو أن المقاومة الفلسطينية تملك قوة صاروخية أكثر فعالية لكنّا أثراً بعد عين منذ زمن بعيد.

سبب العداء الطويل بيننا وبين جيراننا الفلسطينيين هو أنهم لا يتصوّرون وجودنا في هذه المنطقة.يريدون طردنا من ديارنا.

الحل في المستقبل أن يذعن الفلسطينيون لقوة الردع الإسرائيلية بالمقابل لهم منا تصاريح عمل لدخول «إسرائيل» والعمل فيها.

هذا رده وعليك الرد كي أقارن وأعرف طريقي. والسلام

جون

استفزت علاء هذه الإجابات التي تقطر صلفاً وعنجهية ووقاحة ثم انطلق يرد عليها:

صديقي جون.

لو أردت أن أتمادى في الوقاحة إلى أبعد مدى وأن أملك زمام الخيال وأبلغ فيه أقصى حد ممكن لما استطعت أن أجيب مثل إجابات صاحبك. يا رجل،المصور يتحمل مسؤولية القتل!!!. لا أحد في العالم يقول هذا، الذي يقتل هو الذي يتحمل مسؤولية القتل. أفي هذا مراء أم أنه وقاحة واستغباء لكل من يسمع كلامهم. أنا سمعت مثل هذا الكلام من أكثر من مسؤول صهيوني هاجم قناة الجزيرة. يريدون أن يقتلوا ويدمروا دون أن يرى أو يسمع أحد. تصوّر لو أن الجزيرة وعالم الفضائيات الحر كان موجوداً أيام نكبة فلسطين؟ ثم دعني أقول لك إن دولة الإجرام هذه تمنع الإعلاميين من دخول ساحة القتال، وأن هناك آلاف الصور لا تجد من يصوّرها. إن ما يرشح من الصور هو القليل القليل من حقيقة ما يحدث. المخفي أعظم وستكشفه الأيام بإذن الله.

أما أن قصف المدارس والمساجد لأنها تخرج إرهابيين - مع الاختلاف على كلمة إلارهابيين - ولكن على فرض أنها تخرِّج من يقاوم الاحتلال فما العيب في ذلك؟! أليس أغلب سكان القطاع من اللاجئين الذين طردوا من ديارهم الأصلية والتي حل محلّها المستوطن الصهيوني؟؟ ألا يحق

لهؤلاء أن يستعدوا لاسترداد حقوقهم ومواجهة هذا الاحتلال؟ أم أنهم يريدون مدارس ومساجد ترعى الخراف وتهيئهم لمذبح الاحتلال؟! ومع هذا فإن المدارس التي أصيبت تابعة لوكالة الغوث وهي معروفة بمناهجها التربوية التعليمية البعيدة كل البعد عن التربية التي تؤسس في نفس الطالب مقاومة الظلم وتحقيق الحرية والاستقلال.

ثم لو أني أحدثك عن مدارسهم ومناهجهم كيف تربّي على العنصرية والحقد. يا رجل، الزعيم الروحي لحركة شاس والذي يسيطر على قطاع تعليمي واسع، دوماً يصدر تعليماته بأن العرب والفلسطينيين أفاع وصراصير. إن لم تصدّق فابحث على «الجوجل»في «عوفاديا يوسف»وانظر في أقواله.

وما أوقح إجابته على السؤال الثالث! لابد للمنتصر من سجون فجعل القطاع سجناً كبيراً. بدل المحتل قال المنتصر، إذا كان الانتصار هو تجويع الأطفال وممارسة العقوبات الجماعية بهذا الشكل البشع فلعنة الله على المنتصرين.

أما الرابع فهو أن المقاومة تطلق صواريخها عليهم فقط لأنهم يهود. هو ينسى أو يتناسى بأن الدولة الإسلامية على مر التاريخ الإسلامي كانت ملاذاً آمناً لهم من الظلم الأوروبي الذي كان يلاحقهم على الدوام خاصة أيام العثمانيين، ثم إنهم مازالوا لغاية الآن يعيشون في بلدان عربية وإسلامية بكامل حقوق المواطنة. اليهودية لم تكن في يوم من الأيام

هدفاً لأي مسلم إلا عندما ركبهم المشروع الصهيوني وجاء بهم ليحتل أرضاً ليست أرضهم. ولا مجال للتوسّع حتى أزوّدك بنصوص مقدّسة عند المسلمين تأمر ببرهم وإحسان معاملتهم. الصواريخ محلية الصنع هي رد فعل متواضع وبسيط على حجم الإجرام الهائل والمسلّط على رقاب الفلسطينيين والذي بدأ منذ بروز فكرة إقامة وطن لشعب بلا أرض على أرض بلا شعب. مفترضاً أن فلسطين أرض بلا شعب.

هكذا بدأت قصة هذا الإجرام الضخم:

١- احتلال فلسطين بقوة السلاح مما أدى إلى القتل والتدمير والطرد لمواطني فلسطين الأصليين.

٢- مواصلة الملاحقة والاعتداء على الفلسطينيين في أماكن لجوئهم مثل حصار غزة والحرب عليها ودكّها بالطيران والبوارج الحربية وكل أسلحة الدمار، وكل هذا بعد مدة احتلال طويلة سامتهم سوء العذاب واستمرت منذ سنة ١٩٦٧ وحتى سنة ٢٠٠٥.. أهناك ظلم بعد كل هذا الظلم ثم عندما تتنفس الضحيّة وتعرب عن غضبها عبر هذه الصواريخ البدائية نلومها ونحمّلها كل المسؤولية وكأنها هي التي أحضرت وصنعت الاحتلال في ديارها.

أما الخامس فلو أن المقاومة ملكت صواريخ أكثر فعالية... الخ وسأكون صريحاً معك. إن من أهدافنا هو زوال الاحتلال وإعادة اللاجئين إلى ديارهم وهذا حق مشروع وفي عودة اللاجئين قرار للأمم المتحدة. وحالة

عودة الحقوق لأصحابها فإننا لن نظلم ولن نرتكب المجازر وسنقول ما قاله نبينا لمن ظلموه طويلاً حينما فتح مكّة اذهبوا فأنتم الطلقاء. سنقول لهم عودوا إلى دياركم طلقاء معززين مكرمين ما نريده منكم هو فقط إعادة الحقوق لأصحابها. إننا الآن لا نملك القوة التي تكفل الخلاص من هذا الاحتلال ولكن سيأتي هذا اليوم عاجلاً أم آجلاً فهذا هو دأب الظلم والاحتلال، سنّة ثابتة لا تتغير.

وهذا هو جواب السؤال السادس أيضاً.

أما السابع: ما الذي يريده الإسرائيليون منا؟ فهو:

١- السيطرة الكاملة على كل شيء في حياتنا دون أي مقاومة أو ممانعة.

٢- أن تشكل أيدي عاملة رخيصة لمصانعهم وورشات بنائهم. نأكل ونشرب ونخلّف لهم عبيداً لهم وننام. كما قالوا: «من الورشة إلى الفرشة»

أما جوابه عن نفس السؤال، وهو أننا نريد طردهم من ديارهم. هي أولاً ليست ديارهم ثم إنه في جوابه يشعرك بأنه الضحية ونحن الجلادون بينما على أرض الواقع الأمر معكوس تماما..

وجوابه عن الثامن من حيث الحل عنده يكمن في الإذعان للرّدع، هذا هو منطق الاحتلال. لم لا يكون الإذعان منا ومنهم للحق بدل هذه الكلمة «الردع» والتي تحمل في طياتها الظلم والبلطجة وعربدة المستكبرين على المستضعفين.

أما الحل عندنا فهو إعادة الحقوق لأصحابها وأن يتوقف الظلم. فهل

نطلب المستحيل؟! ضع نفسك وشعبك مكاننا فهل تطالب بغير هذا؟!

آمل صديقي جون أن تنظر بعيون ضميرك الحيّ، وأن لا تنظر بعيونهم كما هو أغلب حكومات الدول الغربية، حيث إنهم يتعاطفون مع مأساة اليهود بإيقاع مثلها أو أشد منها على الشعب الفلسطيني. أي ينشدون حلاً على حساب غيرهم بدل أن يكون على حساب الذي ظلمهم.

سلاماتي وتحياتي/علاء

وكانت رسالة من حبيبة القلب:

حبيبي ومسك روحي وفارس عمري علاء..

حياتي دونك هي دمار قد مرت به آلة الحرب الصهيونية. أنت بنياني وعمود حياتي وسر وجودي. أنا دونك مجرد هباءة تذروها رياح عاتية. والله إني مشتعلة الشوق لدرجة اشتعال الشمس أو أكثر. أنا وإياك يا روحي مجموعة شمسية فيها كوكبان لا ثالث لهما، تدور في فلك حبنا الذي يملأ الكون ضياءً أو أننا كوكب واحد ليس له إلا حركة واحدة. حركة الحب والإخلاص والوفاء والذوبان الكامل في مشهد سماوي لا مثيل له على هذه الأرض.

حبيبي علاء، مازلت بانتظار ردك الذي تحدد فيه موعد اللقاء. أنا غربي النيل وأنتَ شرقيه. أجذِّف بكل ما أوتيت من قوة نحوك وأنت تقف واجماً دون حراك. أنزل النيل وأندفع سابحةً نحوك. أحلم بأن ألتقيك

لأعانق روحك وسط المسافة بين غرب نهر حبنا وشرقه. ثم نكمل السباحة نحو غرب النهر. النيل والجامعة ومواصلة درب العلم والحب.

حبيبي. أنتظر منك أن تملأ هذا الفراغ: تاريخ السفر من غزة. زمان ومكان اللقاء. حبذا لو يكون متنزّه النسيم حيث كانت حفلة خطوبتنا المباركة.

مع بالغ تحياتي. يسرى

تمعر وجه علاء. وكأن غزة في رخاء وهناء وسلام. لا شأن لحبيبة القلب بالحرب وهذا الإجرام. لم لا يهزّها ما يحدث هنا؟ أو إنه بلا شك يؤثر ولكن لدرجة لا تخرجها من حدود ذاتها الضيقة.

تساءل: ألا تتابع الأخبار؟ ألا تشارك في المظاهرات التي عمّت الشوارع المصرية؟ ألا ترى زخم التأييد والدعم العارم للمقاومة في غزة، والذي عمّ العالم العربي والإسلاميَّ؟ مظاهرات مليونية في اسطنبول والرباط وطهران وجاكرتا.. وحتى في أوروبا وأمريكا نفسها، هناك عشرات الآلاف التي تحرّكت للاحتجاج على الإجرام الصهيوني والوقوف مع الشعب الفلسطيني.

تريد مني السباحة في النيل وأعداؤنا يسبحون في دماء أطفالنا؟! تريد مني مواصلة درب العلم والحب، وأنا أبحث عن درب الشهادة. العلم بحقيقة هذا العدو وحبّ الحرية والحق والعدل ورفع الظلم وحب الله

الذي ينبع منه كل هذا الحب.

ألم تصلها رسائلي وموجز أفلام الرعب التي أشاهدها كل يوم على مسرح غزة، وألمس آلامها ودماءها وصرخات أهلها. ماذا تحسبني! إنسانا لا تتوجه مشاعره إلا نحوها. أن تكون محبوبة تتكامل وتنسجم مع حب الله والوطن وخير البلاد والعباد أو أن تكون محبوبة معبودة من دون الله. لا تسمح لمشاعري أن تتحرك إلا باتجاهها وحدها. وبعد ذلك لا نزل القطر. لا يا حبيبة القلب، لن يكون هذا. بل إني أتوقع منك أكثر من هذا بكثير. حتى التضامن وحده لا يكفي. أنت جزء من هذا الشعب المنكوب وهو جزء منك.

لم تستطع أصابع يده الضرب على لوحة الحاسوب. شعر بأن الكلمات لن تسع مشاعره الغاضبة المضطربة. صدره يفور بثورة أخرجت كل جنودها في عروقه. أجل الكتابة التي ستكون باردة أمام سخونة قلبه. قال: لعلي غداً أتكلم معها مباشرة، رغم أن الخلوي قد جف رصيده. لعلها هي تتصل.

في نفس الليلة أخذته سنة من النوم، لا يدري كم استمرت ولكنه شعر أنها طويلة وعظيمة.. استأذن أبوه كما هو معتاد. يطرق على الباب طرقاً

لطيفاً وكأنه يترنم على آلة موسيقية. يطل برأسه، يبتسم ويهتف:

- ألديك متسع من الوقت.

- أجمل الأوقات مع أحسن الآباء.

- أخبارك تمام؟

- الحمد لله على كل حال.

- هذه «على كل حال» تعني أنك لست على ما يرام. لا يا أبي الوضع يسير على ما يرام. لا تقلق أبداً.

- أنا غير قلق على نفسي وإنما هي الحرب وما ستسفر عنه؟

- ستسفر عن كل خير. ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

- لا تقلق يا ابني. ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

- وهذه الضحايا، مئات الشهداء، آلاف الجرحى. دمّروا كل شيء، دمّروا بيتنا. «كأنه يشكو ضيق الحال وضراوة الحرب. وعظمة الخسائر».

- بيتنا لم يدمّر. بيتهم الذي دمّر، عندما تسقط الأخلاق يسقط كل شيء.

وجاءت أمي لتحتضنني كما كانت تفعل عند عودتي من السّفر، ورفعت أختاي أيديهما تنتظران دورهما للعناق.

أفاق من نومه قبل عناق الأختين. وجد نفسه في عالم آخر. عالم وضع نفسه به كي ينسى عمق مأساته ولكن كيف؟ ينهمك في الإسعاف نهاراً؛ ليأتي منهكاً لينام ليلاً دون أن يعطي لنفسه فرصة التفكير في المأساة

التي حلّت به وحلّ بها. أحياناً يواسي نفسه بحالات تلقت ضربات أكبر من ضربته. كان ينظر إلى البنت التي فقدت عائلتها وفقدت ساقيها. يحمد الله، هو فقد عائلته ولم يفقد شيئاً من جسده أو صحته.

نظر إلى هذه الرؤيا على أنها من المبشرات. لا تقلق. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾. شعر من أعماقه مدى حاجته لصوت الحكمة والثقة بوعد الله، والذي كان يتمثل في صوت أبيه وهو حيّ يرزق. وها هو ذا الآن في عالم الغيب أيضاً حي يرزق ويأتيه منه نفس الصوت. ألقى في صدره بهذه الكلمات القليلة، الثقة بنصر الله. أثقل ما كان يُثقل على صدره هو مستقبل هذه الحرب. نتيجتها إلى أين؟ كان هذا عنيفاً على النفس خاصة وهو يرى كثرة الضحايا رغم أنهم من المدنيين، إلا أنها تشكل ضغطاً على المقاومين. جاءته كلمات أبيه قوية واثقة عزيزة كريمة ورافعة لمعنوياته إلى حيث الثّرى. وهذه الآية يريد أبوه أن يؤكد بها أن الله يتولى أمرنا. يتولى معركتنا مع هذا العدو الجبان. هذا الذي لم يسبقه أحد في النذالة والحقارة والجبن. يحاصر شعباً في مساحة ضيقة دون أن يكون لهم مهرب أو متنفّس. يحاصرهم بالدواء والعلاج وأساسيات الحياة، ثم نهاية المطاف يأتيهم بكل آلات العصر المدمرة ويستخدم كامل قوته جواً وبراً وبحراً وبكل الأسلحة الفتاكة والمحرّمة دولياً. بكل هذا الأخطبوط البشع يهاجم النساء والأطفال ويحجم عن مواجهة المقاومين إلا في حدود ضيقة جداً. حرك جوانحه وهو يخطو خطواته الأولى في هذا

اليوم مستذكراً ومستحضراً لحضن أمه الذي أسند روحه إليه في هذه الرؤيا العظيمة. لم تكن له رؤيا، وإنما كانت حقيقة من حقائق الشهادة.. كان يشعر بعظم خسارته في أمه وذويه مع مرور الساعات ومجيء أيام تبدو كصحارى قاحلة بالنسبة لتلك الأيام. كيف كان يلوذ إلى بيته العامر بالحنان والحب وكل جماليات الحياة. كانت أمه تفتخر بنجاحها الباهر في نسج مشاعر هذا البيت بحيث تشكل أوتاراً ملائمة لعزف لحن السعادة بكل بساطة وبلاغة.

لم تكن هناك شوائب تعكر صفو الحياة إلا ما ندر فتسارع إلى تبديدها بأقوى مساحيق الغسيل التي تعيد لها بياضها وتجعلها دائمة الإشعاع.

آخ.. «من أعماقه» أنّ وهو مازال يرى العيون النابضة والتي تفيض حبّاً وإجلالاً وهي تنتظر دورها في العناق، لم تمهله الرؤيا مزيداً من الوقت. هكذا ببساطة سُرقت هذه البراءة الطاهرة من الحياة، مجموعة من البشر التي تبلغ ما بلغت في شذوذها وإجرامها تجيز لنفسها قنص أرواح البشر، وبأبشع الصور الممكنة، كمن يصرّ على قطف الثمر برميها بالحجر. آخ آخ، «أدرك الآن أنه لن يكون هناك بيت يعود إليه ليجد فيه هذين النورين.» ثم عاد لكلمات أبيه: لا تقلق، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ليجد فيها برد يقين تقتات منه معنوياته، وتصمد فيها روحه لتواصل المشوار..

وقبل أن يأتي ميعاد نوبته الصباحية اعتاد أن يأخذ جولة في المشفى. اليوم رآه بصورة لم يرها من قبل. حالات كثيرة جداً من الأطفال ولكل طفل قصّة ومأساة، حروق وجراح وتقطيع أطراف، وكان أسوأها تلك الحالات التي أصابتها قنابل ذروة الإجرام الفسفورية. رأى طفلاً والأطباء يحاولون وقف الحريق المنتشر على رقبته وجانبه الأيمن.

ويستغيث: بابا، بابا وحيث لا بابا ولا ماما. رأى أطفالاً نجوا من المحرقة «الهلوكوست» بينما حرقت كل العائلة. أصبح يرى مأساته بسيطة أمام مأساة غيره.. هو شاب بالغ عاقل قادر على تدبرّ أمره بينما هؤلاء الأطفال الناجون والمصابون بإصابات بالغة، كيف سيدبّرون أمرهم؟!

شرح له أحد الأطباء المصريين وهو خبير في ضحايا الحروب بأن هناك إصابات ناتجة عن أسلحة تستخدم للمرة الأولى في تاريخ البشرية. عدا عن الفسفورية بعضها إذا دخلت شظية من شظاياها داخل الجسم فإنها تقضي على الدورة الدموية وتسبب الوفاة.. وبعضها تعزل اللحم والدم عن الجسم سريعاً لتتركه هيكلاً عظمياً وهناك ما يتناثر منها أجزاء صغيرة على ارتفاع ٥٠ سم لتقطع أكبر قدر ممكن من الأطراف. وانتبه علاء في جولته إلى طفل قد حرق وجهه وفقئت عيناه. مراسل فضائية يسأله على الهواء مباشرة. يجيب بلسان طليق دون أن تعيقه الحروق والآلام والمصاب الجلل الذي أصابه وأصاب عائلته ما بين شهيد وجريح.

- اشرح لنا كيف أصبت؟

دون أن يتحرك شيء في جسده المسجّى، ودون أن ترى في ملامح وجهه أية حركة، ودون أن ترى بريق عينيه؛ لأنهما أغلقتا للأبد وتم إدخاله سجن الظلام المؤبّد. فقط لسانه تحرّك ودون شفتيه، ولكن الكلمات كانت بليغة ومذهلة.

- كنا في سبات غير عميق، تعوّدنا النوم رغم أنف الطائرات التي تعربد في سمائنا، ولكني في هذه الليلة أفقت مع كل عائلتي على أصوات أعلى بكثير من أي صوت سمعناه من قبل. أعلى من صوت الصواريخ حينما تتفجر. كانت السماء مضيئة وكان آخر مشهد هو مئات القنابل الحارقة التي ملأت السماء. ضرب منها بيتنا فشعرت بالنار وهي تستعر في عيني ووجهي. وكان الدخان كثيفاً والرائحة خانقة. ظننت أن كل شيء في الدنيا قد احترق وأن قنبلة نووية قد ألقيت علينا.

- هل كنتم تشعرون بأنكم تشكلون خطرا على الاحتلال؟

- أتعتقد ذلك!! لأني وإخوتي نشكل خطراً استراتيجياً عليهم كوننا الأوائل في صفوفنا!! كنا نؤمن بأن العلم خير وسيلة للانتصار على الاحتلال.

- والآن بعد فقدان بصرك كيف تنظر إلى الاحتلال؟

- أوّلاً أنا بصري وروحي المقاومة. سيبقى الحق أبلج كعين الشمس. يجب أن يزول الاحتلال من فلسطين إلى مزابل التاريخ.

- كيف ترى اعتداء الاحتلال على أطفال فلسطين بهذا الشكل البشع؟

- نحن في غزة نولد رجالاً. لقد قضى الاحتلال على طفولتنا منذ زمن بعيد، هذا الإجرام ضد الطفولة الفلسطينية هو دليل واضح على ضعف الاحتلال وقرب زواله بإذن الله.

- ماذا تقول للأمة العربية والإسلامية؟

- أن تدعم المقاومة، وشكرا لكم.

أعطت هذه الكلمات لعلاء روحاً معنوية بلغت عنان السماء. ما هذا التماسك وقوة الشخصية رغم بحر الآلام الذي يغرق فيه؟ ثم إنه لم ينسَ أن يقدّم شكره رغم أن العالم كله مدان لهذه الروح ببالغ الشكر. ما هذه التربية التي يُربى عليها أطفال فلسطين. كيف يدرك ساسة الإجرام أنهم يقتلون أناساً يفكرون ويشعرون ويتحلّون بأرفع الأخلاق.

وهكذا قفز الى رأسه ألف سؤال وسؤال خاصة وهو يجول في أقسام الأطفال، ويرى العشرات مثل هذا الطفل الذكي. يتلقون أسئلة الإعلاميين ويجيبون بكلمات تشعّ بروح الصمود والتحدّي والإباء.

كان جالساً في إحدى سيارات الإسعاف مع زملائه وهم على أهبة الاستعداد عندما رنّ خليوي علاء، تلك الرنة التي يصفو لها وجهه.

زملاؤه يخلون المكان، لأنهم يعرفون من يكون على الطرف المقابل عندما تشعّ عيونه بهاءً.

- حبيبة القلب.

- حبيبي أين أنت، حاولت الليلة الحديث معك، أين كنت؟

- غارق في الدماء. عشرات الأطفال والنساء وكل يوم. ألا تتابعين الأخبار؟!

- أتابع يا حبيبي ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟!

- بإمكاننا أن نفعل الكثير.

- يا روحي، الصراع مع اليهود طويل وهذه ليست أول جولة ولا آخر جولة. الآن العلم أولاً. جامعتك، ثم في الجولات القادمة سنكون معاً في خندق متقدّم بإذن الله.

- يا عزيزتي، لقد شرحت لكِ سابقاً. أنا لا أستطيع.

- لو أنك ترين الأطفال المصابين، إنهم رجال عظام في صبرهم وصمودهم وأقوالهم. هؤلاء بحاجة إلى أمثالي. تأكدي تماماً: لن أتخلّى عنهم.

صعّدت قليلاً من نبرتها وقالت.

- أنا لا أقول لك تخلّ عنهم. سنعود إليهم.

وصعّد بدوره.

- يا بنت الحلال. اسمعي مني قولاً فصلاً، أنا مازلت في فعل الهوامش.

أنا لم أفعل بعدما يتناسب مع قاتل أبي. كيف تفكرين؟ هم يوظفون احتياطهم في إجرامهم فهل يهرب احتياط مقاومينا؟ مع فوارق التسليح الهائلة ومع أنهم على الباطل ونحن على الحق.

- عندما تتخرج وتكون طبيباً مختصّاً ستكون أعظم نفعاً لهم.

- والآن؟! واجب الوقت الآن؟! هل هو الهروب منه؟!

- لست من الفرّار، ولكن من الكرّار بإذن الله.

- هذا جيد ولكن بعد استنفاد كل ما بوسعي. مازال بوسعي الكثير يا حبيبتي. أنا أبحث عما هو أعظم.

- ألا يكفيك ما تقوم به. كل يوم تعرّض نفسك للخطر عشرات المرّات.

- أنا غير راضٍ عما أقوم به. فعل في الهوامش. أفكّر في الانتقال من الهامش إلى دائرة صناعة الحدث. دماء أبي وأمي وعائلتي الصغيرة والكبيرة في رقبتي يا سيدتي.

- أراك تبحث عن الموت. أنت لا تفكّر في حبيبتك. ماذا سيجري لها بعدك «لا سمح الله».

- لا تقلقي أنا أسير على قاعدة: اطلب الموت توهب لك الحياة.

- أسأل الله لك الحياة يا حبيبي. «خلي بالك». أنت تحمل بين جنبيك روحين، روحي وروحك في كيان واحد فلا تعرِّضهما للمهالك.

- قال علاء في نفسه: «سبحان الله كل ما يهمّها أن أعود إليها سالماً. تدفع كلامها بهذا الاتجاه دون أن ترى شلالات الدماء التي تتدفق لتحقيق

كرامة أمّته ورفعها من مستنقعات الهزيمة والهوان. الشجرة الباسقة التي يستظل بها كل كريم حرّ في هذه الأمة عرضة لخطر الاجتثاث بينما يحلو للبعض أن يغرس عوداً جافاً ويحاول جاهداً الاستظلال بظله حيث لا ظل له إلا عتمة الليل البهيم. تريد لي أن أسلَمَ لها لنعيش حياتنا الصغيرة، نأكل ونشرب وننام بينما حياة الأمة الكبيرة تطعن من الخلف، ويراد لها أن تتضرّج بالهوان والمذلة. ماذا لو هُزمت المقاومة في الأمة ورفعت دول الذل والعار عقيرتها مدّعية الحكمة والتعقّل والاعتدال لتقول: ألم أقل لكم؟! هي نفس كلمات الموتورين في إيمانهم وكرامتهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾.

قاطعها وهي مازالت تنظّر للجبن والهزيمة والفرار من أمام جحافل الباطل.

- يا عزيزتي. أنت عمق فؤادي. أنت الروح التي تسري في روحي. أنت نور حياتي وبلسم جراحي. ألا ترين بعيونك الجميلة هذه الأمة الرائعة التي استجابت لنداء دماء أطفال غزة. الملايين خرجت للشوارع تعرب عن استعدادها للتضحية بكل شيء. في تركيا المظاهرات لا تتوقف، في المغرب، في الأردن، العراق، إيران، وفي مصر عندكم. انظري نبض الشارع. تحول الناس إلى قلب واحد ينبض مع نبضات أطفال غزة الذين يئنون دماً في غرف عمليات المشافي هنا.

- يا روحي، سأكون صريحة معك للغاية. أنت غارق في كلام العواطف.

للسياسة أقوال أخرى. هل تصل نبضات الشارع العربي إلى المستوى السياسي أو إلى العقل الذي يصنع القرار، وبالتالي يشكل ضاغطاً حقيقياً على الاحتلال وأمريكا التي تدعمه بلا حدود. أنا أرى أن الحكومات في وادٍ وشعوبها في وادٍ آخر. لا أثر لكل هذه المظاهرات على صنّاع القرارات.

- هذا كلام غير صحيح يا روحي.

- لك أن تحكم كما شئت. نتائج المعركة ستكشف عن وجه الحقائق.

- بإذن الله ستكشف عن كل الوجوه وقد بدأت تتكشف، ألا ترين حالة انسجام الحكومة التركية مع حركة الشارع عندهم، الدولة برئيسها ورئيس وزرائها «رجب طيب أردوغان» تنحاز لدماء غزة وتنتقد العدوان الصهيوني وتتخذ المواقف السياسية الصحيحة. وحتى إن رئيس فنزويلا قام بطرد السفير الإسرائيلي ووزير خارجيته، وقال بأن ما يفعله الإسرائيليون أشد مما فعل بهم بالهولوكوست.

- هناك مواقف تسير مع نبض شعوبها، وهناك من يسير مع نبض العصا الأمريكية وابتسامة الجزرة الأوروبية الخبيثة.

- وكأنك بهذا تقصدني. «وتابعت بشيء من العصبية»، أنا لست مع الكلام الإنشائي الذي لا علاقة له بالمعادلات السياسية. أتنكر وجود العصا الأمريكية، بل والهيمنة الكاملة على المنطقة. هناك خلل استراتيجي أنتم العاطفيون لا ترونه. ترون مبادئكم فقط ولا ترون الواقع الذي لا علاقة له بما تحملون من مبادئ في عقولكم. ما على مسرح الواقع يختلف عما هو

على مسرح أفكاركم النظرية.

- أنا صحيح عاطفي. وكل عواطفي أسكنها قلبك الكبير منذ زمن بعيد. ومع هذا أقول لك ووفق المعادلات السياسية إن بأيدي هذه الأنظمة إمكانيات وأوراق ضاغطة لو حرّكتها بشكل صحيح لحصدت أفضل النتائج ولساعدت المقاومة في غزة على تحقيق أعظم انتصار.

- لا أدري يا حبيبي من أين تأتي بهذا الكلام النظري. ألديكم وقت في هذه الحرب لمثل هذه الأحلام؟! أحضر لي مثالاً واقعياً على صحة ما تقول.

- يا سلام عليك. انظري إلى موقف الحكومة السورية مع المقاومة في لبنان. سوريا فتحت حدودها وشكلت عمقاً أمنياً لحزب الله، مما ساهم في الإعداد للمعركة وتمرير التجهيزات العسكرية اللازمة لها. هذا أدّى إلى نصر حاسم في تموز ٢٠٠٦. وكان نصراً للأمة كلها وتمريغاً لأنف الجيش الذي لا يقهر وأصبح الجيش الذي يسهل قهره عندما يواجه المقاومة التي لا تقهر بإذن الله..

- تريد من مصر أن تقف مع المقاومة في غزة الموقف السوري للمقاومة في لبنان؟!

- على الأقل أن لا تكون أقرب إلى الموقف الإسرائيلي.

- أنت الآن تعتدي على مصر، وكأنك لم تشرب من نهر النيل.

- أنا شربت وارتويت من النيل، ولكن عَلِيَّة القوم عندكم يشربون هذه الأيام من نهر الجنون. ما يجري يا عزيزتي هو طعنة نجلاء في ظهر

المقاومة. هكذا سيكتب التاريخ عن هذا الموقف المجنون.

- هكذا تريد تعليق الهزيمة على طرف خارجي.

- نحن لن نُهزم بإذن الله. سننتصر وستشاركوننا في احتفالات النصر بإذن الله. ثم هل الذين يفصل بيننا وبينهم معبر رفح هم طرف خارجي. تلك إذن طامة كبرى.

- حبيبي، قبل الوداع أريد منك شيئاً واحداً. أريدك سالماً.

- سؤال أخير حبيبتي. هل الأطباء الأبطال العرب والمصريون الذين اجتازوا الحدود عبر الأنفاق لنجدة إخوانهم الفلسطينيين فكروا ولو لحظة واحدة بسلامة رؤوسهم. لا يا حبيبتي وروح قلبي. من يكون حراً كريماً لا يفكر إلا في المحافظة على رأس حريته وكرامته مرفوعاً شامخاً ولو أدّى ذلك للإطاحة برأس جسده، إذا تعرض للمذلة والمهانة.

- كلماتك تجند عواطفي معك ولكن عقلي يأبى. أخشى على عقلي أن يذعن لعواطفي. والسياسة تُبنى على العقل لا على العاطفة.

- وهذا دفعك كي تدعيني للمجازفة بروحي مُدْبراً، بينما المتطوّعون يجازفون بأرواحهم مقبلين غير مدبرين. يا للمفارقة العجيبة لو أني أطعت عقلك السياسي. عودي يا حبيبتي إلى نداء الروح والفؤاد. عودي إلى نبضك الحقيقي ستجدين العقل هناك متحداً مع العاطفة وبعيداً عن كل هذه المعادلات السياسية التي لا تركب لا على عقل ولا على عاطفة.

تعالت الأصوات وانطلقت صفّارات سيارات الإسعاف معلنة بذلك عن

ضحايا جدد. جاء طاقم السيارة وتحرّكت بكل عنفوانها..

- وداعاً حبيبتي. هناك غارات جديدة.

- وداعاً. لا تنس يا علاء. أريدك سالماً.

عاد علاء إلى نفسه وهو يقول لها: كم بتّ أكره هذه العبارة. أريدك سالماً. هل المهم هو سلامتي، بالنسبة لها صحيح ولكن ماذا بالنسبة للوطن والدين والعرض والجرحى والثكالى والمنكوبين ودماء أبي و..؟!

اليوم الرابع عشر في هذه الحرب، قرر علاء قراراً جازماً بأن يكون هذا اليوم الأخير في عمله كمسعف. عقد العزم على أن لا يؤخر تنفيذ ما نوى على فعله يوما آخر. أصبحت الخطة جاهزة وناضجة ولا تحتمل أي تأخير. الفعل الذي خطط له يتناسب مع حجم الإجرام مع الأخذ بعين الاعتبار ضيق الإمكانيات.

كان يردّد في نفسه طيلة أيام الحرب ومع علوّ الصوت بعد الشهادة الجماعية التي حظيت بها عائلته: «يا حيف على الرجال الذين لا ينتقمون لدمائهم».. تبّاً لمن لا يثأر لدم أبيه، فيما مضى كنت أفكّر على راحتي بالانتصار طويل المدى أما اليوم فالانتقام أولاً، لن تذهب هذه الدماء العزيزة هدراً. هم يريدون الردع فليكن الرّدع المتبادل. توازن الرّدع يا أعداء البشرية.

عندما كان في عملية إنقاذ في منزل على الأطراف الشمالية لمنطقة تل الهوى رسم الخطة.

بداية عملية الإنقاذ: وصلت سيارتا الإسعاف عنوان البلاغ. المكان لا يحتاج إلى ما يدل عليه، منزل يحترق وتظلله طبقات من الدخان الأبيض. الطيران يزمجر بكل أنواعه في سماء المنطقة، الرائحة بشعة وكأن جيفاً كثيرة قد فتحت روائحها دفعة واحدة. وكان هناك قصف دبابات قريب يدل على أن هناك معركة يدور رحاها قريباً.

ومع الاقتراب اتضح صوت امرأة تشقّ طريقها بعنف وألم مستميت، كانت تزحف خارج المنزل المحترق. تلهث وتصرخ. قدمها تحترق دون نار وكأن حريقها يأتي من أعماقها. ما إن حاول رجال الإسعاف حملها حتى أشارت داخل البيت: ما هناك؟ صرخت: أبنائي يحترقون. غامر علاء مع مسعف آخر واقتحما عمق الكثافة الفسفورية، بينما حمل آخران المرأة إلى سيارة الإسعاف. ويا لهول ما صدم عيونهما. الدخان الكثيف يرتفع ببطء شديد ويكشف عن الوجه المنحط للجيش الإسرائيلي. خمسة هياكل عظمية متفحمة. كانت بشراً سوياً تحوّلها هذه القنابل التي يصعب وصفها إلى هياكل كأنها كانت مدفونة منذ عشرات السنين إضافة إلى حرقها كي تظهر لوحة فنية لمأساة بشرية فريدة من نوعها. ومع مطاردة الروائح القاتلة كان لابد من مغادرة المكان بأسرع ما يمكن إضافة إلى ما قد يتعرّض إليه المسعفون من هذه الأبخرة أو من قصف مفاجئ يتوقعونه في كل لحظة. حملوا الهياكل في السيارة الثانية مع كل ما تحمل من قهر وأحقاد وروائح.. وكان الغضب يمور موراً في صدر علاء.. يستذكر مع

كل ضحية أمّه وأباه وأختيه. يراهم في هذه الوجوه التي أذابتها عملية «الرصاص المسكوب». هكذا سمّوا جريمتهم. على رؤوس هؤلاء يسكب الرصاص والفسفور وكل المعادن القاتلة التي جُبلت بأحقادهم. في المشفى روت الأم قصتها بعد أن تلقت بعض المسكنات لآلامها وبعد أن تمكن الأطباء من وقف انتشار الحريق في ساقها كانت تتكلم دون وعي كامل لما جرى معها.

• كانوا وهم يحترقون يستغيثون بي. «النار يمّه، النار يمّه،» لم أستطع الوصول إليهم كل شيء حولي يحترق. صدري لم يعد يتنفس. لم أعد أرى أي شيء، الدخان والنار والألم كل شيء يطاردني، التمست باب البيت ولو لم أخرج لاحترقت مثلهم». ثم تمزق شعر رأسها وتلطم وجهها وهي تقول لنفسها: «لماذا لم أحترق معهم، كيف تركتهم يحترقون وخرجت؟» يا الله. رحمتك يا رب.

أما الخطة التي رسمها قرب هذا البيت على أطراف حي تل الهوى فقد أسرّها في نفسه ريثما يلتقي المجاهدين.

ومع قدوم ليلة الخامس عشر من حرب «الهولوكوست» النازيّة غادر المشفى مع مجاهد تماثل للشفاء، وقرر المغادرة والعودة إلى خندق

المقاومة. علاء الذي تصادق مع هذا المجاهد طيلة مدة العلاج عدّه بوابته لدخول ميدان الجهاد. وثق به هذا المجاهد الذي ادّعى في المشفى بأن اسمه عبد العزيز سعادة، واتفق مع علاء على أن يفتح له الطريق نحو المقاومة. ولم تكن الثقة سهلة خاصة في ظروف هذه الحرب بالغة الحساسية الأمنية إذ أن المجاهدين عانوا ومازالوا يعانون من العناصر العاملة لصالح المخابرات الإسرائيلية. عملاء يقظون، يقدّمون للعدو معلومات تساعد في القصف وتحديد مواقع المجاهدين. هذا الطابور كان الأخطر في هذه الحرب لذلك كان الحذر شديداً.

كان السير في الليل يعني أنك عرضة للاستهداف وكانت مجسّات الاستشعار لكل حي يتحرك حساسة وقوية فوق سماء غزة. طائرات الاستطلاع ترصد كل صغيرة وكبيرة والتنسيق على أرفع مستوى بينها وبين الطائرات المروحية والدبابات وبوارج البحر فوق الأرض علاء وعبد العزيز تسللا من عمارة إلى عمارة ومن بيت إلى آخر بحذر شديد والتصاق دائم بالجدران وأسوار المنازل. وكان هدير الدبابات يعلو ويرتفع بينما طائرات «الأباتشي»تلفظ سمومها الخارقة دون توقف. وكانت أصوات القذائف الكبيرة تحدث دوياً ترتعد له القلوب والأجساد.

توقف عبد العزيز، أخرج من جيبه خرقة وقال:

- الآن يا صديقي علي أن أغمي عينيك. سندخل نفقاً بعد قليل.

سأل علاء مستغرباً:

- ألا تثق بي؟!

- كل الثقة ولكن من قواعدنا الأمنية أن الثقة لا تلغي الحذر. «أذعن علاء لهذه القاعدة». فجأة أصبح في ظلام دامس لا يرى شيئاً، بينما قاده عبد العزيز عشرات الأمتار ثم قال له. سننزل سوياً في النفق. شعر علاء وهو يهبط سلم النفق بأنه أصبح في عالم آخر. عالم المقاومة. هو تحت الأرض ويهبط إليه درجات ولكن شعوره الداخلي يرتفع درجات، يشعر بأن ساعة الانتقام قد اقتربت وبأنه يستجيب لنداء حبيبة قلبه: «أريدك سالماً»، السلامة من العالم المزيّف، عالم الظلم والطغيان أو عالم الخنوع والسكوت على ظلم الظالمين. يجب أن أسلم من كل الآثام، من كل أثار وأغلال حياة الذلة والكرامة المسوخة. ساروا في نفق طويل بعد أن نزع عن عيني علاء غشاوتهما إذ أن الهدف من إغلاقهما كان التغطية على مدخل النفق أما بعد الابتعاد عنه والإمعان في مدينة ما بَطُنَ من غزة فلا مانع.

تسير على ضوء كشاف يدوي. تبتعد عنك الأصوات الهادرة في أجواء غزة. صمت مريع يضخ في الأعماق رهبة صاخبة.. يعلو وجيب القلب وأنت تتوقع انفجاراً أو انهياراً للنفق فوق رأسك. تتخيل الموت تحت الأنقاض أو أن تدفن حيّاً إذا انقطعت بك السبل وضرب النفق من أمامك وخلفك. تربّع النفق فوجدّت نفسي في غرف عمليات.. مجموعة عسكرية وأمامهم خرائط على أرضية هذه الغرفة الترابية. أسلحة ومعدّات معلقة على الجدران الخشبية التي سوّرت هذه الغرف. رحّبوا بعلاء فجلس بينهم.

عانقوا عبد العزيز عناقاً حاراً دلّ على عظمة الرابط الأخوي بينهم. عرّفهم بعلاء على أن اسمه هو «نارٌ في الهشيم»، قال لهم إنه يملك خطّة لعملية نوعيّة في موقع مميّز. ثم شرع علاء في عرض خطّته:

هناك بيت جميل عبارة عن «فيلا صغيرة» في موقع مرتفع يحيط به بستان فيه ما لذّ وطاب من أشجار الفاكهة. يقع في منطقة المواجهة على حدود تل الهوى الشمالية. قريباً سيصل إليه الجيش الإسرائيلي. سيغري الضباط والجنود لاتخاذه موقعاً يلتقطون فيه أنفاسهم. منظره يقول لهم: هيْتَ لَك. لن يتركوه دون دخوله، إن مجرد مظهره الخارجي الجميل كالطّعم للفئران الضالة. الخطة تقوم على أن تزوّدوني بمتفجرات كي أزرعها في أركان البيت حتى إذا دخلوه قمت بتفجيره من حيث الموقع الذي سأكمن فيه في زاوية من زوايا البيت.

– ولكنهم يقصفون البيوت قبل دخولها.«سياسة الأرض المحروقة».

- هذا البيت بالذات لن يخطر ببالهم أنّ له علاقة بالمقاومة أو أن يكون أحد أدواتها. ثم لنفترض أن نسبة قصفه ٥٠٪ تبقى هناك ٥٠٪ مع عون الله تعالى سننجح في قتل عدد لا بأس به..

- وهل عملياتنا تراهن على ٥٠٪ فقط؟!

- عندي إحساس بأن ظني لن يخيب، كذلك حجم الإصابة المُغري في صفوفهم يدفعنا للمغامرة. وهل هناك عمل فدائي دون نسبة للمغامرة؟

- حسناً وماذا عن سكان البيت؟.

- هجروه منذ فترة.

- وهل يسمحون لنا بتفجيره. إنها «فيلا» يا رجل، قد تكون تحويشة العمر.

- أعرف صاحبه، إنه دكتور في مستشفى الشفاء. وقد احتطت للأمر. سألته مرة: ماذا لو فجرت المقاومة بيتك في جنود الاحتلال. فأجاب: هذا شرف عظيم لي ولبيتي. هم يدفعون أرواحهم ألا ندفع أموالنا؟!

- حسناً. هناك أمران: أولاً، سنبعث غيرك للتنفيذ.

- لماذا؟! أنا مشتاق جداً للقاء ربي.

- ألا تريد أن تُبقي أثراً لعائلتك في هذه الدنيا.

- بل لابد من الانتقام لهم.

- ولكننا نقاتل لننتصر لا لننتقم.

- ولماذا لا يكون الأمران معاً. ننتقم وننتصر.

- ولكن الهدف الاستراتيجي لنا هو الانتصار، ولذلك فإننا نحتاج إلى العقول المبدعة من أمثالك للتخطيط والمشاركة في الرأي والمشورة.

وتابع عبد العزيز: وفي الطب والإسعاف والعلاج.

- أنا قررت الانتقال من الإسعاف إلى المقاومة.

- ومن يُسعف الجرحى من المقاومين هنا تحت الأرض.

صمت علاء حائراً في نفسه. هرب من الإسعاف فوق الأرض ليجده بانتظاره هنا تحت الأرض. ثم سأل أميرهم:

لنتدارس خارطة الأنفاق. ما هو أقرب نفق إلى هذا البيت؟!

- كان همّي كبيراً في عملية نقل المتفجرات إلى ذاك المكان. لا تقلق فالأنفاق توصل إلى نقطة قريبة من البيت. يبقى عشرات الأمتار نسيرها براً بينما كل الطرق سنسيرها تحت الأرض. ستشارك في العملية في خدمات تحت الأرض بينما هناك مغاوير مع خبير متفجرات سيتولّون أمر تدشين البيت، ولن نحتاج إلى استشهادي يبقى داخل البيت وإنما سنفجره عن بُعد وسنعمد على إطلاق النار عليهم من بيت قريب حتى يندفعوا للسيطرة على الفيلا وعندئذ ستنشق الأرض وتبلعهم بإذن الله.

وبدأ العمل على قدم وساق. تحرك المجاهدون كخلية نحل ما بين فنّي وعامل ومشرف. سبع ساعات فصلت بين الخطة وبين تنفيذها. أصبح البيت جاهزاً وفيه أطيب ما تلذ به أنفس المقاومين.

كان علاء في فترة العمل في حالة ابتهال خاشع ملتهب، يدعو ربه بكل ما يملك من مشاعر الرجاء والأمل والحب، يستسقي النجاح في هذه العملية ويستحضر صورة عائلته وسقف البيت يهوي على رؤوسهم «يا رب يا منتقم، اشف صدري وصدور قومٍ مؤمنين، انتقم لنا شر انتقام انتقمته من أعدائك. انتصر لنا انتصارك لأحبابك على أعدائك». يرى علاء قلبه منتشياً، منتعشاً بالعز والفخار. كم كان بداية عمله كمسعف يشعر بهذا الشعور ولكنه الآن يفوقه درجات ودرجات، لم يتصور قبل اليوم أن العمل الجهادي ممتع لهذه الدرجة.. كان يتصوره شاقاً، متعباً، مصبوغاً

بالدم والألم. إنه الآن يتحرك في لوحة فنّية صاغتها أيد مخلصة، مبدعة، كأنها متوضئة من أنهار الجنة.

في مساء اليوم السادس عشر تقدمت دباباتهم مع تغطية جوية مخيفة، كانوا يقصفون كل شيء أمامهم، وكانت المقاومة ترد على نيرانهم الكثيفة بما لديها من قذائف صاروخية، وكانت هناك عبوات متفجرة تنفجر في الطرقات لتعيق تقدم جحافل الموت المدمرة التي كانت تتحرك على عدة محاور في وقت واحد.

كانت الدبابات على عادتها في الأيام السابقة تتوغل مئات الأمتار، ثم ما تلبث وأن تنكفئ وتعود أدراجها أمام نيران المقاومة. كانوا حريصين كل الحرص على تقليل الخسائر البشرية. لا ينزلون من دباباتهم، لا يطمئنون على الأرض التي يقفون عليها إلا بعد حرثها بصواريخ الطائرات، وكانوا لا يبقون في المواقع التي يحتلونها، سرعان ما يُغيّرون مواقعهم حتى لا تُرصد وتصبح هدفاً واضحاً للمقاومة.

تجاوزا الفيلا. عادت دبابة للخلف وألصقت بابها الخلفي ببوابة الفيلا. فتحت بابها ونزل منها مجموعة ضباط وجنود، خلعوا الباب كعادتهم في اقتحام البيوت، مشط مهندسو الوحدة البيت للتحقق من خلوّه من المتفجرات، وكانت هذه تؤخذ بالاعتبار من باب الاحتياط ومن العِبَر التي أخذوها من تجارب سابقة.

اطمأنوا للبيت، راحوا للمطبخ وأخذوا يأكلون ما في الثلاجة ويشربون

ويعربدون. كسروا صوراً معلقة، رموا بأعقاب سجائرهم في كل مكان. وكأن كبيرهم قد أصابته نشوة أن يجد هذا البيت المريح وسط معمعان المعركة. أخبر قائد دبابة أخرى ودعاه إلى هذه الوليمة. حضر ومعه مجموعة ثانية وكانت العين التي ستعطي الإشارة تَعُدّ العناصر التي تدخل البيت وينتهكون حرمته وكأنه منتجع بحري جاءوا إليه في رحلة ترفيهية، يضحكون ويمرحون ويصورون أنفسهم صوراً تذكارية.

اكتمل النصاب، أُعطيت الإشارة فضغط علاء على زر التفجير. انقلب البيت بهم وأضحوا بين قتيل وجريح، يتضرّجون بدمائهم ويستغيثون بأمهاتهم. كان التفجير هائلاً. تجاوز صوته كل الأصوات، وعلت أتربة الجدران لتصبح تراباً منثوراً في أعالي السماء. وكانت صدمة صاعقة لقادة الجيش الإسرائيلي، أصبحوا يرون كل بيت من بيوت غزة قائما على برميل من البارود، وكل شارع محفوفاً بالعبوات الناسفة وكل زقاق عبارة عن قبر مفتوح لكل من يحاول أن يطأ بقدمه من الغزاة.

كان علاء مع عبد العزيز أمير المجموعة على سطح عمارة عالية يرقب سير العملية. وبعد هذا التوفيق الرباني كان علاء يتوقع الانسحاب والعودة إلى القواعد. الهبوط مسرعين أسفل العمارة ثم النزول إلى عالم الأنفاق من فتحة سرية، حيث تأخذ بيدهم عبر طرق سرية لا يراهم فيها الطيران إلى حيث يريدون. ولكن أمير المجموعة هتف:

- هذه بداية المعركة، عمليتك هذه يا علاء صافرة البداية. ستبدأ الآن

عملية إنقاذ الجنود من قبل جيش الإجرام. رجال المقاومة الآن منتشرون حول فريستهم وجاهزون للقنص، لن ندعهم ينقذون ضحاياهم بسلام. ألا يفعلون هذا بنا؟ كم مرة فعلوها وكم مرة شاهدتَهم وهم يحرمون الضحايا الأطفال من حقهم في الإسعاف والعلاج. الآن سنريهم نجوم الظهر قبل أن يتمكنوا من إنقاذ ضحاياهم. كانوا يتمتعون برؤية أشلاء شهدائنا فليبكوا دماً الآن على رؤية جثث قتلاهم. جهّز الأمير موقعه وهو يشرِّع قناصة باتجاه الأهداف المتوقّعة، وكذلك عبد العزيز، ففعل علاء مثل فعلهم وأخذ ينتظر.

أقل من سبع دقائق، وصلت جحافل الإنقاذ محاطة برتل من الدبابات، وثلاث طائرات عمودية تغطي عدة سيارات إسعاف عسكرية. ومع نزول منقذيهم الأرض بدأ إطلاق النار من كل صوب وحدب. وجهت الدبابات خراطيمها حيث تظن مصدر النيران فبدأت تقصف دون هوادة. المقاومون يتصيدون الجيش الذي جاء ليرفع الأنقاض وينقذ جنوده بينما دباباتهم وطائراتهم تتصيّد البيوت الوادعة وتضرب بكل قوة. هذه البيوت التي اعتاد الاحتلال في السابق أن يدخلها وينتهك حرماتها بكل وقاحة. يذكر علاء كيف كان يعتقل أبوه في الثمانينات حيث كان طفلاً. مازالت الصورة شاخصة على شاشة ذاكرته. يكسرون الباب بعد أن يشبعوه ضرباً بأعقاب بنادقهم ثم يقلبون محتويات البيت رأساً على عقب، يصادرون ما يحلو لهم من كتب، كراسات، صور، أشرطة. ويذكر

علاء يوم صادروا «ألبوم صور» لا يحتوي إلا على صورة طفولته. حينها كان يتساءل بعقله البريء: ماذا يستفيدون من هذه الصور وكان لا يعرف أنها تستخدم للضغط العاطفي على أبيه في أقبية التحقيق السوداء.

كان المقاومون يغيرون مواقعهم باستمرار؛ لأن طائرة الاستطلاع تحدد مواقع إطلاق النار فترسلها إلى الطائرات المروحية المحلّقة في سماء المعركة، فتأتي هذه لتدكها بقذائفها وصواريخها.

نجح المقاومون في قتل وجرح عشرات الجنود أثناء عملية الإنقاذ التي وصفها راديو الجيش الإسرائيلي بأنها كانت في غاية التعقيد.

للمرّة الأولى يشعر علاء بهذا العمق الذي لا يدع شاردة ولا واردة من مشاعر قلبه إلا وتبصر بأن الله مع المجاهدين. كان من قبل خاصة عندما يدخل دوائر الخطر أيام عمله في الإسعاف يشعر بأن الله معهم، ولكنه ليس بهذا العمق الذي هو به الآن في هذه المعركة. كانت حالة الاختلال الكبير في عدم تكافؤ الإمكانات تتطلب هذا الشعور. وهو بالمناسبة لم يكن شعوراً فحسب وإنما هو فعل حقيقي على أرض الواقع. إذ كيف تدار المعركة بهذه الأسلحة الخفيفة أمام كل جحافل الجو والبر هذه؟! ما هذه السكينة التي تتحلّى بها قلوب المجاهدين. أمام الهلع الذي كان يراه في تحركات جنودهم وسرعة هروبهم واحتمائهم في جوف دباباتهم المحصنة. كان يرى قذائف الرعب تتحرك على الأرض على شكل جندي يُسمى الجندي الإسرائيلي أو جنود النخبة في الجيش الإسرائيلي.

كان علاء يشعر أن بداخله عرساً تعزف فيه كل الألحان الجميلة، حقق الانتقام وشفى صدره الذي كان قد امتلأ غضباً وناراً خاصة بعد استشهاد عائلته، والآن انتقل إلى عملية تحقيق الانتصار، يرى بأم عينه كيف تقهر المقاومة الجيش الذي لا يقهر. كيف تعجز طائراتهم العملاقة وكل ما لديهم من تكنولوجيا الإجرام أن تنال من عزيمة المجاهدين.

رأى كيف تنتصر الإرادة الحرة على الإرادة المجرمة. ورأى بما لا شك فيه كيف ومتى يكون الله مع المؤمنين؟ كيف تتحقق المعادلة بما لا لبس فيه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ها هي الأقدام ثابتة والنصر يتحقق مع الفارق المذهل في الإمكانيات.

استمرت عملية إنقاذ الجيش الإسرائيلي لمجرميه تحت الأنقاض ثلاثة أيام بلياليها. كانت أياماً طويلة جداً على هذا الجيش وكانت خسارته كبيرة. تسرّب من أخبارهم بأنهم شكلوا لجنة لاستخلاص العبر (على عادتهم) من هذه المعركة كان نتيجتها أن عليهم أن يفترضوا أن كل بيت في غزة كهذا البيت، عليهم أن يفكروا ألف مرة قبل الدخول إلى بيوت غزة. (إذن وصلت الرسالة وتلقنوا الدرس). قذف الله في قلوب قادتهم الرعب، فماذا في قلوب الجنود؟! الآن يفترضون أن بيوت غزة يحوي كل منها نفقاً وأن بإمكان المقاومة تفجيرها على رأس من يدخلها بكل بساطة.

هذا الرعب حوّلهم إلى وحوش قد فقدت كل خصائص البشر، ولم

تكن وحوشاً بكامل قواها الغرائزية وإنما كانت كسيحة، مضروبة في عمق عصبها تتمنى الهروب والفرار في أقرب فرصة ممكنة. وغيرها من المعارك الشبيهة على أطراف غزة.

أحدثت هذه المعركة – وغيرها من المعارك الشبيهة على أطراف غزة – زلزالاً معنوياً في صفوفهم. قرر قادتهم في أعماقهم بأن دخول عمق غزة أمر مستحيل، وستكون الخسائر البشرية هائلة ولن يطيب لهم المقام. فلم الدخول إذن؟! أصبح شبح الدخول إلى هذه الامبراطورية العظيمة مهيمناً على أرواحهم. وكانت عملية تفجير الفيلا الجميلة وما تبعها من مواجهات ساخنة عنواناً لأي تفكير يدفع باتجاه توسيع عمليتهم البرية في عمق غزة. كان المقاومون يسمونها عملية «النار في الهشيم» على الاسم الحركي لعلاء. وكان الإسرائيليون يضحكون على شعبهم ويقولون عنها إنها بداية المرحلة البرية الثالثة. يلوّحون بهذه المرحلة للترويع والحرب النفسية بينما هم في الواقع دفعوا بكل قواهم البرية والجوية والبحرية لتنفيذ هذه المرحلة، ولما فشلوا وانكفأوا أمام ضربات المقاومة الباسلة أصبحت للتهديد فقط.

وكان من توصيات الجيش أن لا يدخلوا العمق السكاني لامبراطورية المقاومة العظيمة. يعجز الجيش الإسرائيلي بكامل قوته (حسب اعتراف رئيس حكومتهم) عن اقتحام الامبراطورية التي مساحتها: (٣٦٠ كم مربع) بينما في حرب سنة ١٩٦٧ يحتلون الجولان وسيناء والضفة الغربية

والقدس في ستة أيام وكانت هذه الدول المنهزمة تمتلك طائرات ودبابات وجيوشاً بينما المقاومة اليوم لا تمتلك سوى الأسلحة الخفيفة والإرادة المؤمنة القوية. وتدور الأفكار في عقل علاء: هي ذات الدول اليوم التي تعلن الهزيمة قبل بدء المعركة. ليتها تسكت وتلتزم الحياد والصمت كما طلب منها الأمين العام لحزب الله عند بداية حرب تموز ٢٠٠٦م.. انتصرت المقاومة حينها بينما حكومات الهزيمة هذه تدّعي العقلانية السياسية وتحذّر المقاومة من المغامرة. اليوم سيُسجّل التاريخ الأسود لهذه الدول أنها أحكمت الإغلاق على المقاومة وحاولت جهدها أن تمنع رئة المقاومة من الأوكسجين. ساعدت الاحتلال في إحكام الحصار على غزة. أغلقت معبر رفح ودمّرت كثيراً من الأنفاق التي كانت تهرّب الوقود والغذاء وحليب الأطفال.

تغيرت نفسية علاء مئة وثمانين درجة.. انتابته مشاعر سعادة حقيقية وهو تحت الأرض في أنفاق المقاومة، شعر بأنه أصبح عنصراً من العناصر التي تصنع النصر. يا الله!!. هو الآن من مكوّنات النصر والعزّة لهذه الأمة. يتصوّر نفسه وقد خلع عن روحه وفؤاده كل ألبسة الذل والهوان. نزع عن عقله وجسده لباس الهزيمة، هذا اللباس الذي شعر الآن كم كان

ثقيلاً، كم كان قاسياً ونتناً ومقرفاً؟ كم كان موغلاً في وحل الارتكاس في أسفل سافلين؟ كم كان ماسخاً لحقائق الإنسان الجميلة؟ كم كان شبيهاً بجلد حمار وظهر بغل ورأس نعامة حينما تدفنه في الوحل إن صحّت الروايات. وإذا أردت أن تجمل كل هذا فقل: كم هو شبيه بوجه زعيم عربي لأكبر دولة عربية أو نفطية.

أصبح للحياة عند علاء طعم آخر، دخل عالماً جديداً، عالم صنّاع النصر، وأي نصر؟! عندما تصنع جهة قوية على أخرى ضعيفة أو قوية نصراً فهذا شيء رائع وعظيم، ولكن ماذا عن جهة ضعيفة تصنع نصراً على جهة قوية وقوتها تبلغ أضعافاً مضاعفة؟! هي تماماً الفئة القليلة عندما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله. مُنح «إذن الله» لمجاهدي غزة في هذه الحرب الظالمة. لبسوا هذا الوسام وعلت هامتهم بإكليل النصر.

وكان علاء وهو يمشي في أنفاق العزة يقارن مشاعر الذل والهوان حينما كانت تجتاحه وهو ينتظر على معبر رفح لأيام طويلة ثم يعود أدراجه خائباً حسيراً يتجرع الظلم بكل ألمه ومرارته. بين هذا الدمار الشامل لروح الإنسان وبين هذا الشموخ الذي ينعش الوجدان من الأعماق، صحيح أنه الآن يمشي تحت الأرض ولكنه يسير بكل خطوة نحو المجد، نحو حرية وكرامة شعبه. هناك من يتربعون في قصورهم ولكنهم غارقون في عبودية غير متناهية لأعداء شعوبهم وكل طواغيت الأرض. كرامة الإنسان فعلاً في حريته، في أن يملك السيادة على نفسه دون أن

يغتصبها منه أحد الذئاب الضالة أو الوحوش الكاسرة.

هو الآن يرى نفسه بأنه في أنفاق تحت الأرض. تطأها قدماه ويستنشق برئتيه هواءها الغليظ ولكنه يرى بها الطريقة التي يعصر بها أعاصيرهم ويحيلها إلى رماد يذروه في صدورهم. إنه بذلك القادر على جعل مكرهم في نحورهم، يغيظهم ويحبط كل أشكال إجرامهم وألـوان أباطيلهم الحالكة.

وكان للراحة موعد حيث غادر رفاقه، الأمير وعبد العزيز ليكون لهم سنة من النوم يغشيهم الله بها رحمة وسكينة. وصلوا المربع الذي تدير فيه المجموعة عملياتها. صلّوا العشاء والمغرب جمعاً وقصراً ثم أشار عبد العزيز إلى علاء ودلّه على بوابة نفق جانبية. - بإمكانك النوم في هذه الغرفة.

«سأل علاء مستغرباً».

- غرفة؟!

- نعم غرفة، تفضل.

فعلاً كانت غرفة تشبه الزنزانة، مترين في مترين، فيها فرشات وأغطية وفي إحدى زواياها حاسوب محمول، مصاحف، هاتف.

سأل علاء بلهفة:

- لديكم حاسوب؟!

- هذا أداتنا للاتصال بالعالم الخارجي.

- وهناك «إنترنت»؟!

- نعم نعم، تفضل.

وفتح عبد العزيز الحاسوب وهتف: تفضل يا «نار الهشيم» أنت الآن في عمق هذه الأنفاق موصول بعالم فوق الأرض.

– وتريدني أن أنام؟!

- أنت حر، أما أنا فبيني وبين الغرق في بحر النوم أن أصل هذه الفرشة.

وجد علاء نفسه غارقاً في عالم رسائله الإلكترونية، بينما غطّ صاحبه في نوم عميق، تنبهت كل قواه الداخلية من جديد وهو يقرأ رسالة الحبيبة أولاً:

• أين أنت يا حبيبي..

حاولت الاتصال بك مئات المرات فارتدّت علي محاولاتي، وهي حسيرة مهيضة الجناح. أعمَلتُ كل مشاعر قلبي وحركت أرقام روحي وبثثت كل شجوني علّها تلامس بث روحك. مازالت معلقة في الفضاء على أمل ورجاء. بتّ قلقة، خائفة، متوجّسة، أخشى عليك خشية الندى من ارتفاع الشمس أن تذوب في أحضان لهيبها. فارق النوم عينيّ وداهم الأرق فؤادي. أين أنت يا روحي؟. أرجوك رد على شقّ روحك التي تنتظر خلف هذا المعبر. فكرتُ ملياً باجتياز الحدود عبر الأنفاق كي أنتشلك من براثن الموت القابع في غزة. تعانق يدي يدك ثم نطير سوياً على جناحي الحب ونغوص كالأسماك الوردية في بحر غزة لنبحر إلى حيث شواطئ مصر.

حبيبي. ألم تشتق لمصر؟! ألم تشتق لحبيبتك الملوعة عليك، في أعماق الحبيبة الغالية مصر؟!

الدموع تفيض من صدري أنهاراً. سأصنع منها غيوماً وسحباً تتكاثف وتسير إلى حيث أنت حتى تُظلّكَ بظلالها، وتحاول التخفيف عنك من جحيم طيرانهم وعدوانهم.

يسرى مشتاقة إليك اشتياق مصر للنيل بعد سني قحط وجفاف قد أنهكت قوى الناس وباتت تنتظر المطر. يا مطري وضيائي وروحي وأوكسجين حياتي. أرجوك، أرجوك أن تسافر. حبيبتك تكاد تلفظ أنفاسها إن لم تهب لإسعافها وما تبقى من أعصابها.

حبيبتك/يسرى

تنافرت الأفكار في رأس علاء وهو يفكر في ما وراء سطور هذه الرسالة: «يا للحبيبة من مجبنة مبخلة، تضنّ بي على شعبها، تشدني إليها بكل ما تملك من عاطفة ثم تدعوني إلى حسابات العقل وتضرب بعرض الحائط محاولاتي للتضحية من أجل شعبي وقضيتي الكبيرة. يا للحب ما أظلمه إذا حال بين المرء وقضيته. دموع ومشاعر وذكريات وتفجير لكل مكامن الحب ولكن باتجاه التخلي عن يوم الزحف الأكبر. ولكن يا علاء من جانب آخر ألا تبالغ؟! ألا يكفيك أنك فقدت كل عائلتك؟! ألم تنتقم أعظم انتقام؟! لا، لا. أنا كنت سابقاً أريد أن أنتقم بينما اليوم أريد أن

أنتصر. ثم إني لو جمعت حسابات العقل على حسابات العاطفة ثم كانت النتيجة أن أفرَّ إليها بدل الفرار إلى الله فإني لا أستطيع. نفسي الآن التي تشربت مشاعر النصر والعزة لن تطاوعني بالتخلي لحظة واحدة عن هذه الطريق. لا يا ست الكل، لن أكون طوع يمينك؛ لأني بعت نفسي لله وأصبحت أتذوّق مشاعر نصر الله! مشاعر ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ بل إني لم أقف عند هذا الحد بل بتّ أتذوق شقها الآخر ﴿يَنصُرْكُمْ﴾. أرى ذلك واقعاً حياً معاشاً ولو كان ذلك تحت الأرض في أنفاق العزة هذه.

ثم إن علاء شحذ أصابع يده وبدأ يغرف من قلبه ثم يسطر ذلك على شاشة الحاسوب:

أنا هنا حبيبتي. روحك وطيفك الجميل يتربع بين أضلعي لا تغيبي عني لحظة واحدة، منك أستمد روحاً وتياراً هادراً يسري في عروقي ويجعلني الأسعد في هذه الحياة. أنا هنا في أعز مكان، في أجمل مكان، في أعظم ما يخطر على قلب بشر، وأنت معي في أعالي هذه القمم السامقة. تريدين انتشالي من براثن الموت بينما أنا مع روحك في فردوس هذه الحياة. فردوس الرحمة الإلهية المهداة لأشرف العباد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ﴾.

إني أعذرك حبيبة قلبي؛ لأنك تتابعين وترين الصورة عن بعد، عبر شاشات التلفاز بينما حبيبك يتذوقها بأحلى ما فيها من مذاق. أنت ترين البؤس والشقاء، الدم والموت والدمار وهذا موجود. ولكني أرى

الجانب الآخر. كيف يسطّر المجاهدون أعظم الملاحم البطولية. كيف يرسمون أجمل اللوحات الفنية عندما يتجلى الإنسان بأسمى تجلياته. أنا لا أرى ذلك بل أعيشه، أحسّ به، أمضي في حدائق رياحينه. يا حبيبتي أشم رائحة الجنة دون الفرقان. الفرقان هذا اسم هذه المعركة الذي اختاره المجاهدون. إنها فرقان بين كل شيء في هذه الحياة وكل شيء حسن. فرقان بين إنسان الذلة والمهانة والانصياع للاحتلال، كما كان حالنا سالف الزمان وبين إنسان النصر والحرية وكرامة وعزة الحياة.

حبيبتي: الكلمات تعجز عن حمل معاني ما أنا فيه الآن. فهل تريدينني أن أستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. إن فعلت ذلك فعندئذ سيقال لي ﴿اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾. روحي الوادعة في مصر: لن أهبط مصر، لن أستبدل الفوم والعدس والبصل بالجهاد والعزة وذات الشوكة. لن آتي مصر إلا عزيزاً منتصراً رافع الرأس، عندئذ ستكون حياتنا فردوساً تسير على قدمين.

بعد النصر سأقص عليك من أحسن القصص وسنسير في مستقبلنا العتيد على أنغام ما قدّمنا له من صفحات تاريخية مضيئة ومهورة بماء الذهب الذي لا يقدر عليه غير الرجال وأخوات الرجال.

أحسبك حبيبتي روحاً منتصرة، مشرقة، تتراءى فيها كل آيات الجمال. خريطة وطني الصغير الساكنة في قلب وطني الكبير دون معابر

وحدود وجنون الحصار. ولكن أرجوك أن لا تغلقي معبر قلبي خاصة عندما يرتبط ذلك بدعوتك لي للفرار تحت حجة الإنقاذ من براثن الموت وحسابات العقل.

تمنياتي وأشواقي الحارة جداً جداً جداً..

علاء

ووجد علاء بعد فراغه من هذا الرد الملتهب رسالة عجيبة، غريبة. فإذا أذهب النوم من رأسه رسالة الحبيبة، فإن هذه الرسالة لم تدع للنوم أي أثر في دماغه، اشرأبَّت أعصابه وتطاير غبار أفكاره كما تفعل عاصفة عاتية في صحراء رملية قاحلة..

مصدر الرسالة هو عنوان الصديق الأجنبي جون ولكن الاسم الموقّع عليها «بيبي» والمرسلة إليه «عزرا».. دعونا نقرأ الرسالة أولاً..

صديقي عزرا.

أرجو أن تساعدني، أنا في حيرة رهيبة لم يسبق في حياتي أن مررت بمثلها: حيرة تهزني من الأعماق، تزلزل أركاني، مبادئي، قيمي، أخلاقي، وجودي في هذه الحياة.

حدثتك سابقاً عن ذلك الشاب الفلسطيني الذي مثلت معه دور الصاحب فصارحني وكشف لي ما يحمل في رأسه من أفكار متطرفة،

مخيفة لم أكن في السابق آبه بها وكانت تمر في رأسي كما تمر النكتة السخيفة. ولكنه هذه الأيام استطاع أن يزرع دوامة في رأسي، دعاني للاطلاع على فضائيات ومواقع «انترنت».. أطعته وليتني لم أطعه، وبقيت مقتصراً على إعلامنا رغم تأكدي الآن من كذبه غيرالمحدود.. كنت دوماً أتباهى بمصداقية إعلامنا ولكني اليوم ووفق أدائه في هذه المعركة تأكدت بأن فضائياتنا من المفتريات الكبريات. ثم عن دوافع هذه الحرب تأكدت بأنها لمآرب شخصية فاشلة ومخادعة وشاذة وأولها للأسف الشديد هو أبي وشيخه في الكذب والإجرام «شمعون بيرس» رئيس دولة إسرائيل ومرتكب مجزرة قانا بامتياز يقول على قناة الجزيرة بأننا لم نقتل أطفالاً بينما القناة تبث صور عشرات الأطفال الضحايا كل يوم. على من يكذب؟!

والذي وضعني في دائرة الحقيقة وجعلني أنظر بعيون الصدق مع الذات هو حجم الكذب الهائل الذي أحاطته بنا زعامتنا، لم تكن كذبة أو كذبتين، ولم تكن من العيار الخفيف، وإنما كانت من أثقل الأوزان كوزن الصواريخ التي تنزل على رؤوس البشر في غزة. يا رجل الصورة كلها كاذبة وسرعان ما يكتشفها أي إنسان ينفتح على الفضاء الحر. ناقشت أبي مطولاً ثم إني ركزت محاور نقاشي في عشر نقاط. بعثت إجابات أبي لهذا الشاب الفلسطيني فدحضها بمنطق قوي بدا عملاقاً أمام منطق أبي. كانت أقوال أبي – للأسف الشديد – كأنها الليل الذي يريد أن يثبت

خلوه من الظلام بإشعال عود من الثقاب بينما أقوال صديقي وكأنها النهار الذي يطارد فلول الظلام.

سألت أبي عن مجرزة مدرسة الفاخورة: تقولون إن جيشنا أكثر الجيوش أخلاقية في العالم: كيف يسمح سلاح الطيران لنفسه أن يقصف مدرسة؟ أجابني: فيها يختبئ المخربون ومنها يطلقون الصواريخ.

بعد أيام اعترف الجيش بخطئه أي أنه لم يكن فيها مخربون.

قلت لأبي: إن الجيش اعترف بخطئه. فأجاب:

- كل الجيوش تخطئ.

قلت له:

- ولكنها مجزرة وهاهم العرب في قطر فتحوا محطة فضائية أسموها باسم المدرسة «الفاخورة» هل هذا يُظهر أخلاقية جيشنا.

- تقول العرب! العرب لا يحق لهم أن يتحدثوا عن الأخلاق. أنت لم تسمع بجرائمهم. جرائم صدام حسين مثلاً في «حلبجة» حيث رمى الأكراد بالكيماوي. سألت مستنكراً.

- أفهم أننا صرنا مثلهم؟! ألسنا شعب الله المختار؟!

- اطمئن يا بني، سأشدد في تعليماتي على عدم تكرار مثل هذا الخطأ. هذا يضرّ بصورتنا كثيراً.

- الصورة أهم من الضحايا؟! «قلتها في نفسي».

وبعد أيام قُصفت مدرسة أخرى. خضت مع أبي النقاش العقيم

ثم قُصفت جامعة، ثم مسجد ثم تكرر تدمير المساجد وكأنها أصبحت أهدافاً مفضّلة لإثبات أخلاقية جيشنا. تصور لو أنهم دمروا كنيساً لنا؟!

قبل ثلاثة أيام دخل أبي البيت وصوته يلعلع كالرصاص، كان يتباهى ويتفاخر ويكاد يرقص طرباً. تحدث عن الانتصارات العظيمة التي ينجزها في غزة، خمسمائة هدف تم تدميرها، مئات الإرهابيين تم قتلهم وتقطيعهم إرباً إرباً، الردع أقام شبحه بكل قوة واقتدار. هذا الحجم الكبير من الضحايا والأشلاء والدمار ما هو إلا لدفع كل من يفكر بالمسّ بدولة إسرائيل أن يفكر مليون مرة وليس مائة مرة.

أوقفت سيل تبجحاته بسؤال سريع كشظية صغيرة وكمقدمة لسؤال كبير بوزن قنبلة كبيرة:-خمسمائة هدف عسكري؟!

- طبعاً، ما ظاهره مدني فباطنه عسكري، خذ المساجد مثلاً، هي قواعد عسكرية للمخربين عندهم؟.

- وضحاياهم؟ هل الأطفال مادة للردع؟!

- هم الذين يتسببون بقتل أطفالهم لأنهم يحاربوننا من خلفهم ويتمترسون بهم.

- وهل نتوقع منهم أن يخرجوا إلى جيشنا بأسلحتهم الخفيفة مكشوفي الظهر. «تكدر وجه أبي وانزاحت عن وجهه إشراقات النصر وقال:

- لا أدري ما الذي جعلك مجادلاً بهذا الشكل الغريب.

- ألست معارضاً في لعبتنا الديمقراطية داخل بيتنا السعيد.

- لكن ما الذي جعل هذه المعارضة معارضة عنيفة؟!

- دماء الأطفال. «وكأني وخزته بإبرة»، فرد محتداً:

- أصبحت الآن معارضة وقحة، أتفهم هذا؟!

- اسمح لي يا أبي، إذا كان الحديث عن قتل الأطفال وقاحة، فماذا نقول نحن ويقول العالم عن الذي يقتل الأطفال؟!

- أنت لا تدرك معنى الحرب. الحرب ليست نزهة أو طوشة بين حارتين. إنهم ذئاب إن لم تتغد بهم تعشوا بك. ومع هذا فإن تعليماتنا للجيش أن يتجنبوا الأطفال والنساء والمدنيين قدر المستطاع. فقط عند الضرورة أو بالخطأ يُصاب هؤلاء.

وما أن انتهى النقاش مع أبي، إلا وقد قررت أن أبحث عن التعليمات التي تعطى للجيش، وبالذات لهؤلاء الطيارين وكيف يصبح الطيار قاسياً إلى هذه الدرجة. ولكن كيف؟ ومن أين؟! تذكرت. صديقي «ايتسيك»، أخوه طيار في سلاح الجو. ما عليّ إلا أن أرتب موعداً من خلال أخيه ولن أعدم الحجة المناسبة.

وجاء الموعد المضروب. دخلت «فيلتهم» الجميلة وكأنها قصر من قصور الجنة، كل شيء فيها ناعم وهادئ. الحديقة الجالسة بين يدي البيت يبدو عليها الأدب والاحترام، بساط أخضر تتخلله ألوان الورد الزاهي، أضواء خافتة موزعة هندسياً توحي برومانسية عالية. تدخل البيت فتجد الدقة في اختيار الأثاث الفاخر وتوزيعه بذوق رفيع. وعلى

أني أتهم أمي بعلو شأنها في تنميق البيت وجعله قطعة موسيقية تعزف دون عازف إلا أنها ضاعت مع ما أرى في بيت هذا الصقر الجوي. يا إلهي كيف يتحول صاحب هذا الذوق الناعم إلى وحش كاسر يهرس كل من يأتي تحت طائرته من البشر والشجر والحجر.

دخلت وصديقي «ايتسيك» لنجد أخاه الذي ذكر اسمه عدّة مرات أمامي دون أن تستسيغه ذاكرتي، بقي عالقاً في ذهني «الصقر الجوي».. تخيّلت أن وجهه قطعة من صخر، جامد وكأنه يلبس قناعاً من حديد. كل شيء رأيته في هذا البيت تخيلته أكثر نعومة ورقة من قطعة الأثاث هذه التي تأخذ شكل بشر وتتحرك يدها لتسلّم عليّ.. عجباً كيف لمن يعيش في كل هذه الأجواء الناعمة أن يجيز لنفسه أن يحوّل حياة الآخرين إلى كومة خردة، ينظر إلى حياة البؤساء من علٍ فيحرق الأرض من تحتهم ويقلب عاليهم سافلهم. كيف تتحول هذه النعومة إلى كسّارة تطحن أجساد البشر ومنازلهم وحقولهم وكل شيء في حياتهم؟. تعارفنا ثم رفعت شراع أسئلتي لأبحر في مستنقع ماءٍ آسن، وأنا متظاهر بأني أحمل في جنباتي ما يحمل من أحقاد اليهود التي لا مثيل لها عند البشر، زعمت في سياق أسئلتي بأني يميني متطرف كَأَنْجَبِ تلميذٍ لحاخاماتهم التي تحشو في عقولهم الحقد المتعفن منذ آلاف السنين. طبعاً لم أنس تثبيت القبعة الضئيلة السوداء وسط رأسي. سألت مبتسماً.

اخترت أن يكون بحثي في الجامعة تحت عنوان «الطيار الإسرائيلي بين

مطرقة الأخلاق وسندان الأمن». نهاية البحث مجموعة مقابلات مع عينة عشوائية من الطيارين كنت أنت واحداً منهم. أرجو أن تجيبني بصراحة ووضوح وباختصار. بداية أود السؤال عن التعليمات التي يتلقاها الطيار الإسرائيلي من قبل قيادته.

ابتسم وبدت أسنانه المتفرقة الصفراء مما أثار شعوراً داخلياً بأنه عضو عصابة إجرامية ولا ينتمي لجيش نظامي البتّة. أشعل سيجاراً يبدو أنه من النوع الفاخر، أخرج بنفس عميق كمية كبيرة من الدخان وكأنه يحاول الاختفاء من نفسه أو التنفيس عن ضيق مدفون في أعماقه.

- حسناً، أهم التعليمات أن الحرب مكوِّن ثابت في حياتنا كيهود، لا بد من خلالها أن نفرض وجودنا المتفوق على الوسط المعادي المحيط بنا. وبصراحة أكثر: إننا كطيارين علينا أن لا ننظر للعرب والفلسطينيين على أنهم بشر لا يجوز قتلهم. إننا بذلك لن ننتصر ولن نفرض وجودنا عليهم.. سألته وأنا متظاهر بالإعجاب.

- عظيم، هم ليسوا بشراً. ماذا هم إذاً..؟!

- هذا راسخ عندنا، هم أفاعٍ وصراصير كما قال الحاخام (عوفاديا يوسف). أو حيوانات تسير على قدمين، كما قال (اسحق شامير). الجنرال (يانوش بن غال) ينظر دائماً إلى أن الفلسطينيين سرطان في قلب دولة إسرائيل. ألم تسمع تصريح (لبيرمان) الأخير: دعانا لضرب قطاع غزة بقنابل نووية، ثقافتنا العسكرية تقوم على ما هو أكثر من هذا.

خذ مثلاً أشعار (حاييم غوري) التي نرددها صباح مساء يقول فيها: إن المحارب يجب أن لا يرى ولا يشعر، وهناك كم هائل من القصص التي تصف الفلسطيني بأنه إرهابي، ذميم، ماكر، مخادع، متخلف، عفن، جبان، والعدالة تتطلب التخلص منه. نحن نطبق العدالة على أكمل وجه. ألم تقرأ عن «يوشع بن نون» والذي ورد في سفر يوشع عندما احتل مدينة أريحا فذبح أهلها من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف. سألت بعد أن أصبحت لا أحتمل المزيد من هذا السخف:

- وأين السلام في ثقافتنا؟!

- السلام هو في ما قاله (مناحيم بيغن صانع السلام مع مصر) قوة التقدم في تاريخ العالم ليس بالسلام بل بالسيف. وكما قال شارون: لا رحمة للضعفاء. السلام في تاريخنا هو الفترة التي تستعد فيها للحرب القادمة. الزمن الواقع بين حربين.

- وهل قيادة الجيش وسلاح الطيران تحملان نفس هذه المنهجية؟!

- بكل تأكيد، إذ ماذا يعني لك تحديد خمسمائة هدف لصواريخ طائراتنا؟ هل هناك في غزة أهداف عسكرية بعشر هذا العدد؟! كان من أهدافنا (لعلمك) منازل ومدارس ومستشفيات وحقول برتقال ومحطات مياه وكهرباء وكان من أهدافنا مقابر. ولعلمك أيضاً قالوا لنا: لا نريد من الجرحى أن يصرخوا، أسكتوا كل جريح برصاصة أو قنبلة. لذلك استهدفنا سيارات الإسعاف والمسعفين وحمالات الموتى. وقالوا: لا نريد

أحياء في غزة نريد أن نسمع أن أرقام القتلى تتزايد. هذه أوامر عسكرية وليست مجرد كلام حاخامات أو شعارات سياسية. نحن مطلوب منا ترجمتها على أفضل وجه.

- وماذا عن شعورك؟!

- أنا أرى أهدافاً وفق إحداثيات دقيقة تحددها شعبة الاستخبارات، وأرى أمامي شاشة وأزرارا الكترونية تعمل باللمس. عندما أُطلق صواريخ وقنابل ينتابني شعور لاعب «الأتاري» وهو في غمرة المغامرة وقنص الهدف فأستمتع أكثر في الليل وخاصة عندما ألقي القنابل الفسفورية، كيف تلمع وتضيء وتتناثر على مساحة واسعة تماماً كالتي تراها في عيد الميلاد.

- ولكنها تأتي على بشر فتحرق وتقتل؟!

- يا رجل هذه حفلات مثيرة. لو تجرّبها مرة واحدة.

- عندما تعود للبيت، هل ترى مشاهد الدمار وآلام الجرحى والثكلى والأيتام، قال مقاطعاً ومحتجاً:

- إسمع، إسمع، دعك من هذا لو أنهم ملكوا قوتنا لفعلوا بنا أكثر من هذا.

- هي القوة إذاً؟! وماذا عن الأخلاق؟!

- لا أخلاق في الحرب.

- وفي السياسة؟.

- وهل ترى أنت أن هناك أخلاقاً في السياسة؟! أصلاً كل قادتنا من

رؤساء، ووزراء ورؤساء مؤسسات وبلديات كلهم جنرالات سابقون.

- إذاً الأخلاق في الاقتصاد؟!

- إنك تنكّت. من أين للاقتصاد الأخلاق خاصة اقتصادنا الذي يأكل فيه القوي الضعيف.

- إذاً حياتنا كلها أصبحت بلا أخلاق.

- ليس حياتنا فقط وإنما العالم أجمع، الأخلاق موضة قديمة قد بيدت وأكل منها الزمن وشرب.

- إذاً أنا واهم في اختيار العنوان: الطيار الإسرائيلي بين مطرقة الأخلاق...

- لا تكمل. لا يوجد ما يطرق على رؤوسنا سوى أننا «شعب الله المختار» لا يوجد هناك اعتبار لأي أمر آخر.

- إذن ماذا نسمّيه: بين مطرقة الأمن وسندان الأمن.

- أنا تستفزني كلمة مطرقة. نحن الذين أنزلنا مئات الأطنان من المتفجرات بكل قوة واقتدار لا نخضع لأية مطرقة، سمّه إن شئت: الطيار الإسرائيلي قوة فوق كل اعتبار.

عندئذ عدت إلى شخصيتي قبل أن أشوّهها بهذا الحوار الأسود فسألته:

- عندما تعود إلى البيت هل تنظر إلى وجهك في المرآة.

وهكذا صديقي «عزرا» وصلت إلى حقيقة التعليمات التي تصدر عن

قادة الجيش. وللأسف اكتشفت أن أبي يكذب عليّ. إنه يُمثل صورتين. صورة أمامي وهذه تقترب من صورته في الإعلام وصورة ثانية تتمثل فيها أعلى درجات الإجرام. إنني الآن أنظر إلى أبي يا صديقي على أنه ذئب في صورة إنسان. بل إن الذئب لا يحمل قلباً مثل قلب أبي. الذئب يفترس ليأكل ويتخلص من الجوع، ولكن جوع أبي للدماء لا نهاية له..

عزيزي «عزرا» أرجو أن تتحمل مني هذا الشيء اليسير الذي بثثته إليك من أثقال هذه الحرب التي جعلتني في ضنك دائم يبدو أن لا نهاية له..

تحياتي الخالصة/بيبي..

احتار علاء في أمره مع هذه الرسالة. اكتشف أن صديقه الأجنبي هو يهودي من معسكر الأعداء، وهو ابن وزير الحرب لديهم «يهود باراك».. وأن الاتصال مع أي منهم يؤملهم بالتطبيع، هذا الاسم الجميل المرادف للتدجين أو التطويع. ولكن قطع العلاقة معه بعد أن أصبح بهذه القناعات ليس من الحكمة في شيء بل لابد من مواصلة تشجيعه وإمداده بكل تجليات الحقيقة الساطعة في هذا الصراع. ثم إن هذه الرسالة عن طريق الخطأ، لله فيها حكمة. يؤمن علاء بأن لا مكان للصدفة في هذه الحياة وإنما هي تصاريف القدر، وبدأ علاء يكتب لصديقه الذي كان أجنبياً واتضح اليوم أنه من المعسكر المعادي بل إنه من علية القوم.

صديقي العزيز جون «بيبي»

بداية أعرب عن أسفي أن قرأت رسالتك التي وصلتني بالخطأ. لا أدري كيف شدّتني وأخذت بتلابيب عقلي وقلبي حتى آخر كلمة فيها. كانت مؤثرة وعظيمة ورائعة من روائع البحث عن الحق، رأيت فيك من خلالها إنساناً صادقاً مع نفسك باحثاً علمياً موضوعياً متحرراً من كل الأغلال التي تمنع الناس من رؤية الحق، ومتجاوزاً لكل الجدر والحواجز التي تحدد رؤية الإنسان في مربعات مقفلة، لك كل احترامي وتقديري.

أنا الآن للمرة الأولى في حياتي أعتزّ بصداقة رجل يقف في الجانب الآخر للصراع العربي الإسرائيلي وذلك أنه نظر إلى الصراع بعيون منصفةٍ نزيهةٍ.

حبذا صديقي جون أو بيبي (لا أدري أيهما تحب أن أخاطبك به بعد اليوم) أن تقرأ ما كتب (جدعون ليفي) في جريدة (هآرتس) حول حقيقة هذه الحرب وكذلك الكاتبة (أميرة هس) وغيرهما.. وسيأتي اليوم (صديقي) لتقرأ ما كتبته دماء الأطفال على صفحات مستشفى الشفاء، وأزقة غزة وذلك من أجل أن تتضح الصورة بين هذا البؤس والألم وذاك الذي لا يرى سوى الأزرار الإلكترونية وأنامله الناعمة المدللة والتي لا تتردد في الضغط عليها. أذكر أنهم سألوا الطيار الذي ألقى قنبلة بوزن طن من طائرته الـ(F16) على عمارة بأربع طبقات من أجل قتل شيخ اسمه صلاح شحادة، هل شعرت بشيء في قلبك؟ قال: شعرت برفة في

جناح الطائرة. دمر العمارة وقتل وجرح العشرات من النساء والأطفال ولم تهتزّ له شعرة. هناك الآن تعقد محكمة لجرائم الحرب في إسبانيا لمحاكمة كل من تورط في هذه الجريمة. ومثلها سيحدث للجرائم التي ترتكب الآن. عليك صديقي واجب أخلاقي هو أن ترفع صوتك وتضمه لأصوات المعارضين لكل هذا الإجرام.

أنا لم أنم صديقي منذ اثنتين وسبعين ساعة. رأسي يكاد يقع من بين كتفي. أود لو أنام ساعة قبل أن أرى نهاراً دامياً جديداً.

تحياتي. علاء

تخلّص علاء في نومه تحت الأرض من حالة الكوابيس التي كانت تنقض على روحه أيام عمله كمسعف. يعمل في النهار بين الضحايا والأشلاء وأنّات الموجوعين، وعندما ينام ليلاً تأخذه الأحلام المريعة إلى عالمها المخيف وكأنه يتابع أحدث أفلام الرعب. اليوم ويده على الزناد ينام نوماً هادئاً، مريحاً كمن يفترش بساط سليمان ليحمله إلى الجنة فيتبوأ منها حيث يشاء. كان يأمل بالشهادة ويعيش معها قبل أن يصيبها ويظفر بها. لم يعد للدنيا أي وزن. لا يرى في أفقه سوى أمرين: النصر أو الشهادة وهكذا كان كل من هم قابضون على الجمر في الأنفاق.

أفاق علاء من نومه على صوت خشخشة حوله. فرك عينيه فلم ير أحداً من المجاهدين. رأى ثلاث نساء يرتبن المكان. أحسّ بجوع يعتصر معدته بكل عنف. نظر فرأى أطباقاً من الطعام. فرك عينيه مرة أخرى. أعاد النظر فرأى الطعام. ظن بنفسه أولاً أنه في الجنة ولكنه رأى النفق وقد شدّ على صدره من عبق رطوبته وقال: لا يمكن أن تكون الجنة أنفاقا.

- السلام عليكم. أين الشباب؟! «تبرعت إحداهن بالإجابة»:

- انطلقوا في عملية خاطفة وسيعودون بالسلامة إن شاء الله.

- ولمَ لم يأخذوني معهم؟

- كنت مرهقاً وفي شخير عالٍ فاختاروا لك قسطاً إضافياً من الراحة تفضل هذا فطورك.

خرجت من فمه جملة دون أن يزنها بميزانه الدقيق.

- أأتخلف مع النساء؟! «أجابته إحداهن بشيء من العتاب»:

- سامحك الله. أنحن متخلفات؟

- لا أبداً لم أقصد هذا، هي كلمة لغو درجت على اللسان.

- نساء غزة اليوم ينافسن الرجال ولو تتاح لنا الفرصة وتوفَّر لنا السلاح لوجدتنا في كل موقع من مواقع القتال.

أحسّ علاء بكل مكنونات قلبه بأمه وأختيه. ارتعدت فرائص مشاعره وهو يتجرَّع الفراغ الذي شقّ طريقه في حياته بعد استشهاد هذا الحضن الحاني الذي كانت تشكله أمه وأختاه. ما أشقى الحياة دون نساء، أو قل

إنها ستكون كالمجموعة الشمسية دون شمس. ها هنّ يشاركن في هذه المواقع المتقدمة. يتخندقن مع الرجال جنباً إلى جنب في إبداعات المقاومة تحت الأرض وفوقها.

كانت الأصوات تبدو بعيدة إذ أن هناك مقاييس جديدة للأصوات تحت الأرض، ولكن من الواضح أن هناك معارك طاحنة على مشارف مدينة غزة. سأل علاء إحدى النساء وقد بدا عليهنّ أنهنّ سيغادرن المكان:

- هل هناك أخبار جديدة عن المعارك؟

- هناك إنفجار كبير ولم يعرف بعد المكان المستهدف.

- ربنا يستر لأفتح إذن على الجزيرة نت، اللهم اجعله خيراً.

تصدر الخبر قائمة الأخبار. تدمير منزل بطائرة (F16) يُعتقد أن فيه وزير الداخلية الفلسطيني.

في هذه الأثناء وصل أمير المجموعة مع عبد العزيز. وقف الأمير مع النسوة الثلاث، أسرّ إليهن بعض التعليمات، غادرن المكان وجلس هو ودماغه تغلي كالمرجل حيث تراءى الغليان على صفحة وجهه بكل وضوح.

سأل علاء:

– صحيح ما هو على «الجزيزة نت».

- نعم صحيح. أبى الشيخ سامحه الله إلا أن يتابع ذاك الموقع بنفسه. قلنا له نحن نكفيك إياه. إنه خطر وإمكانية استهدافه كبيرة ومع هذا أصرّ قائلاً إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دوماً في مقدمة الصفوف،

رحمه الله، استشهد مع ابنه وشقيقه وأربعة مجاهدين معه وأربعة من جيرانه

- هذه ضربة في العمق.

- صحيح ولكن لن تفتّ في عضدنا. القادة يستشهدون والعناصر يستشهدون، انظر في قوله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.. ثم إن الشهادة اختيار خالص من الله تعالى يمنحها من يشاء من عباده ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾.

- ولكن كيف حدث هذا؟!

- التفاصيل غير معروفة، كل ما نعرفه أن الشيخ كان متنقلاً ومتابعاً ميدانياً، وكان لابد من حفظ أمن الجبهة الداخلية رغم كل الظروف القاهرة، لأن أي تهاون في هذه الجبهة يؤدي إلى انهيار على جبهات القتال مع الاحتلال. هناك العملاء الذين نشطوا في هذه الحرب، حسبوا أن المقاومة قد انشغلت عنهم ولكن خابوا وخسروا، كنا نترصدهم ونضرب أئمتهم لنشرد بهم الأذناب وكل الذين يصطادون في الماء العكر. رحمه الله لم تكن هذه الحرب وبكل جبروتها لتحدّ من القيام بمسؤولياته الكاملة خير قيام. وتابع عبد العزيز:

- هذا الاغتيال لن يحني ظهورنا لهم. هم يعتقدون بأن إصابة بهذا الحجم سوف تجعل معنوياتنا في الحضيض، لا يعرفون حقيقة الإيمان

الراسخ في نفوسنا. مثل هذه الجرائم تضاعف من ثورة الغضب في نفوسنا، ستشعل الأخضر واليابس من وقود إرادة الانتقام الكامنة في قلوبنا. لن نقيل ولن نستقيل حتى تنفرد هذه السالفة.

- ماذا تقول أستاذ علاء في شاب كَمَنَ عشرة أيام في جحر الضباع. اليوم جاءني خبره. عشرة أيام وهو مختبئ في تلة جبل الكاشف التي احتلتها دباباتهم بداية الحرب البرية. كان مزوداً ببندقية وتمر وماء. قرر أن يختطف جندياً ليقوم بواجب التسلية فيجره لأخيه «جلعاد شليط» - الجندي الإسرائيلي المختطف لدى المقاومة منذ حوالي سنتين -. هذا الشاب أعرفه جيداً يعشق الحرية وهو بالمناسبة أسير محرر، قلبه دوماً معلق بتحرير الأسرى. يشعر أن هذا دَيْنٌ في رقبته لذلك قرر أن لا تفلت هذه الحرب دون خطف جندي على الأقل، ولما كانت قيادة جيش العدو حريصة كل الحرص على جنودها فجعلتهم محصنين في أحدث ما لديهم من دبابات، الدبابات التي حُرقت في لبنان في حرب تموز سنة ٢٠٠٦م وذهبت هيبتها حيث مرغها حزب الله في التراب. زادوا تحصيناتها كي لا تخترقها قاذفات المقاومة وجعلوا جنودهم لا ينزلون منها إلا في الأماكن المأمونة، لذلك كان لابد لهذا الفدائي أن يخترق حصونهم في عمق المكان الذي يأمنون به على أرواحهم. حسب حساباته بأن الأمر قد يطول معه فأخذ معه كمية كافية من التمر والماء. عسكرت الدبابات حول جحره. انتظر أن يخلو بجندي في اليوم الأول فلم تتوفر الفرصة

والثاني والثالث إلى العاشر، إرادة جبارة، لو تعرف كم هو البرد هناك، تلة مكشوفة يعصف بها هواء البحر الشتوي خاصة في الليل. صبر وصابر حتى إذا اقترب منه جندي وكأنه جاء ليقضي حاجته. انقض عليه وضربه بأخمص بندقيته في مؤخرة رأسه، سقط الجندي فحمله صاحبنا على كتفيه وطار به، كان كل شيء على ما يرام لولا أن رؤيتهم الليلية رأت شبحاً يحمل جندياً.. كان من مفترض حرصهم على جنودهم أن يحاولوا انقاذه من براثن الأسر، ولكن حرصهم على عدم إضافة أسير آخر مما يؤثر على نتائج المعركة وبالتالي يؤثر على نتائج الانتخابات ومراكز أمراء الحرب فيها، فكانت التعليمات أن اقتلوا الحامل والمحمول.

وجهت إحدى الدبابات خرطومها ورمتهم بقذيفة من العيار الثقيل فقتلت كليهما وقطعتهم أشلاءاً متناثرة.

علّق عبد العزيز باقتضاب على عادته:

- هناك خطة محكمة تعد لها مجموعة خصصناها للخطف، ستنجح بإذن الله والمهم الآن أننا على ثقة ثابتة بنصر الله. هم غير قادرين على التقدم داخل المدن وهي مناطق المقاومة، وكذلك غير قادرين على وقف إطلاق الصواريخ. صواريخ «جراد» لمستهم. عملية إطلاق الصاروخ والاختفاء تحت الأرض لا تستغرق أكثر من دقيقة. طيرانهم عجز عن تحديد مواقع إطلاقها لا ليلاً ولا نهاراً.

- الحمد لله، المجاهدون على أهبة الاستعداد في كل مكان. كل المحاور

التي حاولوا الدخول من خلالها أغلقها عليهم المرابطون بنيرانهم الكثيفة لا مجال لأي اختراق. بالأمس حاولوا الإنزال من البحر ظناً منهم أن شواطئنا نقطة ضعف وكل تركيز المقاومة على الشمال والشرق. تلقوا هناك - بفضل الله - رداً عنيفاً ولقنوهم درساً لن ينسوه أبداً. كانوا كمن أراد السباحة في اليابسة فتهشمت كل محاولاتهم على صخورنا المرابطة.. واليوم موعدهم مع عملية كبيرة ستكون فيصلاً هاماً في هذه الحرب بإذن الله.

هتف علاء:

- أرجو أن لا تحرموني فرصة المشاركة فيها.

- لك ذلك يا سيدي علاء. جهزّ نفسك بعد العصر مباشرة، هناك مذبحة دبابات. سنمرّغ أنف «الميركافا» بإذن الله.

ابتهج علاء، أشرق قلبه وهتف:

- الله أكبر ولله الحمد. كدرس لبنان بإذن الله.

- هناك ثلاث ساعات، أرجو أن تتصفح لنا «الانترنت».

بدأ علاء يتصفح ويبوح بمكنوناته الهامة.

• أخبار القصف والتدمير وقتل النساء والأطفال تتوالى دون انقطاع.

- هذه اليد التي توجعنا. حسبنا الله ونعم الوكيل. «قال أمير المجموعة»

- لولاها لنازلناهم إلى يوم الدين. تابع عبد العزيز:

• مصر تمنع الأطباء المتطوعين من دخول معبر رفح. يقولون إن

هذا خوف على أمنهم وهم مستعدون للتوقيع بالتنازل عن هذه الحماية المزعومة. «علق عبد العزيز بألم يعتصر قلبه»:

- ما أعظم شعب مصر وما أحقر...

- لا تكمل يا أخي، يكفينا عدو واحد.

• المظاهرات التي تحتج على العدوان تعمُّ أغلب بلدان العالم. فنزويلا وبوليفيا وفرنسا وبريطانيا، تركيا وإيران واندونيسيا، المغرب العربي وسوريا وقطر والبحرين.

- الأمة حية بفضل الله.

- مضى عهد الغثائية. غثاء كغثاء السيل.

- المقاومة في فلسطين تحرك الأمة الإسلامية قاطبة.

وتابع علاء:

- لم تشهد الشوارع العربية والإسلامية مثل هذه الحركة من قبل. «اسطنبول» مظاهرات يومية تزيد عن المليون، وهناك في الأردن مثلاً المظاهرات في كل مدنها.

- هذا من فتح الله ومن الجنود التي لا نراها. ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.

• العرب يتوجهون إلى مجلس الأمن ويحاولون استصدار قرار لوقف الحرب.

- حيلة من لا حيلة له.

- في «إسرائيل» يهددون ببدء المرحلة الثالثة في الحرب. وهم يحاولون دخولها وعند فشلهم يعودون للتهديد والوعيد، حرب نفسية مكشوفة.

«علق عبد العزيز»:

دعوني الآن أرى رد ابن وزير الحرب «باراك»..

شغر الأمير فاه وحملق عبد العزيز عينيه وقالا معاً:

- ماذا تقول؟!

قص عليهم بإيجاز قصته مع جون، واكتشاف الجديد في هذه القصة. شجّعوه على الاستمرار، ثم إنه وجد هذه الرسالة من صديقه جون «بيبي»..

صديقي علاء:-

سرني أنك قرأت الرسالة. لا عليك، لم يعد هناك ما أكتمه عنك. هذه الحرب كشفت الوجه الحقيقي لأمراء الإجرام ومنهم أبي. أقولها بكل أسف شديد. ماذا أفعل؟ لا يختار المرء أباه. سيحاكم أبي على جرائمه في يوم من الأيام. هذا الذي يحدث غير معقول.. أشعر أن كل أهل هذا البلد قد شربوا من نهر الجنون، أولهم أبي شرب حتى الثمالة.. سأبدأ أنا محاكمته بل إني بدأت منذ فترة وكنت أمشّي له أقواله أما اليوم فسأنغّص عليه حياته في نقاشات لن أقبل أن أكون فيها الطرف الأضعف وهناك مفاجأة له أقوى من مفاجآت حربه عليكم سأطلعك عليها فيما بعد. المهم

أرجو أن لا تبخل عليّ بالقصص المأساوية عندكم. استمر بتزويدي بها؛ لأنها سلاحي معه. وأود أن أعلمك بأني شكلت لجنة في الجامعة للتضامن مع الجامعة التي دُمّرت في غزة والوقوف ضد هذه الحرب اللعينة. أشكرك علاء على ما نورت به بصيرتي، ولنبق معاً في مسيرة الحق إلى أن يتوقف الظالمون عن ظلمهم، ويسترجع كل ذي حق حقه.

سلاماتي وعلى أمل سماع أخبار طيبة تسرّ أهل غزة المنكوبين...

بيبي

لمح علاء رسالة من حبيبة القلب ولكن هذا النص العظيم من (بيبي) دفعه للتشاور فوراً مع أمير المجموعة وعبد العزيز للمعان فكرة في رأسه.

- ما رأيكم بالاستفادة من هذه العلاقة، تذكرون قصة نعيم بن مسعود في غزوة الخندق حيث تمكن بحيلة ذكية أن يفكك حلف يهود بني قريظة وقريش.

- ولكن كيف؟! «سأل عبد العزيز».

- هذا ما أفكر به، ثم قال الأمير بعمق وبطء:- علينا بداية أن نتأكد من صدقه، قد تكون رسالته لصديقه لم تأتك من باب الخطأ وإنما أراد ذلك لحاجة في نفسه. على كلّ هو يقول بأنه شكّل لجنة في الجامعة للتضامن مع غزة. بالإمكان التأكد من هذا الأمر.

رد علاء:

- أستطيع التأكد من خلال «الانترنت» إذ لابد أن يكونوا قد فتحوا موقعاً أو مدونة أو على الأقل وضعوا خبراً عن هذه اللجنة، دعوني أبحث.

بعد قليل نادى علاء، هناك خبر عن لجنة لمناهضة الحرب في غزة يترأسها ابن وزير الحرب الإسرائيلي. هكذا في الخبر المنشور في صفحة أخبار الجامعة العبرية في تل أبيب.

- هذا إذن يؤكد صدقه.

بعد فترة صمت كانت على ما يبدو في عملية عصف ذهنية تحاول تحفيز كل عضلات العقل بكل ما لديه من خبرة وقوة هتف علاء:

- وجدتها، وجدتها..

- خير إن شاء الله..

- هو يريد أن يقف في وجه أبيه في هذه الحرب التي يرى أنها جرائم في حق الأطفال والنساء. حسناً فلنقترح عليه طريقة ذكية لإنجاز المهمة. ملخّصها أن يمثل صورته القديمة حيث كان صديقاً أجنبياً يدعى (جون) على علاقة مع صديق فلسطيني يدعى علاء. وهو من خلال هذه العلاقة حصل على معلومات تفيد أباه في حربه، ما عليه إلا أن يقدمها لأبيه خدمة للحدّ من الإجرام ووقف العدوان. ونحن بدورنا نقدم له المعلومات التي نريد إيصالها لأبيه بما يخدم أهدافنا ويخفف البلاء عن شعبنا.

- وما هي هذه المعلومات؟!

- بالإمكان إخباره بوجود مضادات للدبابات لم نستخدمها بعد، فقط

هي للمرحلة الثالثة وفي حالة توغل دباباتهم للعمق السكاني في غزة. وتعلمون أن مثل هذا الدخول يعني المزيد من الضحايا في صفوف الأطفال والنساء. سيعتبر أبوه أن هذه المعلومات التي وصلته من خلال فلذة كبده أنها معلومات استخبارية هامة وسيفاخر في قيادة الأركان بقدرات ابنه. تعلمون شخصيته جيداً، متعال ومغرور ويحب المباهاة إلى درجة الجنون.

- قل له عن مضادات الدبابات بأنها لم تستخدم من قبل وتحمل على رؤوسها يورانيوم مُنضّب وستدخل في دباباتهم كما تقطع السكين قالب الزبدة، قل لهم إنها من الأسلحة التي تم تهريبها للقطاع من قبل وهي مركوزة جانباً لإحداث المفاجأة في الوقت المناسب.

- ولكن ألا تعتقد أن هذا قد يدعوه للمزيد من الحصار على قطاعنا الحبيب. «رد علاء»:

- هذا صحيح ولكن لا نجاح دون ثمن، ثم إن تشديد الحصار حاصل لا محالة، على الأقل لوقف تهريب صواريخ جراد، هذا وحده كافٍ لاستمرار الحصار.

- إذن لنقل على بركة الله يا علاء.. «هتف أمير المجموعة وأساريره تبشر بالخير..»

وشرح علاء في رسالته ما يودّ الوصول إليه وتحت عنوان وقف الحرب المجنونة.. ثم كتب الرسالة المطلوبة حيث أنها كما خطط له هي الرسالة المطلوب أن يوصلها بيبي إلى أبيه.

ما إن أنهى علاء هذه المهمة وقبل أن يفتح رسالة الحبيبة إلا وقد دقّت ساعة البدء في العملية الكبيرة التي أسموها:

«استدراج المجرمين».. كانت الخطة تقضي بأن تنطلق ثلاثة صواريخ محلية الصنع من مكان مكشوف للطائرات وقريب من موقع تتجمع فيه الدبابات عندئذ سترسل وحدة التنسيق بين الجو والبر إحداثيات الموقع فتهرول الدبابات إلى المكان وهذا بيت القصيد. ستقع في مكان مزروع بالألغام الضخمة وسيبدأ المجاهدون بتفجيرها دفعة واحدة لتهوي الأرض من تحت الدبابات والجرافات، وفي نفس الوقت ستبدأ ست مجموعات محيطة بالمكان بإطلاق الهاون وقاذفات آلـ «آر بي جي» وسينتشر القناصة على أسطح العمارات المحيطة لقنص كل من تحرق دبابته ويخرج منها سالماً. التنسيق بين الوحدات المختلفة تم على أكمل وجه وهي الآن تزحف عبر الأنفاق إلى المواقع المطلوبة..

استغل المجاهدون فرصة تحليق طائرات الاستطلاع فأطلقوا ثلاثة صواريخ نحو بلدة «سديروت» الصهيونية. هربوا وتركوا منصات الإطلاق. ثلاث دقائق وإذا بالدبابات تطلّ على المكان، بدأت بالقصف قبل الدخول للموقع. خشي علاء ومن معه أن تكتفي بالرد بعيداً دون أن تتوغل نحو الشرك. لهجوا بالدعاء. اشرأبت القلوب إلى خالقها تدعو بحرارة وابتهال. بعد نصف ساعة من القصف عن بُعد تقدمت سبع دبابات وناقلتا جند وجرافة وصلت طلائعهم المكان المرصود، أطلق الأمير

رصاصته معلناً بذلك بدء الهجوم المضاد.. بدأت الألغام تنفجر الواحد تلو الآخر وبدأت الحناجر بالتكبير. كان المشهد عظيماً والدبابات تولي الأدبار. تطايرت حاملة الجند هي ومن عليها، أصيبت ثلاث دبابات وقد تسببت محاولة إنقاذها وجرّها إلى المزيد من الضحايا والجرحى، كانوا تحت تغطية جوية رفيعة المستوى، ولكن الأرض لم تسعهم وكان صراخ الجنود وعويلهم يخترق الصوت المزمجر للطائرات وصعق القذائف المنطلق من الدبابات الجريحة. وصلت للمكان ثلاث جرافات عملاقة فجرّت الدبابات المصابة بينما تواصل إطلاق القذائف عليهم. لم تكن قاذفات المقاومة لتجدي نفعاً مع هذه الجرافات ولكن كانت تعيق عملها وتحدث إرباكاً مما يتيح الفرصة للقناصة أن تصيب من هذه الجرائم التي تأخذ أشكال البشر.

استمرت المعركة ثلاث ساعات، والقصف فوق رؤوسهم كالمطر، ليعلموا أن دخول غزة ليس كالفرار منها. وقد ترافقت أخبار هذه العملية «استدراج المجرمين» مع الرسالة التي وصلت من علاء إلى «بيبي» وقام هذا بدوره بإطلاع أبيه عليها.

منذ تلك اللحظة قرر «باراك» - وزير الحرب - أن لا يدخل المرحلة الثالثة البرية المزعومة مهما كلفه الثمن. رأى بأم عينه أن غزة جحيم للغزاة فوقف بكل قوته أمام رئيس الحكومة الذي لم تشبعه الدماء التي نزفت، وكان مصراً على التوغل أكثر فأكثر ولكن أنّى له هذا؟! عندما

دخلوها سنة ١٩٦٧م هزمت الجيوش العربية؛ لأنه لم يُرد لها أن تقاتل بينما اليوم مجاهدون، إرادة القتال فيهم نار تحرق الأخضر واليابس، ولا تبقي ولا تذر، مهما تكدّس الحديد في دباباتهم وأدوات الحرب لديهم.

عاد الثلاثة إلى عرينهم تحت الأرض يهمهمون والبهجة تكسو وجوههم والنصر عرس جميل يصدح في قلوبهم.

- اليوم تلقى وزير الجريمة لديهم رسالة بالغة.

- بل رسالتين. رسالة المعركة ورسالتنا لولده.

- لنصلِّ الآن ركعتي شكر لله ونسأله النصر والثبات.

وهتف علاء:

- وأنا الآن اسمحوا لي بقراءة رسالة الخطيبة والرد عليها. «فطاعة أولي الأمر واجبة».

- الله يفتح عليك يا سيدي. تستحق الآن أجمل ليلة أُنس.

- الأنس هناك على ضفاف النيل.

انتفض علاء ورد على تعليقاتهم بهدوء.

- لا والله.. لحظة هنا في هذا النفق أعظم وأروع وأمتع من كل منتجعات مصر والدنيا وما فيها. يكفينا هنا أننا نقف في وجه أعظم طواغيت الإجرام في الأرض قاطبة.

- ولكن الحوار مع الخطيبة وحبيبة القلب بعد هذا البلاء الحسن له مذاق خاص. «اسأل مجرب ولا تسأل طبيب». كان الطعام جاهزاً وكأن

ملائكة قد جهزته. هي فعلاً ملائكة. تغامر وتخوض غمار الجهاد. نسوة رائعات تبرعن لتقديم خدمات لوجستية ضرورية لاستمرار المجاهدين في مواقعهم دون الحاجة إلى الخروج وتعريض أنفسهم لخطر الاغتيال.

تناول علاء لقيمات سريعة ثم انطلق إلى حيث رسالة الحبيبة التي علّق فتحها كل هذا الوقت الطويل.

حبيبي ونور عيني وسعادة حاضري ومستقبلي.

طال ظمئي لسماع نبضات قلبك. تعالت وضجت جنود قلبي دون أن أقدر على ضبطها، فهي في حالة هرج ومرج وإثارة للقلاقل، تنظم مسيرات الاحتجاج العارمة ويعلو هدير مظاهراتها في شوارع قلبي. ليس لها إلا هتاف واحد، وَحَّدَت شعاراتها بكلمة واحدة هي: علاء، علاء، ارفعوا الحصار عن علاء، افتحوا المعابر لعلاء، تضامنوا مع علاء. كونوا أمة واحدة مع علاء.

لقد وحّدت وجمعت وحرَّكت كل ما لدي من مشاعر وحماسة وقوة وبأعلى عزائمي من طاقات، أمة واحدة تريد علاء. تصور حبيبي عندما يكتشف المرء آفاقه المديدة بكل أبعادها فإنه يكون أمة في فرد، أمة حبيبتك يسرى تجوب بقاع الأرض شرقاً وغرباً وتترنم بمقاطع هذه الحروف الأربعة: علاء..

ما أخبارك حبيبي؟ كيف يسير الوقت معك؟ ساعاته ودقائقه وثوانيه،

ماذا عن أوتار قلبك؟ ماذا تعزف هذه الأيام؟ كيف تتقابل نغماتها الهادئة الأنيقة مع عزف الصواريخ والقنابل الفسفورية؟ أنا على ثقة ويقين بأن تفاصيل قلبك الرائعة حتماً قادرة على السيطرة وفرض جماليات حضورها على كل هذا الرعد والبرق وأزيز نيرانهم. جمال نورك يمحو حلكة إجرامهم. لا يصح ولا يعلو سوى علاء. علاء روحك العزيزة. ويأبى الله إلا أن يعزّ أولياءه، أنا لا أكاد أُصدق نفسي وأنا أسير في تضاريس وفيافي شخصك المديدة بأني مقترنة مع كل هذا الفضاء. أنت حبيبي بما تفعل حياة عظيمة للأمة جمعاء. لقد سرت في مظاهرة صاخبة وسط القاهرة. انسجم بل وتماهى نبض قلبي مع نبض هذه الأمة العظيمة لأطل هناك على قصر بديع اسمه مقاومة في فلسطين. كم لي من الشرف الذي ترتعش له جوانحي بأن فارسي وشريك حياتي من العمالقة الذين يصنعون شرف هذه الأمة المجيدة.

متى حبيبي سنلتقي وتقصّ عليَّ من أحسن القصص - كما وعدتني-؟ لقد ملّت الأمة سماع أسوأ القصص التي تسطرها أروقة القصور وحياة المترفين المخملية والبعيدة عن أنّات ونبضات الشعوب.

أنا حبيبي أدعو لك ليل نهار وأتمنى لك العودة السالمة المظفرة. ليس وحدي إنما كل كليَّة الطب تدعو لك ولأهل فلسطين.

حبيبتك التي معك على الدوام

يسرى

انشرح صدر علاء أيّما انشراح، تهللت أسارير وجهه وبدا واضحاً أثر هذه الكلمات. لمس تحولاً واضحاً، إنه تطور عظيم. لم تعد تذكر له أية إشارة عن التخلي والفرار. تريد له ظَفَراً، جبرت سلبية الكلمة التي كانت تغيظه «العودة سالماً»، ثم إخبارها له عن حركة الشارع المصري رغم ماكينة القمع الهائلة التي تعمل عملها هناك، وأيضا مشاركتها في هذا الفعل واستعدادها للوقوف في الجهة المقابلة للقامعين بامتياز. كل هذا إشارات على بشائر التحول نحو الإيجابية في دعم المقاومة. عبّ نفساً عميقاً ورغم رطوبة النفق إلا أنه شعر بأنه مريح. لخَّص هذه الرسالة بقوله: هذا شيء يثلج الصدر. سمعه عبد العزيز فعلّق:

- يثلج أم ينعش الصدر؟! زادك الله من نعيمه يا عم.

وشرع علاء في الرد.

حبيبتي وشمس حياتي:

مداد روحك الجميلة لا ينقطع من حياتي.. دوماً هكذا أنت تصرّين على أعلى درجات المنح والعطاء. شمساً تمدّين كل الكائنات بضيائك الطاهرة، تقهرين الظلام وتصرين على تبديد كل أشكال العجز والجُبن وزخارف البخلاء. يا لك من رائعة، بل أنت رائعة الروائع وبديعة كل البدائع، خاصة وأنتِ القلب النابض في عمق قاهرة المعزّ.. أبداً أنت لا تتخلين عن ميامين الصفوف بل تتألقين في ميادين الثغور.

حبيبتي: أرجو أن تعذريني على ضعف التواصل المكتوب رغم كثافة التواصل القلبي المحموم. ظروفنا صعبة والوصول إلى طرف من أطراف شبكة حبّنا ليس بالأمر السهل، ولكني أبشّرك بأن النصر بات قاب قوسين أو أدنى. نشعر بوضوح بأن الله معنا بكل تفاصيل مقاومتنا الباسلة. المجاهدون يتقنون فنون الصيد المحترف وأعدوا لهذه الحرب عدّتها مع هذا فإن مدد السماء يأتيهم بكل تجلياته الرائعة. تنزل عليهم سكينة في النفوس، رأيتهم في الأنفاق وكل أسلحة الدمار تجوب الأرض والسماء من فوقهم ومع ذلك كأن أحدهم في قصر منيف تجري من تحته أنهار السعادة والرخاء. ملائكة تحارب معهم. أتصدقين! روى لي أحد المواطنين الذي تم التحقيق معهم عدة أيام تحقيقاً ميدانياً قاسياً كان التحقيق يدور حول سؤال واحد.

- ماذا تلبس كتائب المقاومة؟ ما لون لباسهم؟

وكان يريد أن يصل إلى إجابة: «إن هناك من يلبسون اللباس الأبيض» كيف يكون الأبيض لباسهم ومعروف أن هذا اللون يكشف عن صاحبه بسهولة؟

- هناك من يحارب معكم ويلبس البياض. نحن متأكدون من هذا. لقد أكدت روايات كثيرة هذا اللون رغم أنه لا أحد يلبسه من كتائب المقاومة.

إذن: من؟! إنهم ملائكة بفضل الله، ولقد بثت الرعب في قلوب الصهاينة. نحن طبعاً لا نركن إلى هذه الإشاعات رغم مصداقيتها، إن

للمجاهدين منهجاً واضحاً في الصراع: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ إتقان الإعداد وحسن الأداء جنباً إلى جنب مع التوكل على الله والثقة بنصره.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾. هذه هي المعادلة القائمة في غزة بفضل الله، والنصر والغلبة لها بعون الله. تصوري حبيبتي أن من يملك أحدث وأقوى ترسانة عسكرية يخاف ممن يملك أخف وأضعف أنواع السلاح. إنهم لا يجرؤون على دخول غزة وإن دخلوها من أطرافها سرعان ما يولّون الأدبار.

لا شك في أن المعركة قاسية وأيدينا على قلوبنا. نلجأ إلى الدعاء. دعاءٌ حارٌّ مضطرٌ محبّبٌ للعزيز أن يعزّنا، للنصير أن ينصرنا، للقوي أن يقوينا، للولي أن يتولى أمرنا، والله يا حبيبتي إنا لنشمّ رائحة الجنة دون تل الكاشف وعزبة عبد ربه. الجيش الذي قهر ثلاثة جيوش عربية سنة ١٩٦٧م واحتل سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة يقف عاجزاً عن احتلال عزبة عبد ربه منذ حوالي عشرين يوماً. الله أكبر ولله الحمد والعزة لمن ينصره الله في غزة.

مستحيل أن تثنينا صواريخهم وقنابلهم الفسفورية وأطنان المتفجرات التي يلقونها من طائراتهم عن مواصلة مشوار النصر إلا كاستحالة التوقف عن مواصلة مشوار حبنا حتى نصل كل نهاياته السعيدة. ما أروع (روحي) من معانقة النصر لأهل غزة إلا ما كان من روعة المعانقة الأبدية

بين روحينا.

هناك آلاف القصص البطولية على مسرح غزة. أكتشف كل يوم جديداً كما كنت أيام عملي كمسعف أكتشف القصص الإنسانية المأساوية الناتجة عن تجليات إجرامهم. مازلت عند وعدي عندما نلتقي. خاصة وبعد أن يتمم الله علينا نعمه بنصره وعظيم نعمه.

لك مني أحر أشواقي وشغف قلبي

اليوم العشرون للحرب/علاء

قبل أن يأخذ علاء قسطاً من الراحة بعد كل هذه المعارك العسكرية منها والقلبية سمع أنين التبتل والانقطاع الخاشع المخبت في صلاة لم ير مثلها من قبل. رأى قلبين على شكل رجلين - الأمير وعبد العزيز- وهما يقومان لله. سارع وانضم إليهما ليعلق بدوره القلب ببارئه ويقدّم هذه الصلاة العزيزة على راحة جسده الملحّة. سمع آيات كأنه يسمعها أول مرة، نوراً يضيء الكون كله، تتلألأ بألوان زاهية تكاد تخطف القلوب قبل الأبصار بروعة جمالها وإيحاءات أنوارها.. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾. يا إلهي. من ناصرنا؟ من الذي يثبت أقدامنا؟ إنه ذو الجلال والإكرام، العزيز الرحيم الكريم القريب المجيب الولي الحميد. بكل هذا ينصرنا ويفتح لنا كل هذا المدد المديد من كرمه وعزته ورحمته و.. الخ.

إنه سبحانه ينصركم. لن تنصرنا الجيوش العربية، لن تنصرنا الحكومات العربية، لن تنصرنا الأمم المتحدة ولا مجلس الأمن ولا الفيتو الأمريكي يهزمنا ولا السلاح الأمريكي، ولا الموقف الأوروبي الذي ينحاز وقت الشدائد مع أعداء الأمة بكل وقاحة. هكذا هي المقاومة المنصورة لم تتكل على أي من هؤلاء. اتكلت على الواحد القهار. ﴿**أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً**﴾ ها هم المجاهدون يتجردون من كل شيء سوى الوكيل وحده.

ويسير الشيخ آماً بنا تحت لواء سورة محمد ليثير كل مكنونات العزة في نفوسنا ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾.. بينما المتخاذلون الجبناء تُصوّر الآيات أحوالهم: ﴿**فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾..

آيات كلها نور للمؤمنين ونار على الكافرين والمنافقين، لا تدع شاردة ولا واردة من خلجات النفوس إلا وتطوف في حناياها لتعزز جبهة العزة والكرامة الإنسانية الخالدة وتنفي خبث الخور والذل والهوان.

بعد الصلاة وانتعاش الأرواح كان لعبد العزيز دعاء عميق جأر فيه إلى الله أن يرزقنا النصر والفرج، وأن يرفع عنا وعن شعبنا هذا الظلم والطغيان.

انثنى بعد ذلك كل منهم على جنبه ليغرق في سِنَةٍ من النوم سرعان ما يقضّ مضجعها هوائل أحداث جديدة، وأخبار تسفر عن أعداد جديدة

من الجرحى والشهداء.

في اليوم الحادي والعشرين لهذه الحرب الشرسة سعّرت طائرات الجيش الإسرائيلي طلعاتها وصارت تستهدف ما استهدفته سابقاً من مقرات حكومية ومساجد أصيبت بالسعار وفقدت كل صوابها، كذلك المروحيات والدبابات على الأرض، راحت تراوح مكانها. تذهب ليلاً إلى مواقع غير التي ترابط بها في النهار كي لا تستهدفها المقاومة، تغير مواقعها في حدود دوائر لا يزيد قطرها عن مائتي متر مربع، حشدت قوات الإجرام كامل قوتها القتالية وراحت تضرب في عدة محاور، شمال القطاع وشرقه وجنوبه حيث أنفاق الإمداد الموازية لمعبر رفح..كانت تريد إنجازاً معنوياً تثبت به نجاحها في هذه الحرب وتقدمه لدعم رموز الحرب في الانتخابات القادمة. وكانت الانتخابات تقترب بسرعة بعد أن ضيّعت القوات الغازية فرصة تحقيق النصر الخاطف في الأيام الأولى. مازالت صواريخ المقاومة تنهمر على مدن الجنوب الإسرائيلية ومازال سكانها في الملاجىء.

وكان المحللون العسكريون في الفضائيات يتوقعون لهذا الجيش أن يتمكن من التقاط صور يعدو بها إلى تصوير إنجاز كبير أمام الشعب المتعطش لرد هيبة هذا الجيش. أن يأسر مجموعة من المجاهدين أو أن يسيطر على قواعد إطلاق للصواريخ أو كمية من السلاح، أو أن يتصور على الأقل أمام مؤسسة رمزية فلسطينية تثبت أنه المسيطر على الأرض.

لم يتمكن (بفضل الله) من أي شيء من هذا القبيل.

وكانت ليلة لم يشهد القطاع مثيلاً لها حيث سميت ليلة غزة الفسفورية من كثرة القنابل الفسفورية التي أضاءت سماء غزة وأحدثت أصواتاً رهيبة لم تشهدها غزة من قبل ولا أية مدينة في هذا العصر، وكانت القنابل الفسفورية تحدث هذه الأصوات التي تستودع القلوب لدى الحناجر. أصبح واضحاً أن هذا الجيش يريد أن ينهي مهمته في أسرع وقت ممكن، وأن تعود إليه الهيبة التي ضاعت في لبنان.

بالمقابل كثّفت المقاومة من نيرانها ومن صواريخها، ومن محاولات الانقضاض على جنود العدو من خلف خطوطه. وصلت تعليمات إلى المجموعة التي يرابط معها علاء بأن العدو يدفع بكامل قوته دفعة واحدة ليحسم المعركة، هو لا يستطيع لغاية الآن ولن يستطيع بإذن الله والمطلوب من المقاومة الآن التحوّل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم بهدف أن نحسم المعركة نحن لا هم. إنه صراع إرادات، نحن الإرادة الأقوى بحول الله، ثم إن علينا أن نبذل أقصى ما لدينا من قوة وتخطيط وإبداع في خطف جنود لنعزز صفقة التبادل التي من شأنها أن تطلق سراح إخواننا في السجون الإسرائيلية.

أسرّ عبد العزيز لعلاء بأن هناك خطة تعمل عليها إحدى المجموعات التابعة لهم لخطف أحد الجنود هذه الليلة. طلب علاء من أمير المجموعة أن يضمه إلى هذه العملية وأصر إصراراً شديداً، إلا أن الأمير اعتذر؛ لأن

الذين خططوا والذين سينفذون الليلة كانوا قد أعدّوا عدتهم منذ عدة أيام، والأمر لا يحتاج لأي تعديل أو إضافة. ولكن علاء طلب أن يجري العمل على أكثر من اتجاه وأنه جاهز لعملية أخرى إن قدّر له أن يشارك في التخطيط والتنفيذ.

كان علاء يتصور نفسه وقد استطاع أن يفك قيد إخوان له يقبعون في سجون بني صهيون منذ سنوات طويلة. هو يعلم أن منهم من تجاوز الثلاثين سنة. أية سعادة سوف تدخل قلبه إذا تحقق له أن يسهم في سعادة أعز الناس في هذا الشعب الأبي الصابر. أن يستعيد حرية أكرم الناس المغيّبين في ظلمات بني صهيون.

مساءً تحرك ثلاثتهم نحو الأنفاق وعملوا جولة على عدة مواقع من مواقع المقاومة المتقدمة، الصواريخ تطلق حسب المعدّل المطلوب وبأماكن متفرقة، قوات التصدي الباسلة ما زالت تعرقل حركة الدبابات وتمنعها من التقدم في عمق المدن الصامدة. القناصون يتّخذون لهم مواقع عالية ومشرفة، المعنويات تسابق الرياح وترتفع في عنان السماء. في أحد المواقع بشّروا بنجاح عملية الخطف. كيف حصل هذا. انطلق أحدهم يحدّث والفرح يشعُّ في كلماته:

- كان بيتاً من البيوت نتوقع دخول الجيش إليه. طبعاً نشرنا عناصرنا في ثمانية بيوت متوقع دخولها. ربطناها بالأنفاق، كل منها في وسطه فتحة سرية نخرج إليهم منها. أحدها دخل إليه جنودهم يعيثون فيه

فساداً، كعادتهم يستبيحون كل شيء في البيت ويخربون بطريقة منهجية مقصودة علّ هذا الأمر يعيد لجيشهم هيبته المفقودة والمهانة، كانوا داخل البيت أربعة، في غيّهم سادرين، طمأنتهم النار الكثيفة التي حصدت كل شيء في هذا الحي الصغير الذي يضّجع بجوار مدينة غزة. وصعد أربعة آخرون على سطح المنزل لعمل تغطية وحراسة لمن هم داخله ومن هم، مازالوا في المسافة القصيرة الفاصلة بين باب الدبابة المجنزرة وباب المنزل الوادع الآمن. كانت كل وسائل الأمن والأمان متوفرة وبأعلى جدارة ممكنة. (القوات البرية ذات الوزن الثقيل) قوة على السطح، طائرة استطلاع وطائرات مروحية تطوف سماء الحي المنخفض. أحد الجنود ألقى القبض على ألبوم صور كانت لأطفال المنزل. ألقى بها تحت قدميه وهو يقول. أطفال إرهابيون، هؤلاء يرضعون الإرهاب قبل أن يولدوا. رأى صورة على الحائط للزوجين، فأطاح بها بعقب بندقيته، جلس أحدهم على طاولة الحاسوب وكأنه تذكر أن الكهرباء مقطوعة فكسر لوحة المفاتيح وألقى بها أرضاً. على ما يبدو كان أحدهم ضابطاً كبيراً، تعرف ذلك من لون حذائه ومن طريقة ربط قلنسوته على كتفه.

- كنا ثلاثة، واحد ينتظر في النفق واثنان نختبئ في المطبخ خلف الثلاجة، وكانت بداية النفق في المطبخ ذاته خلفنا.. لم يصلوا المطبخ بعد. خفنا أن يغادروا المنزل فتضيع الفرصة. انطلقنا إليه حيث كان اثنان منهم في غرفة النوم واثنان في الصالة. فاجأناهم بإطلاق نار

من داخل المنزل لنقتل اثنين على الفور ثم قتلنا الثالث، ولو أردنا قتل الرابع لفعلنا على الفور ولكن المطلوب هو خطفه وخلال ثوان قبل أن تطبق علينا النيران. طلبنا من الرابع أن يلقي سلاحه وإلا فسيموت فوراً. ارتعد من كلمة الموت، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ..﴾ ألقى سلاحه فانقضضت عليه كالصقر ودفعته باتجاه النفق، وغصنا به في باطن الأرض. سمعنا خلفنا إطلاق نارٍ كثيف من سطح المنزل حسبوا الأغبياء أن الهجوم جاءهم من الخارج.

كان يبكي كطفل، يحبو على ركبتيه كل عدة أمتار، لا تقوى ساقاه على حمله من الهلع الذي اجتاح أركانه، نطمئنه وندفع به بالَّتي هي أحسن: نقول له بالعبرية لا تخف، لن نقتلك، أنت لدينا كنز ثمين، سنبادلك بأسرانا، لو أردنا قتلك لقتلناك مع رفاقك، فقط ما عليك إلا أن تسير معنا دون أية حركة يمين أو شمال. لا تنس، الحبة في بيت النار. وهكذا سار معنا كالحلاوة في الحلق.

سأل علاء. وأين هو الآن؟! أفهم أن لدينا جندياً آخر؟

- نعم، هذا بفضل الله علينا.
- إذاً لن يبقى أحد في السجون.
- بعون الله تعالى.
- فلنعضّ عليه بالنواجذ.
- هو في مكان آمن وعليه حراسة من نخبتنا، لا تقلق ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً

وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾..

وانطلق الثلاثة وهم في غاية الرّضا والحبور وشُكرِ المولى على هذا الإنجاز العظيم. في موقع آخر كانت هناك عملية خطف شبيهة، دخلوا على الجنود من نفق وسط المنزل، قتلوا من في البيت ولم يتمكنوا من سحب أحدهم حياً لدكّ البيت بالقذائف والصواريخ فوراً، فانسحبوا عبر النفق وعادوا أدراجهم بسلام.

في موقع آخر تحدثوا عن الأشباح الاستشهاديين. أحدهم ألقى بنفسه من الطابق الثاني على فوهة دبابة فجرها من الداخل، وواحد عانق ناقلة جند وفجر نفسه فيها. قالوا لنا إنهم يمنعون الشباب من هذه العمليات الاستشهادية، ولو تركنا الحبل على غاربه لتسابق مئات الشباب على الاستشهاد ولكنا نريد الحياة لنا ولهم والشهادة ليست بحد ذاتها غاية مجردة وإنما هي ضرورة لصناعة النصر والحياة لهذا الشعب ولهذه الأمة. وكذلك فإن هناك من التجهيزات العسكرية التي لا تضطرنا إلى العمل الاستشهادي وإنما هو الضرب بالقذائف والقنص والرمي بمهارة.

عاد علاء وهو يشعر بأنها كانت جولة عزّة وقوة وريادة وإبداع، جولة على مواقع الشجاعة والكرامة والسيادة الحقيقية. سيادة تحت الأرض خير من ركوع وسجود واستسلام حتى النخاع، ولو كان ذلك في القصور أو في فنادق خمس نجوم.. هناك أبواق للأسف تردد ما قاله الناطق العسكري الإسرائيلي بأن قادة المقاومة في فنادق خمس نجوم بينما يرى

علاء بأم عينه من استشهد منهم ومن يتعرض للموت كل يوم عشرات المرات. ابتسم وهو يردد: قد تكون الأنفاق هذه خمسة نجوم وهو لا يدري.

عاد الثلاثة إلى قاعدتهم والتي كانت بمثابة غرفة عمليات للمنطقة، كانوا يقيّمون الوضع في الميدان، لم يكن الأمر سهلاً، وصلت الأمور إلى أعلى مراحل الصراع، مرحلة كسر عظم بين الطرفين، كل طرف يدفع بكامل قوته، جحافل الاحتلال الجوية والبرية تقذف بكل حممها الثقيلة والخفيفة، التقليدية والمحرّمة دولياً، وكان أشدّها وطأة على الناس تلك المسماة «الفسفورية».. راعدة، مزلزلة، خانقة برائحتها، حارقة وتفرش على مساحة واسعة.

كان الدعاء ملجأهم، يلهجون إلى بارئهم وتتماهى قلوبهم مع ملايين القلوب الداعية من مشرق الأرض ومغربها. يستشعرون من أعماقهم أنهم ليسوا وحدهم في المعركة. الأمة كلها معهم وقبل الأمة ربّ الأمة وربّ كل الأمم، ربّ العالمين. أرحم الراحمين، العزيز الجبار المنتقم. يلجأ القلب دوماً إلى أرحم الراحمين داعياً لهذا الشعب الذي وقع تحت رحمة من لا يرحم من أشباه البشر، وينشد العزيز المنتقم أن ينتقم من الظالمين الجزّارين الصانعين للموت والدمار في كل مكان.

تعلّم علاء كيف يدعو ويصلي بعمق من عبد العزيز وأمير المجموعة. كانوا كما يتقنون فن الأخذ بالسلاح الناريّ بقوة يتقنون فن الأخذ بالسلاح الروحي بقوة. والأولى تستمد القوة من الثانية. في البداية كان

علاء يعجب من قوة شكيمتهم، هذه النفوس التي لا تتعتع ولا تتردد ولا توجل ولا تعرف التراجع أو تأخير قدم من موطئها المتقدم لحظة واحدة أو جزءاً من الثانية. يرددون أمامه حديث رسول الله: «**إن الله لا يترحم على أمة لا يأخذ الضعيف فيهم حقه غير متعتع**».. هكذا اكتشف علاء سر هذه النفوس، عقيدة قتالية عالية لا مجال فيها للضعفاء. وهذا ما ينقص المسلمين المستضعفين في كل مكان. هم بحاجة إلى الإيمان بالقوي العزيز الذي لا يقبل أن يكون عباده ضعفاء أذلاء. يؤمنون بالقوي العزيز كما يؤمنون بالرحمن الرحيم. فالرحمة من الله للذي يأخذ حقه دون أن يتعتع ولا مجال للرحمة أن تصل الضعيف الذي يتنازل عن حقه. هذه إذن معادلة يلحقونها بمعادلتي إحسان الأداء وصدق التوكل. تلك المعادلات التي أصبح علاء يراها قوة حية تتحرك على الأرض بل وتحت باطن الأرض في أنفاق العزة هذه.

لم تكن قاعدة غرفة العمليات شاغرة حينما عادوا، بل كان هناك خليّة نحل نسائية، كانت إحداهن قد جهزت قائمة بأهم أخبار الحرب الميدانية والإقليمية والدولية، رصدت كل الأحداث وكل ردود الفعل وحركة الشارع العربي والإسلامي وأبرز تحاليل أصحاب الشأن في القراءات السياسية للحرب في غزة، وكذلك ما يجري على الساحة الإسرائيلية.

وكانت ثانية تحمل في جعبتها أخبار وآراء المواقع الميدانية الأخرى التي استطاعت الشبكة النسائية العاملة معها أن تتواصل مع أغلب المواقع

الشمالية في القطاع.

وثالثة اعتادت أن تُنسّق المواقف مع الفصائل المقاومة المشاركة وتضع الكل المقاوم في حالة تواصل دائم وتوحيد للمواقف.

ورابعة تتابع تزويد المواقع بالذخائر المطلوبة ورصد ما ينقص في كل موقع ثم العمل على تعويض هذا النقص.

وكان غير هؤلاء من يتابع شؤون الطعام والدواء ومستلزمات الصحة العامة للمجاهدين وتلتزم بتوصيلها إليهم في مواقعهم القتالية المتقدمة.

تفاجأ علاء من حجم المهام الملقاة على عاتق الحركة النسائية في هذه المعركة حيث تسطّر النساء جنباً إلى جنب كل حروف النصر وكلماته في هذه الملحمة الرائعة.

بعد الاطلاع على البريد الوارد وعمل الردود السريعة والتواصل الشوري الذي تقوم به هذه الحركة النسائية ليشمل كل المواقع، والمطروح اليوم للتشاور والرد عليه غداً: فكرة تتردد في الأوساط الإسرائيلية وهي أنهم قد يعلنون عن وقف إطلاق النار من جانب واحد.. والمطلوب هو تحليل هذه الأخبار وكيفية التعامل معها وما هو موقف المقاومة إن أُعلنت بشكل رسمي؟!

منسقة التشاور الميداني جلست لتستمع للحوار وتُسجل خلاصة موقف من هم في هذا الموقع بينما انشغلت كل من الأخريات في عملها وغادر بعضهن بعد أن أوصلن ما لديهن من أخبار ومهام..

بدأ عبد العزيز النقاش بقوله:

- قد تكون هذه الأخبار من باب الإيهام بقرب نهاية المعركة بينما النهاية بعيدة. هذا يؤدي إلى الاسترخاء فيجب الانتباه الكامل حتى تضع الحرب أوزارها بالفعل.

- حتى بعد أن تضع أوزارها نحن علينا أن نبدأ من جديد للتجهيز للمعركة القادمة؛ لأن هؤلاء أصلاً لا يعرفون العيش دون دماء..

قال علاء بهدوئه الذي يشع حكمة:

- إعلانهم لوقف النار (إن حصل) هل سيكون مترافقاً مع الانسحاب الكامل من القطاع أم لا؟ أتصور أن مصير هذه الحرب بالنسبة لنا يجب أن يرتبط بالانسحاب الكامل ورفع الحصار أما دون ذلك فسيكون من باب ذرّ الرماد في العيون لا أكثر ولا أقل.

- هم يتمنون على كل الوسطاء في المنطقة خاصة مصر أن تضغط على المقاومة بخصوص وقف إطلاق الصواريخ، فشلوا عسكرياً في الوصول إلى أهدافهم فيريدون أن يصلوا بالسياسة، خابوا وخسروا. تابع الأمير وزاد على كلام عبد العزيز.

- هم الآن كالذي يضع شفرة في حلقه لا يستطيع لفظها ولا يستطيع بلعها. بقاؤهم في القطاع جحيم، وخروجهم دون تحقيق أهدافهم الجحيم أهون عليهم منه؛ لأن في ذلك إمعاناً في خسارة جيشهم لهيبته.

تململ علاء قليلاً في جلسته ثم قال:

- لعلّ رسالتنا (لباراك) وصلت وأخذت مفعولها، هم الآن عاجزون عن دخول العمق الغزاوي، كانت خسارتهم كبيرة على الأطراف فكيف بهم إذا وصلوا العمق، من حيث المجاهدين في ثغورهم يتلمظون على اليوم الذي يلتحم فيه الطرفان. هو يخشى الخسارة البشرية؛ لأن هذا يعني خسارته في الانتخابات وهو أصلاً ما دخل الحرب إلا لزيادة رصيد حزبه في هذه الانتخابات. أصبح لزاماً على الشعب الفلسطيني أن يدفع ضريبة انتخاباتهم من دمائه. شعب متطرّف لا يرضيه إلا المزيد من الدماء الفلسطينية.

- إذا وصلت الرسالة فإن تسريب هذه المعلومة عن الصواريخ الخارقة للدروع ستسرّب الهلع إلى أوصاله وسيحلم بكابوس هزيمةٍ ساحقة له في الانتخابات.

- هذا ما سيحصل بإذن الله.

رفعت المنسقة الشورية يدها وقالت:

- الوقت يا جماعة، ماذا عن موقفنا حالة إعلانهم عن وقف إطلاق النار من جانب واحد. مواقفكم باختصار إذا سمحتم.

رد الأمير:

- لابد من النظر في حجم الدّمار والقتل والجراح التي خلفتها هذه الحرب.

سارع عبد العزيز:

- هذه اليد التي يوجعوننا من خلالها، وهي بالفعل موجعة «قال مؤكداً»

- أنستجيب لهم إذن؟ هذا محال.

- هي ليست استجابة لهم وإنما جزء أساسي من حساباتنا.

- وهذا هو هدفهم من هذه الجرائم. أن نحسب لهم ألف حساب.

«بلغت حدته ذروتها»:

– وهل من المعقول أن لا تدخل كل هذه الدماء في حساباتنا. يا رجل من لا يَرحم لا يُرحم، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

ردّ عبد العزيز محاولاً مسك زمام هدوئه:

- أدرك تماماً أن الرحمة واجبة، ولكن هذا الاحتلال دأبه الدائم أن يقوم بالردع من خلال القتل والتدمير؟! لنرتدع سياسياً ونستجيب لشروطه وأهدافه التي يريدها من هذه المعارك. لذلك قالوا بأن المقاومة هي سبب هذه الحرب، ولو أنها حسبت حسابها جيداً لوافقت على تجديد التهدئة، ولما وقعت الحرب، فهي وفق هذا المنطق هي المسؤولة عن كل هذه الضحايا، هي التي أعطت الذريعة للاحتلال أن يقوم بكل هذه الجرائم!!

- هذا الكلام فيه غلوّ ومبالغة. ومتى كان الاحتلال يحتاج إلى ذرائع لجرائمه. وهل أعطيناه الذرائع أيضاً عندما احتل بلادنا؟!

- لست أنا القائل. هناك فريق يقول هذا كلما تعرّضنا للعدوان الصهيوني. نحن ننسجم مع هذا الفريق إذا استجبنا للضغط الإجرامي ورحنا نحسب حسابات الخسائر التي يحتاجها الاحتلال لإقامة الردع

ولوضع القيود في أيدي المقاومة.

هنا خرج علاء عن صمته وهتف بطريقته الهادئة.

- إذا سمحتم لي أنتم تطرحون المسألة بين نقيضين، إما أن نحسب لهذا القتل والدمار وبالتالي ندخل معادلة الردع وفق ما يريد الاحتلال، أو لا نحسب قطعياً، وبالتالي نبدو وكأننا لا تعنينا حجم المأساة التي تحدثها هذه الحرب. أرى أن هناك خطأً ثالثاً وهو لابد وأن نحسب، بل ونعمل كل جهدنا لتجنيب أهلنا وشعبنا هذه المأساة ولكن دون الوقوع في معادلة الردع التي يريدها الاحتلال. سأل عبد العزيز ببالغ اهتمامه:

- وكيف يكون هذا؟!

- بأمرين: الأول تحقق بفضل الله وهو الردع المتبادل. وهذا ما تقوم به المقاومة بفعلها على الأرض. ﴿**فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ**﴾.

والثاني: أن نتمتع بمرونة في الجانب السياسي، نتجاوب مع المبادرات، وجيّد أن نُبادر في إبداء استعدادنا بوقف إطلاق الصواريخ مقابل الانسحاب الكامل ورفع الحصار وفتح كل المعابر. أي أن حسابات الربح والخسارة تكون وفق معادلتنا لا وفق معادلتهم.

انشرحت أسارير وجه الأمير وهتف:

- هذا ما أفكر به ولكن الحكيم (علاء) أبان وأوجز.

وتابع عبد العزيز: أي دون إفراط أو تفريط، من غير انبطاح واستسلام

أو تهوّر واندفاع ونطح الخرقة الحمراء التي ترفع في مصارعة الثيران «على رأي مالك بن نبي»، وهذا حدّنا الأدنى المطلوب، واقعي وقوي ولا يُبقي حجة ولا يعطي ذريعة لمواصلة الاعتداء على شعبنا الأعزل. «وعقب عبد العزيز»:

- هي دائماً هكذا.. الحسابات السياسية الدقيقة مرنة وثابتة وفي نفس الوقت تحقق النتائج وتسد الذرائع.

وختم الأمير موجهاً كلامه لمنسقة شورى الموقع:- أرجو أن تكتبي سيدتي، هذا هو خلاصة رأينا.

ثم موجهاً كلامه لرفاقه مشوباً بالمزاح:

- حان موعد القيلولة الليلية عباد الله إلا إذا أراد البعض رؤية شيء آخر على الشبكة الالكترونية. (قاصداً علاء).

رد علاء: - أنا لا أعرف النوم دونها. لأرى أولاً أين وصلت الأمور بين بيبي وأبيه.

فتح علاء الحاسوب ففتحت له هذه الرسالة ذراعيها:

صديقي العزيز علاء..

استجابة لطلبك مني المساهمة في وقف هذه الحرب اللعينة واستجابة لدماء الأطفال قبل ذلك، فقد كظمت غيظي، كظم من توضع ثقال الصخور على صدره، هذا الذي يُسمى أبي. تصور: عندما ناقشته بهدوء

وساعدته في تلك المعلومات التي وردتني منك راح يبث لي مكنونات صدره. ليتها بقيت مخبوءة وبقي أبي في نفسي ذاك البطل القومي لهذا الشعب الذي أنتمي إليه. هكذا كان رغم اعتراضاتي الكثيرة عليه في هذه الحرب التي فتحت عيون بصيرتي على بعض الجوانب التي كانت عليَّ خافية كما هي على الأغلبية الإسرائيلية الجاهلة التي أعمتها أحقادها. مكنوناته الدفينة صديقي، هي كيف يحقق تقدماً في الانتخابات له شخصياً أولاً ولحزبه ثانياً. أيعقل أن تكون دماء الأطفال طريقاً لصندوق الاقتراع. أين هي المثل الأخلاقية الشامخة والتي كان دوماً يتشدق بها؟ ألا سحقاً لهذه الديمقراطية المزيّفة التي تبرر غايات زعامتها الوضيعة ووسائلها غير الشريفة. وقد بلغت بهم أن تكون دماء الأطفال والنساء الفلسطينية هي أشرف وسائلهم، بها يتقربون زُلفى إلى صندوق الاقتراع ورغبات هذا الشعب الذي ينجرف مع اليمين المتطرف بلا هوادة. تصور أن المستفيد الأكبر (حسب استطلاعات الرأي) هو حزب «إسرائيل بيتنا»هذا المركب من «المافيا»الروسية على المزايدة الدينية على التطرف إلى أبعد حدّ في العداء للجنس العربي. ولو سألتني ما هو سرّ استفادته من هذه الحرب؟ هو التحريض على قتل العرب ودعوته لاستخدام النووي في قصف غزة كما فعلت أمريكا مع اليابان في «ناجازاكي وهيروشيما».. بهذا يزداد رصيده. وأبي الذي يُمثّل حزبه اليسار وقد رباني منذ صغري على العلمانية والقيم اليسارية أجده الآن يسلك نفس طريق «ليبرمان» بل إن «ليبرمان» يكتفي

بالقول وأبي يقوم بالفعل. وهكذا ينهار المثال الذي بني في أعماقي منذ الصغر في لحظات.

أصبحت صديقي علاء أرى أبي مصبوغاً بدماء الأطفال، لا أطيق رؤيته، كنت أشك بأنه قد يكون من مجرمي الحرب عندما وقفت على حجم المأساة في غزة، ولكني الآن تأكدت من أنه قمّة الهرم الإجرامي في هذه الحرب، هكذا أصبح ألعوبة ومستخدماً من قبل اليمين الأهوج. هو نفسه يكره حتى النخاع رئيس وزرائه «أولمرت» وكذلك يكره وزيرة الخارجية ومع هذا يشكّل معهم مثلث الرعب في هذه الحرب.

حساباته صديقي هي أن يحصد عشرة مقاعد بعد الحرب وقد دلّت استطلاعات الرأي أنه لغاية الآن ربح ٥-٦ مقاعد. وقد كشفت لي أيضاً أن هناك دولاً عربية تشاركه نفس الحسابات.. أنتم العرب أيضاً عندكم زعامات فاسدة بل هي أشد فساداً من زعاماتنا. وأنا الآن والمهم عندي أن أبي أصبح في زمرة الفاسدين. أنا في حيرة من أمري، في الجامعة أقف ضد الحرب وأنظر لليسار الإسرائيلي الذي أدرك أنه فقد البوصلة وسار في ركب الأسوأ في إسرائيل. أسير باتجاه، وأبي يسير بالاتجاه الآخر بكل عنف وتطرف لا أدري إلى أين تسير بنا هذه الحرب، وما هو شكلنا في المستقبل ودماء أطفال غزة لعنة تطاردنا جميعاً.

هذا هو حالي صديقي. كم تمنيت أن أكون طفلاً من الذين يقتلون في غزة على أن أكون قاتل طفل أو ساكتا عن قتل طفل. هي الآن أمامي

واضحة كالشمس في رابعة النهار. إما أن أقف مع الطفل البريء أو أن تكون مع القاتل الدنيء.

أية خدمة (صديقي) تسهم في وقف هذه المهزلة فأنا جاهز.

تحياتي الخالصة عزيزي علاء..

بيبي

أطلَع علاء صاحبيه على هذه الرسالة. علّق عبد العزيز:

- أتوقع له قريباً أن يهاجر من هذه البلاد، التطرف الصهيوني تيّار جارف أو حوامة من المياه العكر تطرد العناصر الصافية.

وسأل الأمير:

- يُبدي استعداداً للخدمة، هذا شيء رائع. هل أعددت له شيئاً؟

- أفكر في كتابة مقال أخاطب فيه الجيل الصهيوني القادم ونشره في إحدى الصحف الصهيونية الكبيرة.

- وهل ينشرونه لك. هذا مستحيل خاصّة في ظل هذه الحرب التي مورس فيها أشد أنواع التكتيم. أغرقوها في ظلام إعلامهم الماكر.

- لهذا أود العرض عليه أن ينشرها باسمه. سترحّب جداً صحافتهم بها كونها مثيرة للجدل ومن ابن وزير حربهم، ستكون صرعة في الشارع الصهيوني.

اعترض الأمير الفكرة قائلاً وهو يقلّص تجاعيد وجهه حول عينيه:

- هذا مطبٌّ أخلاقي. كيف تدعوه إلى وضع اسمه على مقال لغيره؟

- كلامك صحيح. المسألة تحتاج إلى تدبير.

قال عبد العزيز:

- هذه سهلة. ضع بين يديه الأفكار الرئيسية واقترح عليه كتابة المقال، اضرب على وتر قناعاته الجديدة تنجح في تبنّيه الموضوع.

- حسناً. سأحاول بإذن الله.

- ولكن ليس الآن. خذ لنفسك سِنَةً من النوم.

- تعرفني لا أستطيع النوم وفي جعبتي مهمة مؤجلة. أمورنا في هذه الحرب لا تحتمل التأجيل مطلقاً.

- ومتى ستفتح بريدك الآخر؟ هتف عبد العزيز مبتسماً.

- بعد إنجاز هذه المهمة.

صديقي بيبي،

أشواقي وتحياتي وحبي الخالص أطيّره إلى أعزّ حبيب وأصدق إنسان، إني أعتزّ وأفتخر بك وأنت تنحاز إلى أنّات المنكوبين وصرخات الأطفال، وحقائق الإنسان الذي تنهمر في دياره وفوق رأسه كل أسلحة الدمار، فلا تبقى من إنسانية هذا الإنسان إلا وأصابته في العمق وفي كل مساحة من

مساحاته.

صديقي العزيز بيبي..

لديّ فكرة أقترحها عليك وهي الخروج قليلاً من حالة الصدام العنيف إلى حالة الحوار اللطيف، أن تحاور العقل الإسرائيلي القادم من خلال مقالة تنشرها في إحدى الصحف الهامة عندكم. لماذا الجيل القادم؟ لأن الحالي - وكما ترى - مرد على الحرب وقسى قلبه واستحكم في قوالب صلدة جامدة لا يستطيع منها فكاكاً. أما الجيل القادم فعسى أن يفتح الله قلبه ويعي ما وعيته أنت فنوفّر عليه وعلى أنفسنا حروباً قادمة. أدرك أن خطاب العقول أمرّ وأقسى من قعقعة السلاح وطبول الحرب.

ولكن لن نخسر شيئاً إن حاورنا العقل. وأنتم لديكم مساحة واسعة لحرية الرأي وهذا مفتوح عليكم في دوائركم الفكرية بينما لا يسمح لمثلي أن ينشر عندكم. للأسف إعلامنا لا يخاطب الآخر لولا الجزيرة الإنجليزية التي طلبت منك متابعتها بداية الحرب.

أقترح عليك صديقي أن تبدأ المقال بهذه القصة حتى تبقى عالقة في الأذهان ومنها تنطلق لبقية الأفكار.

يُحكى أن بيضة صقر تدحرجت من عشها أعلى الشجرة. استقرّ بها المقام على الأرض في قن دجاج. ركضت عليها دجاجة حتى إذا جاء الميلاد فقست فرخ صقر. ولما كبر بعد أن نمى وترعرع بين الدجاج نظر إلى السماء فرأى طيوراً تشبهه ففكر أن يُحلق عالياً. حذّرته معاشر

الدجاج من عواقب هذا الطيران فأطاعها، عاش دجاجة ومات دجاجة رغم أنه صقر. ثم لو أنك ناقشت القصة في الفكرة التالية: ماذا سيكون لو حلّق هذا الصقر ولم يُطع الدجاج؟! سيرى كم كان مغبوناً وكم كانت أفكاره وتصوراته للحياة ضيّقة، ثم إن النظر من داخل الدائرة يختلف عن النظر من خارج الدائرة. طبعاً دائرة المنظومة القيمية والتربوية التي نشأ فيها قد حجبت عنه الرؤية الكليّة للأمور. والطيران يرمز إلى عملية السمو والارتفاع عن الحدود الضيقة للتفكير. وهكذا تستثمر هذه القصة في الدعوة إلى الخروج من دائرة (الجيتو) الذي فرضته الصهيونية على عقول اليهود في المشروع الذي سمّوه «دولة إسرائيل».

• الخروج من دائرة الجغرافيا الصهيونية والتحليق عالياً لرؤية شعوب الأرض قاطبة والتي تملأ شوارع بلدانها احتجاجاً على إسرائيل وإجرامها الذي تمارسه على أرض غزة. لماذا يتظاهر العرب والمسلمون؟! إذا كانت هذه مفهومة فلماذا يتظاهر الأوروبيون؟ أمريكا الجنوبية؟ فنزويلا وبوليفيا؟ كندا؟ استراليا؟

حتى في الولايات المتحدة وبريطانيا؟ ألوف مؤلفة لماذا تحتج؟ حتى إن دولاً كانت تُعتبر صديقة قبل أيام من الحرب مثل تركيا لماذا تحتج حكومة وشعباً ويخرج الناس إلى الشوارع بالملايين. بإمكانك أن تستفيض في هذا الفضاء العالمي الواسع الاحتجاج والاستنكار على الإجرام المتواصل على غزة.

• الخروج من دائرة التاريخ المعاصر الذي تصنع أحداثه شخصيات وأحزاب مَهَرت في الاحتيال والكذب وممارسة الإجرام عبر حروب يقع ضحيتها أطفال ونساء وأبرياء دون أن يكون لها مآرب سوى المآرب الشاذة لهذه الأطراف. كما وضَّحت ذلك في تجربتك مع أبيك في رسالتك لي. الخروج من هذه الدائرة الضيقة إلى الفضاء الأوسع في ماضي وتاريخ هذه المنطقة. عندما قامت هذه الدولة هل كانت هذه الأرض في فراغ؟ ألم يكن هناك بشر؟ ألم يكن لهم تاريخ وماض وحاضر ومستقبل؟! كيف تم قطع هذا التاريخ وبداية تاريخ جديد لهذه الأرض لشعب جديد ذهب بالذي سبقه؟! أين ذهب الذي سبقه؟ من هؤلاء الذين يُقتلون في غزة؟ ٧٥٪ منهم لاجئون أي من أصحاب التاريخ الذي كان قبل قيام التاريخ الجديد. ماذا فعلنا بهم سابقاً سنة ١٩٦٧م؟! وماذا نفعل بهم الآن؟! وماذا نحن فاعلون بهم مستقبلاً؟!

وهكذا صديقي نفتح آفاقاً أوسع للتفكير ونحاول تفهُّم آلام الضحية والقدرة على تحليق الصقور العالي الذي يرى الفضاء الأوسع للتاريخ.

فقط صديقي هدف المقال هو الدّعوة إلى التفكير ولكن بأفق أوسع يصل بنا إلى رؤية المشهد من جميع جوانبه. مشكلة الشعب الإسرائيلي أنه يكتفي برواية واحدة مقطوعة الجذور ومحدودة المكان والزمان. تماماً كمن يُصرّ على مشاهدة مشهدٍ واحدٍ من مسرحيةٍ طويلةٍ تحتوي على مشاهد كثيرة. ما نريده هو أن يحضروا كامل المسرحية من أجل تشكيل

الرؤيا الشاملة التي تساعد في الحكم المنصف عليها..

ثم جَيدٌ ختم المقال بالعودة إلى القصة التي بدأنا فيها للتحذير من الذين يصرّون على وجهة نظر الدجاج التي دعت الصقر إلى نبذ فكرة التحليق عالياً والبقاء معها طالما أن العلف متوفر وموجود عند الأقدام. وأنا مع طرح مثال صارخ على دعاة العلف حتى أرذل العمر رغم أنه حائز على جائزة نوبل للسلام ألا وهو هذا الخرف العجوز «شمعون بيرس» الذي وقف في مؤتمر «دافوس» يدافع بكل صلف ووقاحة عن القتل والدمار في غزة وينكر أن هناك أطفالاً يقتلون مما حذى برئيس وزراء تركيا «رجب طيب أردوغان» أن يقول له: إن علوّ صوتك دليل على شعورك بالذنب ولكنك تجيد إخفاء أنك متّهم.. منعوه من الاستمرار بمقارعة الحجة بالحجة فما كان منه إلا أن تركهم في غيّهم يعمهون وغادر..

جيد صديقي الاستشهاد بهذا، سيأتي اليوم الذي تُؤخذ فيه جائزة نوبل للأوقح، وأعتقد أنك توافقني الرأي تماماً وأعتقد أنه لا يمكن أن يختلف اثنان غير صهيونيين على ذلك.

عزيزي بيبي لنتعاهد على أن نستمر في محاولاتنا لفتح العقول وتنوير كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

وفقك الله وسدد خطاك..

أخوك/علاء..

استغرب علاء وصاحباه سرعة هذا الإنجاز إذ فتح علاء صباحاً على موقع صحيفة «هآرتس» فوجد مقالاً في مكان بارز تحت عنوان: من صاحب جائزة نوبل للأوقح؟! بقلم بيبي باراك.

بدأ به ببيضة الصقر وانتهى بالدجاجة العتقية الشوهاء التي أخذت شكل «شمعون بيرس» وهو جالس على منصة مؤتمر «دافوس» بينما تجلس بجواره دجاجة دولية دون أجنحة وعربية عرجاء وممعوطة الريش وديك فصيح لم يحتمل البقاء بين هذه الدجاجات هو رجب طيب أردوغان.

وكان من نقده الرائع في المقال للعقل الصهيوني في الرد على سؤالهم الموجه للأمريكيين: «لو أن كاليفورنيا أمطرت بالصواريخ من المكسيك ماذا تفعل؟! حتماً ستدافع عن نفسها. ولكن الكاتب اليوناني (تاكي) رد على السؤال بسؤال آخر يعيد القضية إلى أصلها: لو أن أهل كاليفورنيا طردوا منها وأصبحوا لاجئين في المكسيك ماذا تراهم يفعلون؟!

قال علاء في نفسه: لو أردت كتابة المقال بنفسي ما كتبته هكذا كما كتبه «بيبي» طبعاً لأنه الأعلم بالعقل الصهيوني وطرق مخاطبته.

بدأ اليوم الثاني والعشرون بهجمات شرسة من كل مكان في جو القطاع وبحره وحدوده البرية. كشفت الحرب عن ساقها بكل ضراوة وقد كان الفشل الذريع في كل محاولات التوغل في العمق أو إيقاع إصابات نوعية في المقاومة يعوّضون عنه في القصف العشوائي وزيادة عدد الضحايا من المدنيين. في هذا اليوم زاد عدد العائلات التي كانت تصاب بالكامل. إبادة

عائلية أو ما أصبح معروفاً العائلة الشهيدة. ينزل الصاروخ على المنزل فيقتل كل من فيه وهناك قنابل تتشظى بقطع قاتلة أو قاطعة للأطراف تقتل كل من يقع في دائرة الموت التي تنتشر فيها الشظايا. هذا اليوم كان مجزرة مفتوحة في كل المحاور التي كان يدور عليها القتال.

واستبسل المجاهدون، يخرجون للدبابات من تحت الأرض يرمونها بقذائفهم فيعطبون منها، وسرعان ما تولي الأدبار مدّعية تغيير التكتيك وعدم التمركز طويلاً في نفس المكان لئلا تتمكن المقاومة من استهدافها.

تحولت الأنفاق تحت الأرض إلى خلايا نحل. المقاتلون يتحركون من موقع لآخر حسب توجيهات عيون الرصد التي تحدد لهم أماكن تواجد جحافل الجيش المجرمة، يتحرك هذا الجيش المدجج بالدبابات فوق الأرض بينما يتحرك الجيش الآخر المدجج بالإرادة والإيمان تحت الأرض، يخرج لهم من حيث لم يحتسبوا إما بالقذائف أو بالعبوات الناسفة أو بالاستشهاديين الذين يَقتلون ويُقتلون.

واستمر أيضاً إطلاق الصواريخ، ورهان المقاومة على فشل الحرب، وعدم تمكن الجيش الصهيوني من الوصول إلى أهدافه، رغم كل التقنيات الرادارية التي تستخدمها طائرات الاستطلاع المدوية على مدار الأربع وعشرين ساعة إلا أنها فشلت في تحديد مواقع إطلاق الصواريخ إلا في حالات قليلة لمقاومين غير محترفين ولم يستجيبوا لخبرة الإطلاق والاختفاء تحت الأرض في أقل من دقيقتين.

في هذا اليوم كان الثلاثة يتحركون على المواقع القتالية المتقدمة يحثّون الجهود، يعزّزون النجاحات، يعالجون المتطلبات والاحتياجات ويتفقدون النواقص من ذخائر ومعدات قتالية، وكانوا يشاركون في الرّمي مع بعض المجاهدين حالة وصولهم والمواجهة ملتهبة عند هذا الموقع أو ذاك.. يقول علاء عن هذه الرحلة:

«كنا في المنطقة المحاذية لحي تل الهوى حيث المعارك الضارية. الدبابات التي سيطرت على هذا الحي الذي كان قبل الحرب وادعاً آمناً بعيداً عن صخب المدينة وكثافة الأحياء المتراصة. أصبح اليوم ميداناً للمعارك ومسرحاً تستعرض فيه الدبابات الصهيونية عضلاتها.

عندما ظهرنا فوق سطح الأرض رأينا دماراً مهولاً في هذا الحي وكأننا جئنا مكانا لا نعرفه، فَرَكْنا عيوننا لتتضح الرؤية، أرجعنا البصر مرتين، هو حي تل الهوى ولكن مرت ماكينة الدمار من هنا، الرائحة من القنابل الفسفورية وخيمة وكأن هناك جيفاً قد زرعت في كل مكان، الأصوات تهزُّ هدوء المكان الذي كان رائعاً وأنيساً لسكان هذا الحي، اليوم تأتي الأصوات من كل مكان وبشتى الألوان، أطفال غزة يميّزون بين أصوات القذائف. من الصوت فوراً يقول لك أحدهم: هذه قنبلة (F16)، هذا صاروخ مروحية، هذه قذيفة «الزنّانة» (طائرة الاستطلاع)، هذه قنبلة فسفورية وهكذا.

كان هناك خمس دبابات وجرافة عملاقة متمركزة على طرف

الحي بين المنطقة الفاصلة بين الحي وغزة، وكان هناك مخطط جاهز عند المجاهدين في الموقع الأقرب يقضي بالتسلل لاثنين من المجاهدين خلف خطوط العدو الأمامية وخلف هذه الدبابات الخمس التي تستعد للانقضاض على ما يخيّل لها أنه فريسة لها وترمي أيضاً حمماً بركانية ولكنها حادة وقاسية وخاطفة.

عادوا ثانية تحت الأرض ليروا ما نوى عليه اثنان من هذه المجموعة:

عبد العزيز أصرَّ أن يكون ثالثهما، المسألة لا تحتاج ثلاثة! فطلب أن يكون بدل أحدهما. ولكن كيف ولماذا؟ رفض الاثنان. وبعد أن استبدَّ الجدل تدخَّل الأمير فطرح القرعة. طلب علاء أن يدخل القرعة معهم فأصبحوا أربعة، والمطلوب اثنان.. استهموا فكان الأمر لأحدهم مع عبد العزيز.

ابتهلت القلوب إلى بارئها تسأل عمليةً ناجحةً موجعة وأن تعيدهم لنا سالمين، كانوا يراقبون الهدف المتمثل في هذه الدبابات الخمس وينتظرون قيام قيامتها بعد أن يأتيهم المجاهدون من الخلف، من حيث يأمنون، كانت شبكة الأنفاق تمرّ من تحت هذه الدبابات وكان المطلوب هو تشبيك سلسلة من الألغام في هذه الأنفاق حيث المكان الذي تربض عليه دباباتهم. ثم تفجيرها عن بعد إن أمكن وإلا فالاستشهاد دونهم. وبعد التفجير تمطرهم مواقع المقاومة المحيطة بقذائف الهاون وأل «آر بي جي» ثم بعد ذلك من يُرى راجلاً أو هارباً من دبابته يتناوشه القناصون.

كان على ما يبدو الوداع الأخير بين علاء وعبد العزيز، كان حاراً مفعماً بالإيمان، كانت الأرواح تتعانق دون الشعور بالأجساد. أجسادهم مجرد وسائط للأرواح الخالدة. قال عبد العزيز ودمعة حارة تفلت من عينيه:

- نلتقي بإذن الله في الفردوس الأعلى.

رد علاء:

- إن كُتِبَت لك فسألحق بك. لن أتأخر عنك بإذن الله.

- علاء، سننتصر بإذن الله... الشهداء أحياء، سأشارك في احتفال النصر من هناك.

كانت عيناه ترنوان نحو السماء، كان شامخاً، واثقاً، مبتهجاً وكأنه ذاهب للقاء حبيبته.

كان الوقت المتوقع لتشبيك المتفجرات من تحتهم حسب الخطة تسع دقائق. عبد العزيز ومن معه خبراء في هذا المجال. كان الانتظار طويلاً والدبابات تعلو مزمجرة بمحركاتها، كانت الخشية في تغيير موقعها وبالتالي تبتعد عن شبكة الأنفاق التي يعمل فيها عبد العزيز وصاحبه. انتهت التسع دقائق، الأيدي على الزناد والقلوب بلغت الحناجر وهي تلهج بالدعاء. نصرك يا الله. عونك يا الله، يا قوي يا عزيز يا الله. انتهت الدقيقة العاشرة، الحادية عشرة، هل اكتشف سلاح هندستهم النفق قبل تمركزهم هناك؟ هناك وحدة قالوا عنها إنها تدربت لمدة سنتين (قبل

المعركة) على اكتشاف الأنفاق وتمشيط المنطقة قبل توغل الدبابات فيها.

مع بداية الدقيقة الرابعة عشرة، زأر عبد العزيز بصوت حاد اخترق كل الأصوات التي يضج بها المكان. سمعه كل المجاهدين بقلوبهم المترقبة بكل وضوح. الله أكبر صاح بها صيحة بلال يوم فتح مكة، ثم تزلزلت أركان الأرض بطريقة لم يكن يتوقعها أحد وكانت كاميرا المقاومة تصور من إحدى النوافذ العالية.. ثارت الأرض من تحتهم وأخرجت كل أثقالها. علاء فهم التكبير بأنه الشهادة. لم يستطع عبد العزيز وصاحبه تدبير أمر انسحابهم كما كان مخططاً فاختاروا الاستشهاد على أن يتراجعوا عن هذه العملية الكبيرة.

وبدأت القذائف تنهمر على الموقع قبل وصول المروحيات التي تسارع بالرد على النيران بصواريخ ساحقة تسحق من يظهر أمامها. وضرب القناصون ضرباتهم المركزة على الجنود الهاربين من دباباتهم الجريحة.

وكان الغبار ينقشع عن عدة دبابات تحولت إلى جثث هامدة وسيارات إسعافهم العسكرية تنقل الجرحى عندما وصلت المروحيات، فانسحب المجاهدون واختفوا في أنفاقهم كي يفوّتوا الفرصة عليها أن تصيب أحداً من المجاهدين.

بعد ساعة كانت الفضائيات تبثّ صور المعركة ولم تستطع محطات العدو (على الرغم من كل إجراءات التعتيم التي ظللت بها الحرب) أن تتجاوز هذه الصور، فعرضت مقطعاً منها واعترفت بسقوط عدد من

الجنود. ولم يدّع هذه المرة بأن الضحايا كانت بنيران صديقة نتجت عن خطأ فني كما كانت تقول في المرات السابقة.

كانت عودة علاء والأمير دون عبد العزيز (رغم فرحة ما حققوه على الأرض) حزينة ومؤلمة، علاء شعر بأنه كان طائراً يحلق عالياً مع عبد العزيز والآن فقد جناحاً. عليه من اليوم فصاعداً أن يحلّق بجناح واحد. كيف؟ لا يدري ولكنه في زمن المعجزات. ها هي المقاومة التي تصنع المعجزة إذ كيف تتمكن من صدِّ هذا العدوان بكل ما يحمل من شراسة العدة والعدد؟ خمسة ألوية هي عماد كامل القوة العسكرية الصهيونية مسلحة بأعتى سلاح يعرفه العالم. اليوم تنجح المقاومة في وقف تقدمها وتبطل سحرها، ثلّة من المجاهدين الذين يملكون أعظم إمكانيات القتال تواضعاً. سلاحهم الأول عقيدتهم في القتال، إرادتهم الحرة القوية، شعبهم الصابر الصامد مع المقاومة، قيادتهم الشجاعة، هذه المعادلة إذاً: شعب صامد + قيادة حكيمة وشجاعة + مقاومون أحرار= نصرا عزيزا.

كان علاء وهو يقترب من العودة إلى قاعدته سالماً وغبار المعركة يكسو جسده عدة طبقات يتحرق شوقاً لأمرين «بيبي باراك» صديقه المتحرر من عفن أبيه، وتلك الحبيبة! آه لقد امتلأت جعبته من القصص التي يودُّ أن يبثَّها إليها طمعاً بأن تقوم بدورها في نشرها للعالمين حفظاً لحقوق هؤلاء الأبطال المجاهدين.

دخل علاء مع أميره غرفة العمليات التي رَحُبَت عليهم بما ضاقت، حيث إنهم يحملون في صدورهم فرحة انتصارات تم تحقيقها في الميدان، وكانت غصّة فراق عبد العزيز تملأ حلوقهم علقماً. هكذا هي المعارك تتداخل فيها المشاعر، حلاوة الشهادة (التي أبى عبد العزيز أن تضع الحرب أوزارها قبل أن يتذوق شهدها) مع حرارة الفراق، فراق الأحبة، رفاق الإيمان والسلاح، ما أصعب هذا الفراق، لم يكن اجتماعهم على الزيت والملح حتى يصعب الفراق، وإنما كان على النار والكرامة، الرصاص والعزّة، ما صعوبة هذا الفراق إلا كصعوبة فراق الروح عن الجسد، عندما يكون في ريعان شبابه.

وكانت منسِّقة شورى المواقع بانتظارهم. أفرغوا ما بجعبتهم من أخبار سارّة مع خبر استشهاد عبد العزيز. استرجعت وبدا وقع الخبر عميقاً وظاهراً على صفحة وجهها، تهدَّج صوتها وكان كصوت مذيعة تنقل خبر مجزرة:

- لديّ خبر صعب.. شد الأمير صوته وهتف:

- قولي يا أخت الرجال، نحن لكل الصعاب، إنها الحرب..

- قُتل الجندي الأسير.

- من «جلعاد شاليط»؟!

- لا، الجندي الذي أسر قبل أيام. دمّروا البيت مع ملجئه العميق الذي كان الجندي فيه مع حراسه. أنزلوا عليه من طائرة (F16) قنبلة فراغية

تركت البيت وما تحته قاعاً صفصفاً.

- كيف وصلوا إلى مكانه؟! مش معقول «صرخ علاء» خارجاً عن سمته الهادئة.

تابعت:

- الأخـوة يحللون بـأن جنودهم يحملون مـادة مشفرة أو ممغنطة إلكترونياً يستطيعون من خلالها تحديد موقعه، وقد ثبت أنهم يفضّلون قتله على بقائه في الأسر، كما فعلوا في حوادث سابقة؛ ولأن المطلوب لتحرير أسيرهم «شاليط» ثمن باهظ من تحرير أسرانا البواسل في سجونهم.

- حسبُنا الله ونعم الوكيل.

غار علاء في صمته وراح يدعو الله من أعماقه النصر والفرج.

أصبح واضحاً أن العضّ على الأصابع على أشده في هذه اللحظات العصيبة، وحملت الأخبار أن العدو يحاول توظيف كل حلفائه في المنطقة من أجل الضغط سياسياً على المقاومة بعد فشله عسكرياً. وكذلك هناك ضغط إنساني من خلال حجم المأساة التي تُحدثها آلات إجرامه في أهدافها المدنية، ومع استمرار الحصار وتضافر جهود العرب المتصهينة في الإصرار على غلق المعبر العربي الوحيد (معبر رفح) أمام الإمدادات الغذائية والعلاجية وحركة المتطوعين من أطباء وخبراء في مجالات تقديم الخدمات الإنسانية للشعب الذي كان محاصراً وأصبح محاصراً

ومنكوباً ومدمراً وجريحاً. ثم تحوّل علاء إلى الحاسوب ليجمع التواصل مع الأرض إلى تواصله مع السماء من خلال شبكتين: الانترنت وتلك الشبكة القلبية الإلكترونية التي تربطه بحبل السماء.

عرج بداية على موقع (الجزيرة نت) ليجد ما ينعش الصدر، العالم العربي والإسلامي وكل العالم المتحرر من العفن الصهيوني والإمبريالي يقف على قدم وساق، المؤسسات الإنسانية والهيئات الدولية ترفع صوتها وتستنكر الإجرام الصهيوني في غزة، صورة هذه الدولة أصبحت في الحضيض وأصبحت الصور والشعارات المرفوعة في آلاف المسيرات والمظاهرات صور الضحايا الأطفال والمقارنة الواضحة بين «الهولوكوست النازي» والمحرقة الإسرائيلية في غزة. يرى المشاهد على كل شاشات التلفزة صورة الصليب المعقوف (رمز النازية) وصورة نجمة داوود الإسرائيلية. ولم تكن هذه الصورة سهلة على هذا الكيان الذي دأب منذ عشرات السنين على تحسين الصورة، فجاءت هذه الحرب لتظهر الصورة على حقيقتها.

• وجد علاء أن هناك شعوباً عريقة قد أعادت الصراع إلى جذوره الحقيقية، مثل تركيا التي هتفت مظاهراتها.. «إذا رفض السلطان عبد الحميد أن يعطي وطناً قومياً لليهود في فلسطين فاليوم عندنا مليون سلطان عبد الحميد».

• ووجد الدعوات تتوالى في العديد من الدول لمقاطعة البضائع

الإسرائيلية والأمريكية.

• ووجد مقالات سياسية (لا تعد ولا تحصى) تهاجم النظام الرسمي العربي وتتهمه بالتواطؤ مع الإجرام الإسرائيلي وفي هذا السياق أفصحت وزيرة الخارجية الإسرائيلية بأن ما تسمعه من الزعامة العربية مباشرة غير ما يصرّحون به في الإعلام، وقال البعض إن الزعامة العربية بقيت تنتظر لعمل اجتماع قمة عربية وهو اكتمال النصاب من عدد الشهداء في غزة وهو ألف شهيد على الأقل.

• وكان من أجمل ما رأى مشهد أطفال غزة وهم يحرقون المنشورات التي تلقيها الطائرات الإسرائيلية في سياق حربه التعسفية على أهل غزة.

• ومن الأخبار صواريخ المقاومة تصيب قاعدة «بلميخ» الجوية والتي تبعد ٥٠ كم جنوب غزة.

• ومن أجمل ما قيل في مؤتمر القمة في الدوحة ما قاله الرئيس السوري بشار الأسد:

- كل طفل يُقتل يزرع عشرات المقاومين.

- كل طفل سنعلمه عند ميلاده: لا تنسَ، حتى إذا كبر قال: لن أنسى ولن أغفر.

- سنعلّق على جدار غرف أطفالنا صور الضحايا.

- يسألون: كيف تسعى للسلام وتدعم المقاومة. والسؤال يجب أن يكون: لماذا لا تدعم المقاومة وأنت تريد السلام؟

- المبادرة العربية للسلام تم نقلها من سجل الأحياء إلى سجل الأموات.

• بلغ عدد الشهداء في غزة لغاية اليوم ١٣٠٠ شهيد وما يزيد عن خمسة آلاف جريح. (منهم ٤٢٠ طفلا و٩٥ امرأة).

• قصف مستشفى القدس وتوزيع الجرحى الذين يعالجون فيه على المستشفيات الأخرى.

بعد هذه الجولة السريعة لهذه الأخبار ذهب إلى بريده ليفتح رسالة من «بيبي».

أخي العزيز علاء:

تصوّر كم وصلت درجة الحقد الأعمى والروح الإنسانية ذات المستوى العالي والمميز! كاتب ومحلل إسرائيلي كبير يقول بأنه يتمتع برؤية الأشلاء المقطعة للضحايا الفلسطينيين، حمَّام الدم يستمر عندكم وأنا كل يوم في هذه الحرب يزيدني إصراراً على مشروعٍ سأجعله لك مفاجأة بإذن الله.

يذهلني صمود الناس في غزة؟ كيف يتحمّلون كل هذا الدمار بعدما كانوا فيه من حصار، وحتى الأطفال منهم، لقد سمعت مقابلات مع الناس والأطفال، إنه شيء أشبه ما يكون من المعجزات التي كان الأنبياء يأتون بها. ما أروع الطفلة التي ختمت كلامها بعفوية تامة: ليفعلوا ما يريدون نحن منغرسون في أرض المحشر والمنشر.

قل لي يا علاء: ما هو سرُّ هذا الصمود لديكم؟ أنا أقارنه مع صمود

الشعب الإسرائيلي فلا أرى هنا إلا الهلع والانهيارات النفسية ومِن ماذا؟! من إصابات صواريخ بدائية لا تقارن بأي حال من الأحوال مع صواريخ الجيش الإسرائيلي.. لقد سمعت من مصادر عسكرية أن مجموع ما رمى به جيشنا الهمام قطاع غزة مليون طن من المتفجرات وهذا يفوق عدّة مرات ما ألقي على لندن خلال أربع سنوات حربٍ من قِبَلِ الجيش النازي، إضافة إلى القنابل غير التقليدية، الفسفوري والدايم ومنها المشع باليورانيوم.. وشعبنا الذي يتبنّى هذه الحرب الأخلاقية عندما يسمع ويرى القنابل الفسفورية يسأل لم لا تلقون المزيد منها، وعندما يسمع عن مقتل ٤٠٠ طفل و ١٣٠٠ مدني يسأل لم لم تقتلوا أكثر.

أرجوك يا علاء، أسعفني في الإجابة عن السؤال: ما هو سر صمودكم؟

ولقد رأيت طفلة تواسي قطة.

رأيتها بأم عيني عبر الجزيرة حيث كانت هذه الطفلة «دلال أبو عيشة» في بيت جدتها عندما قصفت الكوبرا «مروحية» بسمومها الحاقدة بيت دلال. فقُتل على الفور أبوها وأمها وأخوتها. إنهم بشر لهم إحساس وأمل وطموح وحياة، لهم أسماء تدعى: محمد، أسيد، غيداء. لدلال مع كل من إخوتها رواية حياة بكل تفاصيل المستقبل والأمل.. جاءت إلى البيت لتروي للناس أنه كان فيه حياة، أذكر وأنا صغير كان لي قفص أربّي فيه العصافير.. وكانت عائلة متكاملة الأركان، زقزقة وغناء، مزاحٌ وأفراح وليالٍ ملاح. أستأنس بها وأشاركها الحياة، في غفلة منا تسلل قط الجيران

وتمكن من افتراسها دون كلام. أذكر أني سكت عن الكلام وصدمني أن يكون هناك كائن في الحياة لا يعرف معنى الحياة. اليوم يضرب المفترس الصهيوني ضربات الموت التي تأخذ من أمامها العائلات بأكمل ما فيها من حياة. صعقتني الطفلة دلال عندما لم تجد في البيت من أثر للحياة سوى قطتها التي عانقتها بكل حب ووئام. من الذي يعزّي الآخر. من الذي يضمّد جراح الآخر. القطة أم دلال. القطة تموء بكل لوعة واحتراق بينما دلال تصبّر وتتصبر، تربت على قطتها وتدعوها إلى تجاوز الآلام.

بربك يا علاء: ما هو سر هذا الصمود؟!

سلام عليك.. بيبي

اليوم الثاني والعشرون في تاريخ الإجرام

صديقي العزيز «بيبي»

حول سؤالك عن سر الصمود لدينا أعتقد أنه يعود إلى سر الوجود في هذه الحياة بكل ما يحقق كرامتنا من دين وأرض وعرض وعدالة قضية ومعان نبيلة، فنحن لسنا شعباً مقطوعاً من شجرة، بل شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، منذ ستّين سنة والصهيونية تحاول اجتثاث هذه الشجرة من خلال ما ترتكب من حروب مدمرة ومجازر فتصمد هذه الشجرة بكل قوة وإباء! ما هو سر صمودها؟ جذورها الضاربة في الأرض، نحن يا سيدي أصحاب امتداد حضاري ساد العالم مئات

القرون، وكانت هذه السيادة والرّيادة في عالم القيم الإنسانية الرفيعة، نحن عندما سُدنا انتصرنا حضارياً وأخلاقياً وهذا سرُّ بقائنا وصمودنا مهما واجهنا من زلازل وأعاصير تدمِّر الحضارة والقيم الإنسانية. واجهت الأمة الغزو المغولي. النتيجة كانت أن ذاب الغازي في المغزو؛ لأنه لا يملك رسالة حضارية بينما كنّا نحن الحضارة الإنسانية في ذاك الزمان، غزانا الصليبيون فارتدّوا من بلادنا بعد أن تعلّموا فقه الحضارة الإنسانية، حملوا من عندنا بذورها وعادوا ليزرعوها لتنهض بعد ذلك أوروبا ولتشرق فيها شمس الحضارة. والآن تغزونا الصهيونية، ولأنها الآن ترتكب كل هذه الجرائم فإنّها تقدّم الدليل القاطع على أنها لا تملك رسالة حضارية وأنها إلى زوال كما زال غيرها.

عندنا صديقي آية في القرآن تقول: ﴿**إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾. الصلاح هو طريق وراثة الأرض. أما الظلم والعدوان وقهر الشعوب فليس له أن يعمَّر طويلاً خاصة على هذه الأرض المقدسة.

نحن وإياكم (صديقي) نؤمن بالله، وأن الدين من عند الله ولكن أيّ دين يجعل كبير حاخاماتكم يشرح للجنود على مشارف غزة، وقبل ولوغهم في دمائنا، صدقية هذه الحرب، وقال لهم: «إن هؤلاء الفلسطينيين إن لم نقتلهم قتلونا، الفلسطينيون ليسوا بشراً، إنهم إرهابيون»، لِم لم يقرأ عليهم تعليمات التوراة: لا تقتل. لا تسرق. لا تزن.. الخ. هذه تجعله عارياً

أمامهم. لا تسرق وقد سرقوا أرضنا من سنة ١٩٤٨م وهـؤلاء المعتدى عليهم والذي يحض الجيش على قتلهم، مهجّرون من ديارهم ولاجئون منذ ذلك الحين بعد أن سرقت منهم. ثم مورس عليهم القتل بعد ذلك مرات ومرات كان هذا آخرها. هؤلاء القادة الدينيون، يستخدمون القادة السياسيين عندكم لإنتاج أسوأ رسالة حضارية ممكنة. اقرأ صديقي رسائل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء من بعده للجيوش التي كانت تملك الرسالة الحضارية «**لا تقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة، لا تقطعوا شجرة..**» وكان يسالم من سالمه ﴿**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا**﴾ ويعفو عمن قدر عليه ولا يظلم أحداً. لذلك دخلت الناس في دين الله أفواجاً وسادت حضارة الإسلام لتقود الحضارة الإنسانية أربعة عشر قرناً.

هذا سرُّ صمودنا ثقتنا بالله الذي يريد للبشرية جمعاء العدل والرحمة لا الذي يمثّله الحاخامات وكأنه يريد القتل والدمار ونشر الظلم في ربوع الأرض. وكذلك الثقة العالية بعدالة القضية. وهذا يعطينا الصبر على المكاره مهما عظمت والتوكل على الله والثقة بنصره وتأييده مما يحقق التماسك النفسي، والروح المعنوية العالية.

وهذا ما هو ثابت على الأرض رغم التفاوت الهائل بأدوات الحرب والتجهيزات العسكرية لكلا الطرفين، والتي تبدو بالمقياس المادي وكأن نملة تناطح نمراً. بينما بالروح الإيمانية والمعنوية تنقلب النملة نمراً

ويتضاءل النمر ليصبح خنزيرا. والدليل على هذا: ماذا لو عكسنا أدوات المعركة فكان ما لدى الإسرائيليين عند الفلسطينيين وما عند الفلسطينيين عند الإسرائيليين. كيف ستكون معنوياتكم وهل لديكم مشافٍ كافية لاستيعاب حالات الهلع والانهيار النفسي التي ستحدث حينها؟!

صديقي الغالي بيبي..

أنا على أحرّ من الجمر لرؤية مفاجأتك وهذا المشروع الذي لم تبُح به لي في رسالتك، إذا أحببت أن أتوقع فإني أتوقعه حركة تلمُّ فيها الأصوات التي تعارض الحرب وتدعو فيها لرفع الظلم عن قطاع غزة من القتل إلى فتح المعابر مروراً بالحصار والتجويع، تماماً كما تذكر حركة الأمهات الأربع التي وقفت في وجه استمرار الاحتلال لجنوب لبنان في تسعينيات القرن الماضي، ونجحت نهاية المطاف.

أتوقع منك صديقي دوماً ما هو خير؛ لأنك قبل كل شيء إنسان حر تنشد الحق وتخدم الحق.

مع خالص تحياتي/علاء

اليوم ٢٢ من مجزرة غزة

وكان لعلاء أيضاً حديث آخر عن مشروع ومفاجأة. فتح ببراعم قلبه رسالة من الحبيبة وإذا بها:

حبيبي علاء..

لم أشعر بحبي لك من قبل كما أشعر به هذه الأيـام، كنتَ حبيبي ومازلت ولكنّي أرى أن حبي لك بلغ الآن عنان السماء، بل الفردوس الأعلى وأعالي الجنان. وكأن حبي لك سابقاً كان حباً أرضياً بينما الآن أصبح سماوياً. وإني أفهم شعوري هذا تماماً إذ كانت آمالنا وطموحاتنا قبل هذه الحرب تدور في فلك ذواتنا بينما الآن سبَقْتني أنت بالخروج من هذا الفلك إلى فلك ميدان الكرامة والحرية، وليس هذا لذات شخصك وإنما لشعبك وأمتك. فأين هذا الفلك من ذاك. أخيراً فهمت رسالتك وأبشرك بأني لحقت بك.

حبيبي علاء، الأمة كلها تتحرر من ذواتها الضيقة وتنطلق نحو الفلك الأعظم لهذه الأمة. رسالة السماء لهذه الأرض. التحرر والانعتاق من كل آلهة الأرض التي تصادر حرية الإنسان وتمرغ كرامته بالتراب.

لقد كشفت مأساة غزة كم كانت الشعوب العربية مُستعبدة بل مُستغفلة ومُستحقرة واسمح لي بالقول مُستحمرة. نعم عندما تخنع هذه الشعوب لهؤلاء الظَلَمة والجَهلة وترضى بأن تُسلب إرادتها ثم توظّف لخدمة الصهاينة وقوى الاستكبار العالمي فإنها مُستحمرة، عندما يرفض النظام المصري فتح مجرى التنفس الرئيسي للرئة الوحيدة التي يتنفس منها أهل غزة والمسمى (معبر رفح) ويضرب بعرض الحائط مشاعر ثمانين مليون مصري ومشاعر الأمة الإسلامية قاطبة، لم يكن هناك أساساً أي

حدود بين مصر وفلسطين، وكلمة معبر هي كلمة عبرية تم استحداثها أيام الاحتلال وبعد اتفاقية كامب ديفيد اللعينة، هذا النظام لا يعتبر أن من يحكمهم أناس أحرار يملكون الثورة عليه أو تغييره وانتخاب غيره؛ لأنه أصلاً غير منتخب. أنا حبيبي قررت أن أكون حرة مثلك تماماً. كسرت القيد عن عقلي وأصبحت أفكر معك تماماً على طول الخط، وإذا بي أُحلّق بمشاعري عالياً جداً في سماء الحرية المديدة لتعانق مشاعرك هناك، بعد أن كانت تتعانق على «كورنيش النيل» أصبحت أشعر بأنها الآن تتعانق على «كورنيش الجنة وحرية غزة».

أطمح حبيبي وإياك أن نرسم حباً كريماً نعبّد طريقه بأعمال الكرماء الأحرار لتصل إلى قصر منيف مبني على أرض الكرامة قوامه الحرية ومواد بنائه التفاني في خدمة الضعفاء والمظلومين أما سقفه فهو تحقيق الانتصار على شذاذ الآفاق بإذن الله.

لدي مشروع حبيبي سأجعله مفاجأة لك وفي الوقت المناسب.

ألتقيك في بلاد لا يسكنها إلا الأحرار الذين لا يطأطئون رؤوسهم ولا تذلّ جباههم إلا لله وحده.. أو في بلاد الشوق والحب الأزلي حيث منتهى العشاق ومسكن عباد الرحمن، هي حبيبي الحسنيان اللذان لا ثالث لهما، إما هذه أو تلك..

حبي الخالص الصافي الرفيع السماوي لك يا علاء

يسرى /اليوم ٢٢ من حرب التحرر والكرامة

طار عالياً وكأنه قد أصبح طائرالفينيق مع هذه الكلمات، شعر بأنه روح بلا جسد وأنه الآن فعلاً في عالم آخر شفاف منير غير هذا العالم القاتم الكئيب، وتساءل في نفسه: ما الذي جرى لك يا حبيبة القلب؟ ما سر هذه النقلة النوعية؟ بداية المعركة كانت تريد لي الفرار وتولية الأدبار بينما الآن تحلق معي عالياً وتريدني الثبات في السماوات. إنها فعلاً عزة المقاومة وبركات الجهاد. لقد أحيت حرب غزة الأمة من بعد موات، أيقظت في أعماق النفوس نخوة الانتصار أزالت ركام الذلة والمهانة والاستعباد. انتفضت من الأعماق وانحازت لحريتها وكرامتها التي تولد معها قبل أن تشوهها أيدي الحكام. اسمح لي سيدي الفاروق أن أضيف أداة استفهام على مقولتك العابرة للقارات: متى وكيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. كيف سأكتب عنها لحبيبتي حفاظاً على روعة التجليات.

حبيبة الروح والفؤاد المحلقة في الفردوس وأعالي سماء قلبي، كم سرتني وأنعشت روحي كلماتك التي تقف أمامها عاجزة كل الكلمات. ما هذا التألق وقمة الروعة وأعلى درجات العشق والجمال؟!

اليوم ومع رسالتك أصبح لدينا أول طائرة (F16)، أصبح لدينا الآن سلاح جو فعلاً. أشعر الآن بأني مسلح بطائرة عملاقة قادرة على سحق كل طائراتهم. هذا المستوى العالي الرفيع من أحوال العشاق يفوق بقوة مدده القلبي أعتى القوى المادية مهما عظمت فإنها تتضاءل صاغرة أمام

قدميك أيتها الحبيبة.

قطعه عن الكتابة صوت أمير المجموعة وهو يكبّر.

• الله أكبر، هُزمت خيبر. لقد أعلنوا وقف إطلاق النار من جانب واحد. المقاومة بدورها أعلنت وقفها لنيرانها وأعطت مهلة أسبوع للانسحاب الكامل من القطاع. دماؤك لن تذهب هدراً يا عبد العزيز.

تابع علاء كتابته منتشياً، وصلني الآن خبر الانتصار. أعلنوا وقف إطلاق النار، هذا يعني أنهم يئسوا من الوصول إلى أي هدف من أهدافهم بالقوة العسكرية والإجرام والعربدة. صواريخنا استمرت في الانطلاق لغاية اللحظة لم يتمكنوا من مجرد أن يأخذوا لهم صورا أمام مراكز سيادية ولو للحظة واحدة - كما كان يتوقع المحللون - أعلنوا عن مهزلة مصوّرة عبر تلفازهم الرسمي سيطرتهم على مخزن سلاح. كان مضحكاً، مثيراً للسخرية «غاب وجاب». بعض المواد الأولية لصناعة المتفجرات وقاعدة إطلاق صواريخ بلاستية؟! قطعة حديد تُلبَّس على قاعدة صغيرة لا يزيد ثمنها على خمسة دولارات.

مبروك حبيبتي، اسمحي لي الآن أنا مشتاق جداً لمستشفى الشفاء، لي فيه ذكريات عظيمة، وأود أن أتابع شؤون المصابين الأطفال.

تحياتي الحارة بحجم مئة طن من المتفجرات

علاء/اليوم الثالث والعشرون من حرب الفرقان

قال الأمير:

- الآن بدأ وقت العمل.

- أي عمل؟! ألم تضع الحرب أوزارها. «هتف علاء مستغرباً».

- هـؤلاء لا يؤمن مكرهم. الآن سنبدأ الاستعداد للمعركة القادمة، ستكون أعظم شراسة من هذه. هذا هو دأبهم ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾، أطفأ الله هذه الحرب في صدورهم وسيعاودون إشعالها.

- المقاومة لهم بالمرصاد بإذن الله.

- هـذا يتطلب مضاعفة التجهيزات. هناك اجتماع تقييمي لأمـراء المجموعات.. ما رأيك بالمشاركة فيه؟!

- ولكني لست أميراً.

- أنت لست أميراً وإنما أمير الأمراء.

- أستغفر الله. ما أنا إلا فقير يرجو رحمة ربه.

- تواضع كما يحلو لك. عندنا يدل على المرء فعله، وفعلك تعجز عنه الأمراء. لقد قدمت الكثير دكتور علاء.

- يا سيدي هذا من فضل الله عليّ وعلينا أن أعزّنا الله بالجهاد، لولا هذه الحرب لبقينا نرتع في دنيانا وفي حدود ذواتنا الضيقة غير عابئين بسَوط الاحتلال الذي يلهب به ظهر شعبنا في غزة صباح مساء.

- قطع الحديث رنين اللاسلكي، كان حديثاً مستعجلاً، سرعان ما عُلم مراده. هتف الأمير:

- ها هم يستعجلوننا. لابد وأن نذهب للاجتماع بسرعة.

سارا معاً فوق الأرض. ما أجمل السير في الهواء الطلق، خاصة هواء غزة بعليله البحري الناعم. كان يوماً مشمساً متألقاً. هدأت السماء من الأصوات الغليظة النافرة التي تهزّ الأبدان وتمر كمرور تيار كهربائي مفاجئ في الجسد.. بقي صوت طائرة الاستطلاع التي اشتقَّ لها الغزّيون اسماً من صوتها «الزنَّانة». الناس تخرج من بيوتها، تتجمع مجموعات صغيرة، تتعانق والكل يدلي بدلوه من الأحاديث المحمومة، هذا يتحدث عن قصة شهيد وذاك عن عائلة أصيبت بالكامل، ومن يحلل التحليلات السياسية أثناء الحرب وما بعد الحرب ومن يصبُّ جام غضبه على الأنظمة العربية وحكامها، كان علاء وصاحبه يمرّان على الناس مسرعين في حين تتناهى إلى أسماعهم كلمات أحاديث الناس الملتهبة، ودَّ علاء أن يتوقف فيشارك الناس هذه الشجون العذبة وكان يريد أن يتعرّف بنفسه على مواقف الناس بخصوص المقاومة.

يذكر علاء من مواقف أهالي المقاتلين أن مجاهداً حدّثهم عن رسائل أبيه، كن دائماً في المقدمة، إيّاك أن تتراجع، سر والله معك، لا تخش الموت، كلنا ميّتون ولكن إما بكرامة أو بمذلة، اختر لنفسك ميتة كريمة، كل يوم يبعث له جملة تدفعه باتجاه البطولة، فجأة جاءته هذه الرسالة: أريد أن تدبر لي حزاماً ناسفاً حتى إذا دخلوا بيتنا فجّرتهم فيه.. يذكر أن عمر هذا الأب قد تجاوز الستين. ومجاهد آخر حدّث علاء أن أمه أوصته

حين فراقها بالجهاد وقالت له: اسمع يا ابني أريد منك أحد أمرين ولا ثالث لهما: نصر أو شهادة، لا ترجع لي دون أحدهما.

وكانت النساء والفتيات يتمنين على المجاهدين أن يشاركنهم القتال أو على الأقل تقديم كل ما يمكن تقديمه للمجاهدين.

ومن قبيل هذا وهو يغذّ السير، كان يسمع ما يعزّز حالة ضلع المثلث الصامد فتكتمل في ذهنه الأضلاع الثلاثة للنصر: شعب صامد + قيادة حكيمة + مقاومة شجاعة. كل ذلك تحقق في هذه الحرب وبالتالي كان النصر بفضل الله.

ومما لفت انتباه علاء أنهما عندما دخلا مخيم جباليا وجد أن الشوارع قد امتلأت أطفالاً يتراكضون ويلعبون، وكأنهم كانوا في حالة جوع وظمأ للشارع واللعب فيه حيث إنه لا ملعب لهم سواه، أو أنهم كانوا يحاولون تفريغ الاحتقان والضغط النفسي الذي جاءت به الحرب، وكان هناك هاجس ينتاب علاء، قد يكون الإعلان عن وقف إطلاق النار خدعة حتى يخرج المجاهدون من ثغورهم المحصنة على أعين طائراتهم في الجو وعملائهم على الأرض.

وسط مخيم جباليا المكتظ بكل شيء، بالبيوت والناس والسيارات وحركة الشارع وملاعب الأطفال على هوامش الطرق الواسعة! هناك سار علاء خلف رفيقه من زقاق لآخر حتى توقف أخيراً. دخلا بيتاً منه هبطا سلّماً تحت الأرض ليجدا ملجأً يجتمع فيه قرابة عشرين رجلاً، جاءوا

ممثلين لمناطقهم، كانوا جميعاً ملثمين إلا القيادات التي حُرِقت إعلامياً. شعر علاء بالفخر والاعتزاز، حتى في أحلك الظروف تُمارس الشورى. ما هذا الاحترام للعقل، هؤلاء المجتمعون يحملون آراء جنودهم وما يتمخض عن هذا اللقاء يُرفع للمستوى الأعلى وهكذا يشارك الجميع في صناعة القرار، ويلٌ لأنظمتنا العربية ماذا تخسر لو فعلت مثل هذا الفعل؟ أما أن تسقط القرارات (وغالباً ما تكون طائشة) على رقاب العباد من برج الحكام العاجي فهذا هو الذي يقتل إرادة الشعوب ويصادر دورهم ويحول دون إبداعاتهم.

رأى علاء في هذا الملجأ صورة قريبة من صورة سلمان عندما وقف لرسول الله يقترح حفر الخندق وذاك الصحابي (الحباب بن المنذر) الذي غير مجرى غزوة بدر باقتراح إبداعي منه. إنها الشورى التي تحفّز العقل وتخلق الإبداع في حياة الناس.

استمع الجميع بداية إلى تقارير ميدانية (عسكرية) والتي أكدت ثبات المقاومة وعدم قدرة الجيش على التقدم والتوغل داخل المدن ومخيمات القطاع. وتقارير أمنية عن حالة الجبهة الداخلية المتماسكة مع وجود بعض الثغرات والتي تم السيطرة على أغلبها، ومازالت الحرب المخابراتية قائمة في القطاع ما بين أمن المقاومة ومحاولات الاختراق الصهيونية باستخدام عملائها وعناصرها النائمة التي توقظها في الوقت الذي تشاء. ثم فُتح النقاش لتقييم الأوضاع السياسية من كل الزوايا

الممكنة، ماذا ربح العدو الصهيوني وماذا خسر، كذلك المقاومة والقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني في غزة وفي غير غزة.

• بداية ماذا ربح العدو وماذا خسر، وهل حقق نصراً أم خاب بهزيمة. هذا مرهون بأهدافه. لم يحدد الأهداف حتى لا يقع بخطئه في لبنان إذ أعلن عن أهداف بداية المعركة، ولما لم يحققها تراجع عنها. هنا موّه أهدافه، ولكن بإمكاننا أن نعرفها من خلال بعض التصريحات.

أولاً: كان لابد من استعادة قوة الردع لجيشه والتي فقدها في لبنان.

ثانياً: الاستفادة من هذه الحرب في الانتخابات الإسرائيلية القادمة. وقد نزيد هدفاً ثالثاً كما حلل «محمد حسنين هيكل» كان المطلوب إزالة عقبة عن طريق التسوية على مزاجهم وهي عقبة المقاومة. وهناك هدف رابع وهو وقف إطلاق الصواريخ. وحيث تم إطلاق واحد وعشرين قبيل إعلانهم لوقف إطلاق النار.

كما تلاحظون لم يحقق العدو أي هدف من أهدافه، إذاً هي الهزيمة الواضحة كعين الشمس.

كان علاء يستمع بلوعة وشغف وشعور بالروعة كونه للمرة الأولى في حياته يشارك في عملية شورية على هذا المستوى وهي هذا الموضوع العزيز. ولكن في نفس الوقت كان قلبه يتفلت، يود سماع صوت الحبيبة، يريد أن يبث أطنان الحنين المضغوطة في صدره والتي توشك أن تنفجر، هدأت المعركة في الميدان وهاجت في الصدر شجون الوجدان. «ماذا وكيف وأين،

نلتقي ونتناجى بغير شبكة الوصل الإلكترونية بين قلبينا.. بعد أن نتأكد من وقف النار وتضع الحرب كل أوزارها دون أن تترك منه شيئاً سأطير إلى مصر. ليال طويلة وسهرات جميلة تنتظرك يا علاء. الآن تستحق أن تستمتع بحياة عبّدت طريقها بكرامة الفعل وشموخ الموقف - أحمدك يا رب - طارت جلسة الشورى بسرعة، أفاق على نفسه وهم يسألونه - أمير المجموعة يسأل:

- ما رأيك أيها الدكتور الملثم، اكشف عن بعض تحليلاتك.

- تململ وقال: - حياك الله - أرى أن هذه الحرب قد حصدت هذه الفوائد:

١- كشفت صورة «إسرائيل» في العالم وأظهرتها على حقيقتها الإجرامية، وأعتقد أنه حتى في أوروبا قد فقدت صورة الضحية التي كانت تتمتع بها على الدوام.

٢- مئات المؤسسات القانونية في العالم بأسره تطالب بمحاكمة الإسرائيليين على أنهم مجرمو حرب. ساسة وعسكريين.

٣- رفعت من شأن القضية الفلسطينية وأعادتها للصدارة.

٤- رفعت من شعبية خيار المقاومة في غزة والضفة في العالمين العربي والإسلامي، وأصبح مع كل طلقة عمق جديد للمقاومة كما قال المحلل العسكري البريطاني «كروزمات».

٥- كشفت عبثية المفاوضات وعرّت خيار التسوية على حقيقته.

٦- وحّدت الشعوب العربية والإسلامية حول مركزية القضية الفلسطينية.

٧- كشفت الخير العظيم الموجود في هذه الشعوب وأنهت صورة الغثائية التي كان يتباكى عليها، واعتاد نعي الأمة للأمة على قاعدة، من قال هلك الناس فهو أهلكهم.

٨- وفي نفس السياق عرّت الحكام وأكدت ضرورة الخلاص منهم ومن عفنهم. وإنّا على موعد معهم في الجولة القادمة ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

٩- لابد وأن تنجح هذه الحرب وأرى أن نوصي قيادة المقاومة بالدفع بقوة باتجاه إنهاء الانقسام الفلسطيني والعودة للوحدة والاتفاق على أجندة وطنية واحدة لقيادة القضية الفلسطينية.

١٠- عاجلاً أم آجلاً سيبدأ الجمهور الإسرائيلي بجرد الحساب لقادة الحرب الذين لم يحققوا فيها أي هدف، وليس هذا من باب صحوة الضمير وإنما هو من باب الفشل القيادي الذي لا يحقق طموح هذا الشعب في المزيد من القتل والإجرام. أتوقع أن يخسر الثلاثي الذي قاد الحرب في الانتخابات القادمة وهذا تصويت على فشل الحرب.

- يكفينا يا دكتور لم يبق إلا أن تدخل المشروع الصهيوني غرفة العناية المكثفة. «علق آخر..»

- ولن تنفعه، وإنما هو في حالة الموت السريري.

- يا جماعة لا تبالغوا. لا تنسوا حجم الدمار الذي خلفوه وراءهم.

- وهذه من علامات الهزيمة، لو أنهم منتصرون لما قاموا بهذه الجرائم.

- نحن متفقون، لكن لا أريد أن نبالغ. لننظر إلى الأمر دون تهويل أو تهوين، بموضوعية مجردة. ما لهم وما عليهم.

- هذا صحيح، ونحن أمامنا مشوار طويل في الإعمار وبناء ما دمره الاحتلال، ثم إن هذه جولة وأمامنا جولات قبل أن نصل إلى الحسم النهائي مع هذه الغدة السرطانية.

واستمر النقاش وصياغة التوصيات، وكان لهم عدة لقاءات، أما صاحبنا علاء فقد استأذن وودع صاحبه وسط دموع سالت بحرارة وصمت وهما يتذكران عبد العزيز، فقد كان لحظة اللقاء ولم يعد بينهما لحظة الفراق. إنه هناك في أعلى عليين.

خرج علاء من هذا الاجتماع وأذان الظهر يصدح، لم يسمع مؤذناً يؤذن وإنما رأى غزة كلها تؤذن. تقول بملء فيها: الله أكبر. الاحتلال هو الأصغر، الأحقر. هو زائل ومندحر ووجه الله باقٍ لأنه الأكبر.

عندما تلتحم هذه الكلمة مع إرادات الشعوب، لن يعلو هذه الشعوب

شيء مهما عظم، لن يكون هناك طواغيت يمتطون ظهور الشعوب ويذلون رقابهم عندما تلتحم اللّه أكبر مع هِمَم الرجال وهامات النساء. لن يقف أمامها شيء، ستصغر طائرات الـ (F16) وتصبح كالذباب، ستبطل سموم الكوبرا ومروحيات «الأباتشي» بكل تقنياتها القاتلة وستندحر الكتل الحديدية الهائلة التي تسمى دبابات «الميركافا». ستولي الدبر وستهزم أرتالها. فعلاً امبراطورية غزة تعملقت بصمودها وثباتها لأنها تناغمت مع اللّه أكبر، لم يعد في سماء غزة سوى اللّه في جلاله وعظيم رحماته، لا إله إلا اللّه مسحت من سمائها كل أوساخ أعتى البشر وجعلته صافياً أزرق، باهياً يكاد يكون وردة متفتحة تنشر شذى جمالها لتصيب كل الأرواح.

وغابت من حياة غزة مآرب المجرمين وشاهت وجوه من أرادوا لها الجحيم. هناك فقط حضور قوي لسيد الأولين والآخرين، وناصر المجاهدين. وأشهد أن محمدا رسول اللّه. تعالوا الآن إلى الصلاة وليست كأي صلاة. تعالوا إلى صلاة غزة. كل غزة الآن تصلي وتتواصل بكل تفاصيلها مع أرحم الراحمين مع العزيز الحكيم الذي أعزها وحماها من الهلع والجزع.. ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً** (١٩) **إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً** (٢٠) **وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً** (٢١) **إِلَّا الْمُصَلِّينَ** (٢٢)﴾.. مُصلّوا غزة الآن تحرروا على محك النار والحديد وقنابل الفسفور من كل أشكال الهلع والجزع فهل صلاتهم كأي صلاة؟!

وكان علاء يضع قدمه اليمنى في المكان الذي كان مسجداً[1].. الناس يصلون بين ركام المسجد. وغزة تؤذّن: حيّ على الفلاح.. ها هي طريق الفلاح تمر عبر الركام. ذلّة القصور والمساجد المرفهة والمفروشة بكل ما لذ وطاب لا تجلب الفلاح. يرضى عنها السلاطين وقد يفتتحها الاحتلال، أما مساجد غزة ولأنها عزيزة وترفض الإذعان ويقف على منابرها من يدعو للعزة والجهاد فإنها تصبح ركاما.. ما أجمل وما أعظم وما أعزّ وما أكرم من صلاة بين هذا الركام الذي رفض الخنوع والاستسلام وأبى إلا أن يحقق النصر ويشمّ رائحة الكرام.

وعادت غزة (وهي تؤذن) تؤكد أن لا كبرياء لأحد في إعمار نفسها ولا شأن لأحد في شأنها إلا الله. إلا الله وحده فإياكم أن تعبثوا في أي شيء يخصّ غزة. لا إله إلا الله. لا نعترف بأي باطل. من هي هذه «إسرائيل» التي كنا نعلن أننا نعترف بها. إننا الآن لا نراها على خريطة مستقبل حياتنا ولا نرى لها أثراً.

لن نعترف في كل جزئية من جزئيات حياتنا ولا على أي سنتمتر من مساحة فلسطيننا، إلا وهو لله ينزعه من الظالمين ويعيده إلى أصحابه الصالحين. إنها عملية التحرر الكاملة والشاملة والتامة التي تقوم بها لا إله إلا الله من على مآذن غزة المدمرة. من وسط هذا الركام صلّى

١- تم هدم ٥٨ مسجداً بالكامل وإصابة عشرات غيرها.

صلاة خالصة لله. واكتشف بأن صلاته قبل حرب الفرقان في غزة لم تكن قطعياً مثل هذه الصلاة.

ومن هناك يمم وجهه شطر مقبرة الشهداء، أشواقه تدفعه ليرتب الأولويات.. الشهداء فمستشفى الشفاء فبيت الطفولة وذكريات العائلة رحمها الله.

غصّت المقبرة بالناس. الناس زرافات تدخل وزرافات تخرج، ووجد علاء حركة من زرافات المشاعر الفرحة والحزينة تجوب أعماق قلبه، يبتهج وهو يراهم في الجنة ويحزن ويضجّ قلبه شوقاً عندما يتذكر أنهم تركوا فراغاً هائلاً في حياته. سيناجي من مكان أبيه؟ سيحنُّ إلى خبز من؟ مكان خبز أمه، من التي ستتّصل به وسماعة الهاتف تمتلئ لهفة وحناناً، تلفّه بحضن كلماتها الحانية وهو يرى عن بعد الكيلومترات دمعتها الشافية لجروح القلب وغربة الأيام. من سيحل مكان ذاك الدلال الذي يتمطّى في أعماق القلب فيضيء بمصابيحه الذهبية أزهار الحديقة. أختاه الصغيرتان وجع نازف لا ينتهي من حياته ما بقي على هذه الحياة. كانت دموعه تنزل فيخشى أن يراها الناس، يسارع في مسحها وكأنه يرى الناس يفعلون مثل فعله. يتحلّق أهالي الشهداء حول قبورهم يقرؤون لهم القرآن، يعيشون معهم لحظات شاعرية تسلب القلوب لبّها وتسكب العيون عبراتها ويلتهب الحنين في مجامره وتتضرج المشاعر في دمائها فتئن أنيناً

حزيناً وتعزف شجناً بكل ألوان الشوق ولوعة الأيام. من الأعماق يبكون، يغضبون، يسألون الله الانتقام وأن يريهم في بني صهيون يوماً أسود.

ويقطع علاء هذه المشاهد وقلبه يسارع أمامه إلى حيث قبر الذين دفنوا على عجل وفي قبر واحد. يا لقسوة الحرب وفظاعة الإجرام.. ألقى بصره حيث يدفن الأحباب، رأى رجلاً مع فتاة يجلسان عند شاهد القبر. من تراهم؟ أهناك من يسبقني إلى قبر أبي. تنتهي الحرب وتُقدّم الشورى على زيارة أمك وأبيك يا علاء؟ طبعاً فالأحياء أولى من الأموات، ولكنهم ليسوا أمواتا. إنهم عند ربهم أحياء. شد خطاه وفضوله يدفعه بكل قوة لمعرفة من يكون هؤلاء الذين سبقوه إلى قبر أبيه.. الصورة تتضح شيئاً فشيئاً.. الرجل يشبه عمي الدكتور. لا، لا كيف سيأتي من مصر، ثم إن المعبر مغلق ولم يكن هناك وقت كافٍ لوصوله بعد وقف القتال. علاء يقترب أكثر. الفتاة كأنها خطيبته ولكن هذا محال، إذاً كيف ومتى؟ «لا لا مش معقول».

الخطى تتعثر والفضول يتسارع ولهيب الاحتمالات يضرب الأفق، أرجع البصر يا علاء؟! هل أنت في يقظة أم منام؟! ها هي الصورة واضحة تماماً، كبِّر الصورة أو صغِّرها على شاشة قلبك على أوضح ما يكون. إنه عمّه وخطيبته يسرى.

وقف واجماً على بعد خطوات. شدّ إلى صدره نفساً أراد أن يتزوّد بقدرٍ كافٍ من الأوكسجين حتى يكون قادراً على ثقل المشاعر، إنها من

العيار الثقيل، غامت عيناه، ارتعشت ركبتاه وأوشك على الغياب. تقدمت خطيبته لإنقاذ الموقف.

- ما لك يا علاء.

«مالك يا علاء. إنها بلحمها ودمها. إنها هي. يسرى نعم يسرى. وهذا أبوها. عمي. كيف أتيت إلى هنا؟!».

«كان لابد من كشف اللثام بسرعة عما كان في ما خلت من أيام الفراق حتى تزول آثار الصدمة. وينقشع الضباب، تقدمت يسرى خطوات، قطعت مسافة أحزان الفراق، لفّته برائحتها الزكية ونشرت من سحرها في أعماقه شيئاً من المنبهات الطيبة.

وقفت قبالته. مسكت راحتيه بيديها الصغيرتين وهتفت:

- حمداً لله على سلامتك حبيب القلب. أنا وأبي هنا في غزة منذ ثمانية أيام، ليس تطوعاً كما يفعل الأجانب وإنما هو نداء الواجب. شعرت بك أنك غادرت موقعك في الإسعاف إلى موقع آخر أكثر تقدماً، عقدت العزم على أن أحلّ مكانك في الإسعاف، وأبي أيضاً لم يستطع النوم دون تلبية الواجب حيث إنك تعلم بأنه أخصائي أوعية دموية وعلم بأنهم بأشد الحاجة إلى هذا التخصص بعد استخدامهم «لقنابل الدايم» والتي هي أيضاً مخصصة في شلّ الدورة الدموية لدى الإنسان.

تعانق الرجلان عناقاً حاراً. لمس علاء في شخص عمه رائحة أبيه، ودّ لو يطول العناق ولكن حبيبة القلب تابعت بثَّ عذوبة الكلام:

- صدّنا المعبر وكان عشرات الأطباء بالانتظار منذ عدّة أيام.

- وكيف دخلتم؟!

- من أنفاق الحرية، صدقني يا علاء إني لم أشعر بالحرية في حياتي كما كنت أشعر بها وأنا داخل النفق. إنه تابع للسيادة الحرَّة بينما ذاك الذي فوق الأرض يحكم ويرسم في حركة الجرحى والمعذبين ويخنق ويمنع ضرورات المحتاجين والمنكوبين. تابع لسيادة العبيد. لو أني مكان المقاومة لطالبت ببقاء هذا المعبر مغلقاً إلى الأبد. تباً لمعبر تتكرّس فيه إرادة المجرمين. «هتف علاء من أعماقه»..

- مرحى، مرحى بألطاف المولى حينما تنزل هكذا دفعة واحدة. أحمدك ربي على عظيم فضلك، ما أروع كرمك! لا أدري على ماذا أسرّ؟! على قدوم يُسرى أم على نصر غزة؟!

- هيا لنقرأ الفاتحة وما تيسر. «هتف العم».

في طريق العودة بعد أن بثّ علاء كل ما لديه من حنين لأبويه وأختيه وكل الشهداء قال العم:

- أنت ابن أخي وولدي يا علاء، محنتك هي محنتنا، وكل المصائب تهون دون مصيبة الإنسان في كرامته أو دينه. كم أتمنى أن تكون نهايتي

هي نهاية الشهداء. إنها البداية العظيمة لحياة مجيدة مديدة عزيزة. أنت تدرك تماماً بل وأكثر مني حقيقة الدنيا من الآخرة، إنها مجرد قاعة امتحان، نجيب عن مجموعة أسئلة ثم نمضي.

أرادت الخطيبة أن تضفي شيئاً من المرح فهتفت:

- في كلية الطب أسئلة الامتحانات طويلة. أنا وعلاء يلزمنا أن نجيب مئة سؤال وسؤال. «ابتسم علاء وقال»:

- لا تقلق يا عمي، إجاباتنا جاهزة، حرب غزة زوّدتنا بالإجابة على كل الأسئلة المتوقعة. نحن لها يا عم.

- كم أنا سعيد أن أسمع كلمات هذه الروح العالية، لم نكن نسمعها في غابر الأيام، كانت كلماتنا صغيرة، ضيقة، فاقدة الروح ضعيفة النفس، تدور حول ذواتنا الصغيرة بينما كلمات هذا الجيل الجديد تدور حول معاني عزيزة عالية عظيمة. تدور حول كرامة شعب ومجد أمة. يا للمستقبل العظيم الذي ينتظرنا.

ثم إنهما توجها إلى مستشفى الشفاء حيث التقى علاء مع زملائه في الإسعاف وتبادلا الأخبار بحيوية عالية، أخبروه عن استشهاد أربعة منهم، ترحّم عليهم وقرّر أن يزور بيوتهم، راح العم يتفقد مرضاه بينما أخذ علاء يد خطيبته إلى المكان الذي يحب، إلى حيث زهرات في أحلى سني العمر، إلى براعم لم تتفتح بعد ولكن الحرب جعلتها على أبهى ما يكون. هناك حديقة ضربتها الحرب بكل قسوة، شوّهت جمالياتها

وقصّفت أغصانها وسوّدت ألوانها ولكن أريجها وشذى روحها بقي مسيطراً على المكان وفارضاً نفسه على قلوب الزائرين، ذلك هو جناح الأطفال في مستشفى الشفاء.

تجد من كل الأعمار، منهم من أُنزل من بطن أمه دون أن يتم نضجه وذلك بعد أن أصيبت أمّه إصابة خطيرة لا يستقر معها الحمل، ومنهم ملك من العمر أشهراً أو سنة أو عدة سنوات، منهم من يدرك معنى الحرب وماذا يعني الإجرام ومنهم من يقلّب عينيه لا يدري لماذا نزل عليه الألم بكل هذه القسوة؟ لماذا ذهبت أمه بعيداً ولم يعد يراها. وكان علاء يشرح لخطيبته. ولكل طفل قصة، كيف طالته نيران الحقد الصهيونية وتمكنت من قنص طفولته؟ تستمع إلى عجائب الاحتلال في طفولة أبناء فلسطين بما لا تجد له تفسيرا سوى ساديّة عمياء دونها النازية والفاشية وكل أنواع البطش المريع الذي شهدته البشرية في تاريخها كله. لنقف على سبيل المثال لا الحصر إلى هذه الطفلة ابنة الأربع سنوات. إنها عزيزة عبد الله، لا شك بأن أهلها سمّوها عزيزة لأنهم أرادوا لها أن تعيش عزيزة مكرّمة تحفُّها السعادة والهناء بعيداً عن كل أشكال الضنك والشقاء. انظري إلى وجهها الوردي المبتسم على الدوام. يبدو أنها تنام على ظهرها نومة دلال وها هي أمها تجلس على كرسي قرب سريرها لتنعش روح طفلتها بمداد حنانها. على رسلك قليلاً يا حبيبة القلب، لا نومة الطفلة نومة دلال ولا تلك التي تجلس جوارها هي أمها على الحقيقة

في سجلات الأحوال المدنية..

لكلٍ قصة يا عزيزتي:

نومة الطفلة على ظهرها لأنها مصابة برصاصة في نخاعها الشوكي ولا يُعتقد أنها ستسترجع قدرتها على المشي. صوّر حادثة إصابتها هاوٍ على كاميرا فيديو، كانت كالآتي. وصلت دبابة من أحدث دبابات الجيش الإسرائيلي الهمام. وجّهت مدفعها الثقيل باتجاه بيت عزيزة عبد الله الصغير. زمجروا وطلبوا إخلاء البيت، استجاب سكانه الوادعون.. خرجوا، الأم، الجدة، وثلاث بنات، لم يكن هناك أي مقاوم أو حتى رجل. كانوا مرفوعي الأيدي خوفاً على أرواحهم، وقد حملت الجدة وفق خبرتها القديمة بالحروب راية بيضاء لتظهر أنهم مسالمون، سلّطت الكاميرا عدستها على هذه الجوقة التي تخرج من بيتها متلفعة بالخوف والجزع، تقرأ في عيونها كل صور الإجرام التي أبدعتها هذه الحرب، وترى على صفحة وجهها لون الموت الشاحب. تتقدم خطواتها وكأنها تسير في أرض عميقة الوحل، إذا انتزعت قدماً غارت الأخرى.

ثم راحت الكاميرا لتصور الجنود وهم يستندون إلى جدار الدبابة وفي أيديهم أكياس شرائح البطاطا،، أنهوا ما فيها بأفواه شرهة، تقدم ضابطهم وفي يديه كيس آخر. أشار على العائلة المتهالكة في خوفها. كانت تبتعد، أصبحت على بعد عشرة أمتار تقريباً. واضح أنه يلوّح بكيس شرائح البطاطس «الشيبس»، يرفع جائزة لمن يصيب الهدف، صوّب أحد الجنود

فقنص الجدة. أشار الضابط معترضاً ليست هذه التي يريد. فصوّب ثانية. عادت الكاميرا للناحية الثانية لترصد حركة الأطفال وقد احتموا بأمهاتهم بصورة تقطع الأكباد، الأم نشرت جناحيها المهيضين تحاول احتواء أطفالها ولكن الرصاص أصابها.. أشار الضابط على الأطفال فسارع الجندي الثاني ليطلق زخّة من الرصاص لتتهاوى الأغصان الغضة ويسقط كل شيء فيها أرضاً، جمالها، براءتها، حياتها، مستقبل أيامها، كل شيء سقط ففاز الجندي بكيس البطاطس بينما أخذ الجندي الخاسر الكيس الآخر كجائزة ترضية.

صعد الجندي الدبابة وكأنهم في رحلة صيد، لم يأبهوا بمقنوصاتهم لم يحملوا صيدهم، كانوا يأكلون البطاطس وكأنهم قد خلّصوا البيئة من بكتيريا تضرّ نقاء الأجواء.

نقلتهم سيارات الإسعاف إلى المستشفى بعد أن لفظوا أنفاسهم جميعاً سوى عزيزة التي استقرت رصاصة في أسفل ظهرها. عزيزة تعرف تماماً ما جرى لهم، من هم القتلة وكيف؟ تتذكر تماماً، بينما لماذا فعلوا ما فعلوا فهذا أمر لا يعرفه عقلها البريء، وخارجٌ عن دائرة استيعاب أن إنساناً يؤلم إنساناً هكذا مهما كانت أسباب الإيلام. ها هي بعينيها الجميلتين تدور المكان وتبادل نظرات الإشفاق والحنان، تبتسم فتضيء المكان بكل براءة وإحسان.

سألت الخطيبة:

- هذا عن الطفلة فماذا عن أمها القابعة بجوارها بكل عطف وحنان.

- حسناً، هي ليست أمها أولاً، ولها قصة عجيبة من أعجب عجائب الاحتلال. هذه المرأة يا سيدتي بعد رحلة طويلة مع العقم وآلامه وعلاجاته (استمرت قرابة عشرين سنة) رزقها الله طفلاً، استطاعت أخيراً أن تضم إلى صدرها مشروع إنسان تقول عنه إنه ابني، صار لها ولد وصارت أسعد أيام حياتها والوليد يكبر ويضم يوماً إلى أيامه المعدودات، يوماً على يوم ومع كل منها سجلٌّ حافل من الحركات والنهفات والذكريات، صار عمره سنة ثم سنتين ممتعتين للطفل ولأمه وأبيه. دخل السنة الثالثة وعند منتصفها جاءت هذه الحرب تمشي على قدم وساق. «هتفت الخطيبة بحرقة عميقة..»:

- أرجوك، لا تقل لي إنه قُتل.

- لا، لم يقتل بل حرق.

- لا إله إلا الله.

- اخترقت بيتهم الصغير شظية فسفورية حارقة، أراد زوجها حمل طفلها ولكن النار سبقته فحملتهما الاثنين إلى رحمة رب العالمين بينما، أصيبت الأم بحروق في جسدها شفيت منها فيما حروق روحها وقلبها فأنّى الشفاء منها. هنا في المشفى كانت محاولة لتخفيف هذه الحروق، أن قدموا لها هذه الطفلة عزيزة لتتبناها.

- طفلة بقيت من العائلة لأم لم يبق سواها من عائلة أخرى.

- زعق الجوال، نظر علاء إلى شاشته فرأى رسالة قصيرة من «بيبي»:

• أين أنت يا صديقي، كتبت لك رسالة ليلة أمس ولم ترد عليها، ستجد المشروع المفاجئ في الرسالة،، بيبي،،

سحب خطيبته من يدها وهتف:

- هيا، يجب أن أفتح الانترنت، هناك رسالة هامة. اثنان قالوا لي عن مشاريع مفاجئة. مشروعك أنت الذي أعتبره أعظم مشروع. أن تفاجئيني في غزة وبهذا العطاء المتألق فهذا من أعلى ما أتأمل في هذه الحياة.

- صحيح أنه مشروع مفاجئ ولكن من أقلِّ الواجب.

- الآخر الذي قال لي عن مشروع مفاجئ هو «بيبي» وها هو بانتظاري على الانترنت.

- وماذا تتوقع؟!

- قد يكون نشاطات جماهيرية ضد الحرب.

- وماذا عن صاحبك الأجنبي (جون)؟!

- هو نفسه (بيبي).

- وكيف؟!

- قصة سأحدثك عنها بالتفصيل. الآن (بيبي) هو ابن وزير الحرب لديهم.

- ماذا تقول؟! وكيف تجري الاتصالات معه؟ ألا يُعتبر هذا تطبيعاً.

- نعم تطبيع ولكن تطبيعه هو على ما نريد لا تطبيعنا نحن على ما

يريدون.

وصلا الغرفة الإدارية التي كان علاء يجري اتصالاته الإلكترونية فيها، استأذن ودخل على الرسالة مباشرة، بينما كانت خطيبته تجلس بجواره وتترقب مع خطيبها..

أخي العزيز علاء..

سلام الله عليك..

حبذا لو تدخل على الموقع الطلابي الجامعي الذي عملناه خصيصاً لمناهضي حرب المجانين هذه. حرب كما أصبح جلياً لكل ذي عقل، يقف خلفها قادة مهووسون قد شربوا من نهر جنون البقر ولا يرون أمامهم سوى كرسي رئاسة الوزراء ومنهم أبي (مد الله في عمره). أمام هذا الصّرع بدأت مشروعي الذي بشرتك به وهو أن أحرق جواز السفر الإسرائيلي ثم الهجرة إلى أمريكا بجوازي الأمريكي، وذلك احتجاجاً شديد اللهجة على الإجرام في غزة، وضغطاً قوياً على أبي والذي اعتبر هذا خطراً قوياً ففرض عليّ الإقامة الجبرية وأخفى عنده جوازي الأمريكي، رسالتي لم تصل كما يجب للجمهور الإسرائيلي نظراً للتعتيم والتضليل الذي يحيطون به هذه الحرب لذلك فإني أفكر بخطوة أعمق، وأكثر قوة لتصل إلى كل من لديه بقايا ضمير في الشعب الإسرائيلي الذي يتسارع نحو اليمين المتطرف، وهي رسالة مساندة وتأييد للشعب الفلسطيني المظلوم،

هي قطعاً ليست يأساً وإنما هي أن روحي ليست أهم من أرواح البشر التي تقتل في غزة بدم بارد. لقد قررت يا صديقي الانتحار، أقتل نفسي بيدي مرة واحدة خير من أن تقتل روحي أيدي الظالمين وتمرّغها في وحل الظلم كل يوم ألف مرة. وليعلم أبي أن حماية الناس وأمنهم ليست بالقتل والإجرام فها هو يعجز عن حماية ابنه، هذه كلمات مودع صديقي علاء. أوصيك بنفسك وشعبك خيراً. لا تحاول الرد على هذه الرسالة، أعلم أنك لن ترضى عن فكرة الانتحار قبل أن تقوم بأي رد سأكون في العالم الثاني. وداعاً وسنلتقي هناك.

بيبي

كزّ علاء على أسنانه، بدا عليه الحزن صارخاً. رسمت الخطيبة على وجهها ابتسامةٍ قصراً وهتفت:

- هوِّن عليك يا حبيبي، هذا مصيرٌ هو اختاره لنفسه، ولعلّ رسالته هذه تحدث أثراً كبيراً.. «رد بعمق فيه شيء من الحدة»..:

- في من؟ هؤلاء ومن بينهم أبوه لا يحملون بين جنبيهم قلوب بشر، قلوبهم قلوب ذئاب مفترسة كما قال لا ترضيهم إلا الدماء الفلسطينية. انتحاره فقط سيكون ضربة انتخابية لأبيه.

- وليكن، أيغضبك هذا؟!

- لا ولكني آمل أن يلعب دوراً أفضل، سرت معه طريقاً طويلة كي نصل

إلى ما هو أفضل من هذا. ثم إنه بالفعل صديق تربطني به عواطف نبيلة.

- يا روحي، هذا يمثل انتحار الجيل القادم. قادته اليوم أصبحوا من السفاهة التي لا ترى المستقبل. انظر الصورة التي حفرتها هذه الحرب في العالمين، من الصورة الكاذبة، إنها واحة الديمقراطية في منطقة عربية متوحشة، دولة الحداثة والعلم والتطور إلى أن تصبح صورتها الآن صورة الوحش الكاسر الذي لا يتورّع عن ممارسة كل أشكال الإجرام. صورتهم الآن هي صورة قاتل الأطفال، مصاصي دماء النساء والشعوب المظلومة. هؤلاء القادة سيصلون بهذا المشروع إلى الانتحار، هذا الشاب كان خطوة سابقة ومتقدمة لمصير ومستقبل هذا المشروع. «كروزمات المحلل البريطاني» يصف المستوى السياسي لهذه الدولة بأنه لا يتمتع بالحد الأدنى، أسودٌ يقودهم حمير.

ابتسم علاء.

- ولقد عهدناهم في المعركة، إنهم ليسوا أسودا بل فئرانا مذعورة تقودها حمير، طبعاً مع الاعتذار لمعشر الحمير لأنها لا يمكن أن تكون مجرمة، نحن نُطري عليهم كثيراً عندما نعطيهم هذا الوصف.

بعد أن خرجت المقاومة منتصرة من هذه الحرب وبعد أن انتصر بها

ومعها الشعب الفلسطيني بكل جداره، عاد الجميع للتواصل مع هذا الرقم الصعب.

• عادت قيادة الاحتلال للبحث عن حل من خلال السياسة والتفاوض غير المباشر - من خلال مصر - مع المقاومة حول التهدئة وفتح المعابر والجندي الأسير «جلعاد شاليط»، وما كان لها أن تفعل هذا لو انتصرت وحققت أهدافها بالعمل العسكري.

• وعاد المتآمرون (من العرب) الذين تمنّوا على العدو الصهيوني القضاء على هذه المقاومة، إلى معادلة المقاومة في الصراع والتي أرست قواعدها من خلال صمودها وانتصارها.

• فشل ولم يحقق شيئاً من ساروا في خيار التفاوض بعد إيقاف المقاومة أو محاولة شطبها أصبحت المقاومة هي الثابت والتفاوض هو المتغير بدل العكس.

وكان لابد من العودة الميمونة لعلاء إلى أمه مصر، لحق بخطيبته وعمه بعد أن انقشع شبح الحرب وانطلقت عملية إعمار غزة، كان هذا بعد أن اختارته المقاومة كمستشار لوفدها في القاهرة، نظراً لصدقه وحصافته وقدراته العالية في الوعي السياسي والعطاء.

كان علاء حريصاً وداعماً بكل قوة للوحدة والوفاق وإنهاء حالة الانقسام على ساحة القضية الفلسطينية، لأنه لمس آثاره السلبية قبل وأثناء وبعد الحرب. لمس علاء بكل ما يملك من أحاسيس ومشاعر

وأفكار وتصورات سر القضية الفلسطينية وقداسة روحها وهو أن لا يكون هناك أي تناقض إلا مع الاحتلال. مع هذا الاحتلال الذي مارس ويمارس وسيمارس أبشع ما عرفته وما لم تعرفه البشرية من جرائم واستكبار. وأن على الشعوب المستضعفة من الاحتلال في فلسطين أو أعوان الاحتلال في العالم العربي أن تدرك أن سبيل خلاصها من هذا الاحتلال، أو ذاك هو في صدقها مع ربها ودينها وقضاياها الوطنية والتي تتبوأ مركزيتها القضية الفلسطينية بكل جدارة كما الروح مع الجسد.

كان علاء وهو في سيارة سفره إلى مصر يستعيد شريط الحرب من أولها إلى آخرها. التطورات والنقلات النوعية التي حصلت على الأمّة بشكل عام وعلى أمّته الخاصة المتمثلة في الحبيبة. وكذلك سار مع صديقه الأجنبي والذي اكتشف أنه الشاب الإسرائيلي الذي لم يستوعب حجم الجريمة فاختار الانتحار. ثم انقطعت الأخبار.

ملّ علاء من طول الطريق ففتح حاسوبه، دخل شبكة الانترنت واستطلع نتائج الانتخابات الصهيونية، رأى الانتكاس الذي أصاب وزير الحرب وحزبه. تراجع خمسة مقاعد ولم يحظ بالمرتبة الأولى ولا الثانية، انتصر عليه حزب «إسرائيل بيتنا»، انتصر التطرف اليميني والوسط وكلهم متطرفون. كان هذا تصويتاً على الحرب ونتائجها. هذا بيان قاطع بأن الشعور الإسرائيلي عندهم هو الهزيمة الساحقة، لذلك فقد سقط روّاد الحرب وصنّاع الجريمة. لم تشفع لهم جرائمهم، لم تسعفه

٢٥٠٠ غارة جوية رمت مليون طن من المتفجرات عدا عن المحرم منها. لم تمنحه مقعداً واحداً ٥٠٪ من ذخيرة سلاح الجو. لم تنفعه مسرحيات القمم العربية التي كانت تتوق لفوز ما يسمى باليسار. ولم يستفد من كل الاجتماعات الأوروبية التي جاءت لتعزف أنغام السياسة الأمريكية في شرم الشيخ، وتطالب بالمساهمة في منع تهريب السلاح للمقاومة.

«إسرائيل» بجبروتها تطلب المساعدة الأمنية على ثلة من المقاومين القابعين على شريط حدودي ضيق اسمه قطاع غزة.

ولكن علاء لم يرَ أثراً عن خبر انتحار ابن هذا الوزير المأفون. وضع على برنامج البحث في «جوجل» اسم صديقه «بيبي» فقاده البحث إلى موقع الحملة المناهضة للحرب، قرأ خبر الانتحار وأن أباه أخفى ما جرى لابنه واحتفظ به في ثلاجة الموتى كي لا يؤثر على نتائج الانتخابات. ومع ذلك كان لحزبه هذا التراجع السحيق.

وقرأ خبراً آخر:

أصيب وزير الحرب «يهود باراك» بانهيار عصبي وهستيريا جنونية يقدر الأطباء النفسيون بأنها نتيجة للضغوط النفسية الهائلة التي نتجت عن:

خسارته في الحرب.

خسارته في الانتخابات.

خسارته لابنه.

مطاردته من قبل مئات المؤسسات الحقوقية على أنه مجرم حرب، وقد نصح الأطباء بضرورة إدخاله إلى مصحة نفسية تدعى: «الكنيست الإسرائيلي» لتوفر ألعاب التفريغ النفسي في ملعب يمارس فيه المجانين السياسة من كل الأحزاب.

تمّت بعون الله

٢٠٠٩/٢/٢٣

سجن النقب الصحراوي